مناسك الخوف



سلوى محسن





مناسك الخوف

روايـــــة

سلوى محسن



2019



مناسك الخوف

روايـــة

سلوى محسن

الطبعة الأولى: 2019

رقم الإيداع: 2019/13248

الترقيم الدولى: 6-277-748-977-978

دار الأدهم للنشر والتوزيع

١٥ شارع عبد القهار من شارع الأصبغ - حدائق الزيتون - القاهرة - مصر

ت: 01023186228 - 01126656505 - 01227341893

e mail: fares_khedr@yahoo.com

دار الأدهم للنشر والتوزيع

المدير العام: **فـارس خضـر**

المخرج المنفذ: **حسـام عنتر**

لوحة الغلاف للفنان الأرميني: **Avetis Khachatrian**

إهـــداء

إلى ابنتي: ريم وهديل

و

وردة القلب: كاميليا

-١-

الطرق حزينة والنكسة معلقة على بواباتها. تعلقت بخالي. كان حظر التجوال بين المحافظات ساريًا والتنقل بينها صعبًا. في السيارة؛ تشبثت به ورأسي تحت إبطه. رفرف الدمع وخيمت رائحة الفراق. عند كل نقطة تفتيش يرفع خالي كاب الجيش ملوحًا؛ فينفتح الطريق، ثم يخفضه يخفي به دمعه. كلما انفتحت السكة، بكى أبي؛ كأنما كان يريد بقاءنا في لجة الطريق كيلا نصل؛ فربما يكون اللقاء الأخير.

ركضت نحو قاعتها؛ صارت كالقبو؛ باردة ومظلمة إلا من طاقة نور خافت يضيئه وجهها. لمحت الشاهدة في ركن من الغرفة؛ مظلم على نحو ما. تفتل نطاقها حول شيء؛ ثم ربطته حول وسطها، والدمع يغرق وجهها. خرجت تهرول.

انحنيت على سارة قبلتها، واستكننت في حضنها. مررت كفي على عنقها وذراعيها. نزلت إلى ساقيها قبلتهما، وقبعت في جوارهما؛ كأنني أجلس في ظل النخلة لآخر مرة. رجلاها باردتان. مدت يدها تلمس وجهي وشعري، نظرت لي نظرة طويلة هي عمر الحب بيننا. لم تدمع عينها ولم تتبدل هيئتها. ابتسمَت وضغطت يدي. تلامسنا؛ فأدركت نورها وآخر أنفاسها.

همست العمتان: تصطنع المرض.
حملني خالي وصرخ:
- يا ختي، يامَّه، ياطرح العمر الضايع ياسارة.
وكنت أنتفض في حضنه كعصفور؛ فاجأه السيل.

-٢-

قديمًا؛ كان الفيضان يبقى بيننا أربعة شهور؛ هي بؤونة وأبيب ومسرى وتوت. يفيض النهر كل عام مع شروق الشمس من ناحية سبدت نجم إيزيس، أو الشعري اليمانية كما يسميه العرب، يرتفع سبدت عن الأفق الشرقي درجة واحدة عند شروق الشمس على عاصمة مصر القديمة، يظهر لمدة ثوان قبل الشروق، ثم لا يلبث أن يحترق يوم ولادته أول توت؛ أول شهور السنة الزراعية وبدء موسم الزراعة في مصر. عرف قدماء المصريين موعد الفيضان بأن جعلوا في الهرم الأكبر مناظير موجهة للنجوم ثبتوها في فتحات التهوية، تطل إيزيس من مرقدها من هذا المرصد الفلكي، ترى نجمها(سبدت) تقدس وجوده، فظهوره يعني مجيء الفيضان، وتعكس الأسطح الخارجية للهرم الضوء كمزولة شمسية بموجبها يحددون مواعيد البذار والحصاد.

يعرفون الفترة بين كل ظهورين لنجم إيزيس بثلاثة فصول كبيرة؛ الفيضان، والبذار والحصاد؛ كل منها أربعة شهور متساوية، ويتبقى من السنة خمسة أيام وربع يسمونها المنسية.

لايزال المزارعون يسيرون في تلك الأرض وعلى أديمها حفاة يتواصلون معها بأخماص أقدامهم، يدلهم سبدت على زمان الزراعة والأعياد

والشعائر، الأحوال والطبائع، يعلمون به لبدء الشتاء وانصرامه ودخولهم في الدفء.

يختبئ القمر مرتين في العام؛ تصطف الشمس مع الأرض، يسقط بينهما القمر فيُحجب عنه الضوء لدخوله في ظل الأرض؛ فلا يُرى ضياؤه عند اكتماله؛ فيخرجون في مناسك الخوف. لا يبوح العارفون باصطفاف الكواكب، بأثر الشمس على القمر، ولا بالأيام المنسية؛ فقد تكون الفتنة. تصحو ستنا كل عام؛ وقد اشتعل الماء. علمها النهر أن الفيضان (الدميرة) هو وجه الطبيعة القاسي، وأن عزمها وبنيتها وجهها الحاني.

بين يوم وليلة يسكن الخوف قريتنا؛ فتنتبه الأسر الصغيرة إلى أطفالها وشيوخها ومرضاها، وإلى أطوافهم الفقيرة على حافة النهر أو بالقرب منه؛ يخبئون متاعهم القليل بعيدًا عن الماء. يشتمون رائحة الفيضان قبله بأيام قليلة. في العام الفائت نحتت الدميرة حواف النهر، وأكلت باقي الجسر الذي يصلهم بمحيطهم؛ القرية الأم والسجل المدني اللذين تنقطع صلتهم بهما؛ فيمتنع عليهم تسجيل مواليدهم وموتاهم وقضاء حوائجهم؛ حتى يبنوا جسرًا آخر بينهم وبين المركز.

ستنا هي أم القرية، لكنها لم تتزوج. تحب المخلوقات كأم رءوم للكون، وكما تحنو على أبنائها؛ تكره أن يقسوا على باقي الكائنات ذات الروح؛ الماء، الأرض، الزرع والشجر، الطير والبهائم. تتشدد مع المخالفين فيما تراه ظلمًا. ليست ربة العدل في قريتنا لكنها الأقرب إليه؛ بزهدها واستغنائها وحياة خشنة وطنت نفسها عليها؛ لا أحد يعرف من أين جاءت.

نزحت إلى حافة النهر تشيد طوفًا على قمة الطريق إلينا. يقف طوفها شاهدًا على الأحداث، الدميرة، والخارجين عن قانون قريتنا. وحين ينشب العراك بين الأبناء على المياه، تقسم بينهم فيصبحون راضين.

قبل الفيضان تقف أمام طوفها تنبئهم بموعده وتعدهم لمواجهته. تسهر عشية حضوره يتحلق حولها أبناؤها يتشاورون كيف يحتوونه هذا العام. تقسمهم زمرًا؛ حسبما تنمو الأسر على رأس كل غيط بحذاء النهر؛ يحمون زمام القرية من غائلته. لا يشغل بالهم الجسر؛ بل زرعهم، خبزهم، طحينهم، غموس أطفالهم، وعلائق بهائمهم.

تنبأت ستنا بأن فيضان هذا العام سيكون عاتيًا؛ وتلك أماراته: شمس بؤونة ساخنة والطرقات ملتهبة بسطوة نارها، رطوبة عالية تكتم النفس وتجثم ثقيلة كالحجارة على الصدور. يقف الذباب على كل شيء لحوحًا ثقيلًا لا يفارق. أنبأها بؤونة أن فيضان هذا العام سيشبه الفائت. من طوفها تدلنا على شهوره: أبيب قيظ باهظ، مسرى تدنو الشمس من الرؤوس تغلي الهامات بلهيبها، يعلو الماء يحصد البشر، وعلى الرغم منه؛ يجري البِشرُ على ألسنتهم جريان الدم في العروق.

جعلت ستنا للسمك يومًا؛ كالعيد تمارسه معهم كل عام، يصطادون، يأكلون ويخزنون الفائض. أوصت بأن كل دار لابد وأن تأكل السمك مرتين أو ثلاثًا في الأسبوع حتى تقل الحرارة، وأن يرتدي الجميع ملابس ثقيلة. تنظر إلى أبداننا تقول: (اللي يحوش البرد يحوش الشرد).

يحمل الماء الطمي كل عام؛ فيعتلي كتف الجسر حتى صيّره تبة وجبيلين يخفون ما خلفهم بطول شاطئه. في آخر مرة كان مكتسحًا أضاف لهم طميًا فصل ما بين النهر وجسد القرية؛ وكأنما قلَبَ بطنها فجعل عاليها سافلها. من فضلها؛ أحالت الدميرة الأراضي التى طرحتها واديًا صغيرًا؛ يسمونه طرح البحر، يعلوه النخيل سامقًا. تظهر رؤوس القبور يلفها الضباب؛ كمدينة من الإبل الأسطورية[1] تهبط وتعلو؛ كأنما تلعب بها كائنات غير مرئية، يبنون مقابرهم على هيئة الجِمال؛ آلهتهم القديمة يتبركون بها لتحرس موتاهم.

جاء جدي محمد الكبير زارعًا هذه الأرض؛ بعد أن بارت تجارته في الخشب. نجا من الجوع والحصار في بلدة الشهداء؛ فاستقر في تلك المساحة الوديعة التي أخذت اسمه فيما بعد؛ عزبة أولاد محمد. يقول الشيوخ: لقد بدل اسمه، وذكروا أسماء كثيرة؛ غير أن معظمهم ذكر محمدًا. تزوج من الحبشية؛ وهذا هو اسمها؛ ابنة تاجر الخشب ذائع الصيت- شريك جدي في التجارة- واسع الغنى الذي يجوب النيل من رشيد إلى أسوان. الحبشية هي ابنته من جاريته المفضلة التي وهبها له سيده، فوهبها لجدي وأوصاه بها خيرًا. حررها جدي لتكون زوجته إكرامًا لأبيها المخلص. عرفت من ستي حكاية العبد أبي الحبشية، وهذا ماينادونه به؛ حيث أمكنه كسب ماله وحريته مقابل ضريبة يدفعها لسيده كل شهر ليكون حرًّا في عمله، وسمي عبدًا مُخارجًا، يُحتسب المال الذي يكسبه ضريبةً لتحرره؛ بعقد موثق بينه وبين سيده، تحرر وحرر أم الحبشية.

أنجبت الحبشية لجدي أول أبنائه الذكور؛ شاهين الحبشي، فثنى بحليمة؛ الحليبية؛ وهي كنيتها؛ الصغيرة؛ كالحلم؛ أخذها جدي من أبيها ولم تتم الحادية عشرة. تقبل جدي من فمه، وتنتظره على أعتاب الليل. تستحوذ عليه بدلالها، وطعامها؛ فتأسره. أتى بها من جوار مقام قطب الرجال سيدي شبل وهي تمت له بصلة نسب. أنجبت له الرفاعي أول أبنائها وثاني أبناء جدي. رزق من الحبشية بالبنين الأشداء؛ كما كانت تصفهم الحليبية، وتنسبهم إلى أمهم وليس إلى أبيهم. استحكم العداء بين أبناء القبيلتين؛ الأحباش والرفاعية.

أنجبت حليمة بعد الرفاعي ثمانية من الإناث أعقبتهم بسبعة من الذكور، وأنجبت الحبشية بعد شاهين ثلاث فتيات وأحد عشر صبيًّا. تباروا في سبق أبيهم إلى الحقل، ورغم طراوة عمرهم أتقنوا الفلاحة. اشتدت أعوادهم وصاروا رجالاً يهاب طرفهم. رضيت الحبشية برزق

أبنائها، وتبوأت موقعها كراعية لقبيلتها؛ تقسم العمل فيما بينهم، وتحظى برضاء جدي في هذا المجال فقط وليس سواه. اكتفت الحليبية بالغنج؛ تعد أبناءها، وأزواج بناتها لزيادة نسلهم ضمانًا للغلبة.

قسمت الدميرة قريتنا إلى نصفين؛ عالٍ وواطئ؛ التبة والواطية. استكانت بعض الأسر في الواطية؛ وتقع أسفل ظهر التبة بمقدار تسع سلمات؛ أسرة عطية الله الرفاعي، وعبد الجبار الرفاعي؛ أبناء حليمة؛ بعض أبناء الرفاعي الكبير؛ أحفاد حليمة؛ عبد الله الرفاعي، أحمد ومحمود الرفاعي، بعض بناتها المتزوجات من: طارق زيدان الرفاعي، سيد الطويلة؛ جابر عبد العاطي؛ هجرس خادم الأهل؛ وأسرة سيد غرابة الرفاعي، وبعض الأسر الفقيرة؛ أبناء وأحفاد جدي من باقي نسائه وجواريه. عن جدي خلف؛ أسمت حليمة أبناءها وأحفادها الذكور بأسماء تنتهي جميعها بالرفاعي.

أمام التبة- في الأعلى- استقر الفرعان الكبيران؛ الأحباش والرفاعية؛ حيث استقرت الحبشية وقبيلتها أمام التبة وقريبًا من النهر. وفي جوارهم استقرت أسرتا الرفاعي الرفاعي وسيد الأهل الرفاعي أكبر أبناء حليمة. وخلف التبة استقرت حليمة بأبنائها الآخرين؛ أحمد وعثمان ومحمود ويزيد وأبي اليزيد؛ وبعض بناتها وأزواجهن؛ كما استقر بعض أبناء جدي محمد؛ الحاج حسن وإخوته؛ العمدة؛ وعوض؛ من هاجر ابنة عم حليمة، وبعض الأسر الأخرى؛ وهم خليط من الرفاعية والأحباش؛ وبعض الأغراب ممن جاءت بهم المصاهرة؛ كأسرة عبد الله شحاتة، البانبي، الزاهد، خلف المنسي، البدراوة، وعائلتنا؛ فستي المبروكة هي كبرى بنات حليمة؛ وزوجة جدي لأبي؛ إبراهيم الرفاعي ابن عم حليمة.

مات أول أبناء جدي من جاريته فدفنه في الغرب؛ فصار الغرب جبانتنا؛ بالقرب منها تقع بيوت أبنائه من جواريه.

تزوج جدي من أربع نساء، وحاز سبع جوار كالأبنوس؛ أهدى له أبو زوجته الحبشية بعضهن، واشترى جدي بعضهن الآخر. غير جدي وبدل في نسائه؛ فكان يأمر شيخ الخفر بإناخة أقوى الجمال وأعقلها أمام باب الدوار؛ حاملًا طستًا وإناء نحاسيًّا كبيرين مشدودين إلى سنامه. تقبع كل من زوجاته الأربع في قاعاتهن مرتعدات الفرائص. يدخل شيخ الخفر قاعة إحداهن ويخرج حاملًا الإبريق النحاسي وسحارة الملابس؛ فترتاح قلوب الثلاث الأخريات. تحمل ضرائرها زوادتها من حبوب وسمن ولحم مخزون في براني بما يكفيها حولًا، يحملها الرجال على ظهر الجمل. تمشي المطلقة غيابيًّا مطأطأة الرأس دامعة تاركة أبناءها وراءها.

يرفعها جدي إلى المحمل؛ واضعًا في يدها ستة جنيهات ذهبية هي مؤخرها ونفقة متعتها، وإكرامية لأهلها؛ تشتري منها أرضًا؛ قاصدًا ألا يكون لأبنائه أم ذليلة تتسول العيش من ذويها أو الآخرين. أما الجواري؛ فلم يفزعن يومًا انتظارًا لهذا الطقس. كان يشتري ويبيع ويهدي الجواري، يضيف لبيته الصغيرة المليحة أو العاملة القوية؛ ويعيد من لم تعد له حاجة بها؛ فلا يتذمرن، ويقنعن بالحياة في كنف رجل ثري ذي هيبة، يعيش أبناؤهن منه لا فرق بينهم وأبناء الحرائر.

قسمت الكراهية لنسل كل من الحليبية وابنها الأكبر الرفاعي والحبشية وابنها الأكبر شاهين الأرض والماء. قسمت الدميرة نسل جدي بعشوائية. عائلات بقيت أراضيها قريبة من البيوت، وأخرى ابتعدت عنها. باتت أراضي الكثير من أهالي الواطية في عل، وكثير من أهالي التبة صارت أراضيهم في الأسفل. كان لزامًا على الجميع أن يمروا من أراضي بعضهم البعض ليرووا ويصلوا إلى زروعهم؛ ما كان مدعاة دائمة للتناحر. وباتت ذرية جدي تتصارع؛ يجَفجفون الحياة أمامهم؛ كما تساق النَّعَم بقسوة حتى يركب بعضها بعضًا.

-٣-

في محافظة مصرية قديمة بجنوب الدلتا؛ نصفها بين فرعي دمياط ورشيد، والنصف الآخر يمتد كظهير صحراوي غربي فرع رشيد؛ تسكن قريتنا المسافة الواقعة بين الصحراء والماء، قرب تيه من الرمال الذهبية في المنطقة بين الشمالين الشرقي والغربي للدلتا، لا تبعد عن العاصمة كثيرًا؛ فالوصول لها يستغرق وقتًا غير طويل في زمن القطار القشاش. ينفرد من فرع دمياط نهير صغير تنتشر فروعه في النجوع والقرى.

ثلاث شجرات مقدسة شيدت روح هذه الأرض. شجرة الشورى (المانجروف أو القرم) وينطقونها الشوره؛ تنمو بطول الشاطئ؛ جذورها الهوائية حاضنة أسماك؛ فروعها ملجأ الحطابين؛ تقصدها ستنا قبل الفيضان من كل عام لبناء طوفها. يزرعون منها واحدة بالقرب من كل بئر للماء، ويتشاورون في ظلها. الثانية هي الجميزة سيدة الشجر؛ المقدسة؛ رئة الوجود؛ حتحور الأم السماوية تسكن شجرة جميز؛ بالقرب من منف ترفرف إليها أرواح الموتى كالطيور فتطعمها وتسقيها. والجميزة هي أم سنوهي الفارس المصري الذي أدّب البدو في صحراء ليبيا بقيادة سنوسرت. ثالثة الشجر المقدسة هي النخلة شقيقة آدم؛ خلقت مثله من أديم ومن فضلة طينه.

على التخوم الشمالية لقريتنا؛ تحارب الجيشان الغازيان العربي والروماني. وشُيِّد مقام لقائد الجيوش العربية- المولود بالحبشة من أم حبشية- محمد بن الفضل بن العباس عم النبي محمد(صلعم). بنى المصريون المقام على جسد الحصن الروماني في بلدة الشهداء؛ يعرف اليوم بمقام سيدي شبل. اختلفوا حول تاريخ مقتله؛ فمرة يقتل عند دخول عمرو بن العاص مصر الذي يخبرنا طريق غزوته أنه لم يمر بجنوب الدلتا؛ بل دخلها من شمالها. ومرة يقتل عند دخول مروان بن الحكم رابع الخلفاء الأمويين مصر. وقال بعضهم أنه شخصية أسطورية ويرمز ضريحه لضحايا جيوش العرب عمومًا، وليس لجيش عمرو بن العاص تحديدًا. فيما بعد؛ أحاط المصريون بالضريح، فرقًا بعضها يكره الغزاة، وبعضها لم يزل يعيش بوجدان الغازي، والأغلبية لاتنتمي لأي منهم .

قبل احتشاد أرواح كثيرة على هذه الأرض؛ كانت البيوت تشيد من الطوب الأخضر والقش؛ بسيطة البنيان، تعلو عن الماء لكل منها باب يفتح على النهر. وبتكرار الفيضانات وابتعاد المساكن عن الضفة؛ بات لبعض البيوت بابان؛ الأول لاستقبال الناس وقضاء الحوائج؛ قصير يُظهر وجه الواقف أمامه وخلفه؛ هو باب النهار، والثاني عال؛ منهم من يستخدمه لصد الغوائل وإدخال وحماية الخزين والماشية؛ وهو باب الليل؛ سر الميلاد والموت، منه يشيعون الأحبة ويستقبلونهم. يطل منه من أراد الاختلاء بالقمر والشجن، يقصده المشتاق لعين الله والباحث عن ضالته. يتلمسه كل من مسرة وزاد يختطان شرطة مائلة على جسده يسجلان عدد مرات اللقاء؛ فيُنبت كل خط شجرة؛ لا أحد غير سارة يدرك سرها وظلالها.

يخزنون زاد عامهم من القمح فوق أسطح البيوت في صوامع ومطور من الطين؛ هي نسخة من مخازن أجدادهم.

في اثنين من تلك البيوت تعرضت لمحنتين؛ الأولى بعد وفاة شحاتة ابن عبد الله شحاتة. راحت سارة تساعد أمه في تحضير بعض القمح والذرة للطحين. فتحت أمي المطرين الأول والثاني لم تجد فيهما برًّا، فتحت الثالث وكنت بجوارها، وجدته مهجورًا وقد برز من فتحته كم ثوب، سحبته وكان به لطخات دم قديم. جاءت لها أمي بالقمح من دارنا؛ وهي تضع الثوب في القفة: (خدت الغلة نغسلها يا أم عبد الله).

سارت سارة إلى الجبانة؛ وكادت الظلمة أن تغرق الحقول. ردمت على الثوب في مدخل مدفن عائلة أبي عبد الله، سألتها:

- ليه دفنتيه في تربة أبو عبد الله.

- يمكن يكون لابنها اللي انقتل ودفنوه من غير مياخدو تاره.

- ايه عرفك ان دا توبه ياسارة؟.

- قلبي، نقولك سر؟.

خفت؛ فالأسرار دائمًا تحمل لي المخاطر. كان أحد الرفاعية.

بكيت حين تذكرت شحاتة؛ وكان يستقبلني حين عودتي من السفر بضحكة آسرة؛ يهمس وعيونه في الأرض: (جيتي يا مسره، انا قلبي بيفرحِ بك قوي). أشير له بيدي من خلف ظهري أن يبتعد كيلا نعاقب من أبي نحن الاثنين.

لم أكف عن البكاء؛ فأخبرتني سارة.

لم تُغفل ما ينطوى عليه مقتل شحاتة، ولم تدلس على أسرته. سارة في العموم باستثناء أحداث قليلة- في حياتها وحيوات من تحب وتكره- لم تستطع وربما لم ترِد أن تغير شيئًا، فظلت حبيسة المفروض وردود الفعل؛ إلا لو اعتبرنا السلبية الانتقائية، أو المثالية نوعًا من المقاومة، لكنها قط ليست ملاكًا.

لم تخف عنهم اسم قاتله طائعة. في دار حسن قُتل شحاتة.

كان وشقيقته نادية في الدار حين سقط الدسوقي أمامها عاريًا كما ولدته أمه؛ حاملًا بعض متاع دار ائتمنت عليها هي وأسرتها. قاومته فشق ثوبها وهوى عليها. قفز أخوها فوقه يخلصها منه، تعاركا حتى صار ثوبه مزقًا دامية. على صوت العراك جاء حسن، رفع عصاه فقفز الدسوقي ابن أخيه من فوقها عاريًا، وهوت العصا على شحاتة. لاحق الشقيق الدسوقي ودمه يجري، سقط فور وصوله إلى النهر وقد قفز فيه الدسوقي. لن أجدد النار؛ فلن يُنتصر لهم، وربما قُتلوا.

هوى قلب حسن إلى نادية وانتوى الزواج بها. لم يشفع حبه لها أن يتسامح مع مس أحدهم ثوبها ولو كان مغتصبًا. تعلل بزهده في النساء تجنبًا لسؤال لماذا لا يتزوج، (أعزب دهر ولا أرمل شهر، تعرفين المثل ياسارة).

أعتمت روحي حزنًا على شحاتة، وكان موته محنة عظيمة.

البيوت على هذه الأرض- خاصة بيوت العائلات الكبيرة- يلحق بها حاصل هو أيضًا سر البيت وستره؛ كما هي المطور. الحاصل يشبه القبو؛ يشيد في مكان رطب وهاو في رواق البيت لا تطاله شمس، مظلم دائمًا إلا من كوة تهوية بحجم قبضة اليد، تخزن فيه الحبوب وقفف العيش، براني السمن واللحم المقدد في دهنه، زلع الجبن والعسل، تليس الطحين؛ وهو كيس طويل من القماش، و زكائب الحبوب:

- يامسرة، ورحمة أُمِك تناوليني حُق السكر.

نظرت لها بكراهية، صرخت فيها، جريت باتجاه باب النهار أبحث عن سارة. أبكي، أمي ماتت!

نهرتني؛ فناولتها الحُق، فتحته، وجدته فارغًا. قالت بكهانة:

- مش هنقول ورحمة امك تاني، ادخلي الحاصل هتلقي زلعة العسل على إيدك اليمين أول ما تدخلي، املي الصحن وتعالي.

بخوف لا مثيل له من الظلام، دخلت الحاصل. ملأت الصحن بالعسل. في خروجي اصطدم جسدي بشيء؛ ربما بزكيبة أو تليس أو بجسد؛ فسمعت خشخشة، خفت. لمست بكفي بحرص، سمعت أنينًا؛ كاد أن يسيل من يدي العسل والهلع. أقسمت أنني لن أضع قدمي مرة أخرى في الحاصل. ناولتها العسل، عادت سارة وأخبرتها ما سمعت، فارتعشت:

- يعني إيه اللي سمعته ياسارة؟

- ولا حاجه، انت مسمعتيش حاجه، دي تهيؤات.

- انا حطيت إيدي سمعت منازعه، حسيت انه صوت خالي.

لم تنظر إلي. لم أنم بجوارها تلك الليلة؛ أبعدتني عنها وأعطتني ظهرها. في الصباح أخذتني من يدي، دخلت قبلي الحاصل لتطمئنني:

- فين التليس اللي بينازع؟.

- هنا على الشمال.

وأشرت!

- آدي الشمال، حطي إيدك، فينه، هو ده؟ وخبطت عليه.

لمست التليس الوحيد الموجود على الشمال، وجدته قصيرًا.

- لا التاني كان تقريبًا طولي.

- في الحاصل مفيش حد بينازع، ونقفل سيرته بقى اتفقنا؟.

كانت تلك هي المحنة الثانية التي أطلعتني على ما تفعله بيوتنا بأهليها. عزمت على عدم دخول الحاصل والابتعاد عن المطور كمن يبتعد عن دم ونار.

-٤-

بانتهاء العام الدراسي يشحننا بابا إلى قريتنا لقضاء عطلة الصيف. نجمع الكتب والكراسات التي خلصنا منها لنرصها أمام باب الشقة ليأخذها صاحب نصيبها، نلملم هدومنا وأغراضنا التي نحتاجها في الإجازة، نسرق كتبًا من مكتبته نغلفها بورق جرائد مؤقتًا حتى لا يفطن إلى العناوين وتكون ليلة لا نهار لها، ندس الكتب وسط كومة من الجرائد، وقبل أن يسأل أجيبه أن الجرائد من أجل ستي لتمسح بها زجاج لمبتها.

كان يصدقني على مضض؛ فقد اكتشف الحيلة منذ سفرتين. حفظت كتاب المطالعة الرشيدة؛ درس (الثعلب والغراب)، وقصيدة (ليس للثعلب دين). في قريتنا نوعان من الحيوانات لها ذيل طويل كث وغزير؛ أحدهما الثعلب، والثاني يسمونه (التفوَّه)؛ حيوان قذر جدًّا؛ وقد يسمونه الظربان أو الثعلب الذئب؛ يتفلون عن يسارهم بمجرد مروره في طريقهم؛ عند اقتراب أي كائن منه يطلق رائحة كريهة لتجنب هجومه. وكانت سارة تشبه طباع بعض الرفاعية بطباع الثعلب، وبعضهم برائحة الظربان، وتتفل عن يسارها.

عاد إخوتي من الصيد؛ وعلى كتف كل منهم خشبة طويلة علق بطرفيها صفيحتي السمك والطُّعم ومعهما السنارة، يسحبون وراءهم ثعلبًا بائسًا؛ مجروحًا ومكسورًا وفراؤه متدل:

- ياولاد ابني؛ ياولاد الكلب إيه اللي جارينه وراكو ده؟

قال الأربعة في نفس واحد كعيال أغرار:

- والنبي يا ستي حطي له مكركروم وداويه زي ركس الكلب.

رفضت ستي رفضًا قاطعًا مداواة الثعلب فلا زالت تكرهه كراهة التحريم؛ كأن يقول لها جدي: أنت علي كظهر أمي. صممت ولا راد لأمرها:

- اقطع راسه ياعيد.

نظر عيد إليها وإلينا، رفع ناظريه في أبي وطأطأ رأسه. لم يلبث بابا أيضًا أن طأطأ رأسه وغمغم بضع كلمات:

- فضيه وعلقه وغطي راسه بغراب ميت وسيبه ينشف.

سألت أمي عن معنى (فضيه)، غطت عيني بكفها:

- يعني يطلع مصارينه زي الأرنب. قلبها جامد وفارضه رأيها؛ الرفاعية قاسيين وشداد، وستك دي أقوى من فيهم، لأن أبوها وأمها مالكين وحاكمين.

غادرنا عائدين أنا وبابا إلى المدينة. في سكة القطار الترابية استغرقت في متابعة الكلاف؛ وهو يسبقنا على الحمار حاضنًا سبتين من الطعام الطازج والمطهو مايكفي قبيلتنا لمدة أسبوع؛ لا نشتري خلاله سوى القليل من السوق. سترحمني الزوادة من التسوق وحمل الطعام. علق بابا على فعلة ستي بالثعلب: ستك محققة. لايترك الثعلب في البيت حتى لو كان مستغيثًا أو جريحًا، يعني نسافر وتكون وحدها مع الثعلب، يعني يأكلها؟.

غمغمت: ليته يفعل.

قطع لسانك يا حمارة، يارب يدهسك وابور.

منذ تلك اللحظة ترسخت كراهتي لستي؛ بعد نعت بابا السيئ لي، وتجاهله وجود سارة. كان عيد ينام في بيته كل ليلة، وصار ركس مستأنسًا من فرط الإنسانية التي يعامل بها، يأكل من نفس الماعون؛ يد سارة ورحمتها، والثعلب يكرر فعلته مع ستي؛ يخطف فراخها، يشد من عليها الحرام لأنها كالميتة؛ دخلت عظامها في بعضها. تتفل عن يسارها لاعتقادها أن الثعلب شيطان، وكنت أنا وسارة نراها شيطانًا؛ فنتفل. تخبرنا بخشوع أن النوم موت مؤقت. تردد دعاء الصباح وهي تتثاءب؛ الحمد لله الذي أحيانا من بعد موتنا وإليه النشور.

أسأل الله كالأطفال أن يحفظ أمي. بين يديها وعلى صوت الرحماء ومحبيها عرفت معنى أن نرتقي ونستبصر.

في حجرة تظللها شجرة التوت نوافذها دون شبابيك؛ تحتوى على مُطر الغلة، ينثر على سطحها تراب الفرن؛ يخزن فوقه البصل والثوم ويغطى بقش الأرز. رأيت سارة تضع أواني الطعام بما تبقى فيها أمام ذكور البط كما تفعل باقي النساء؛ تيمنًا بأن الخير في الأعالي. يحتفين بالذكور؛ لأنها فك ضيق حين تباع، وستر لمائدة ضيف حين يولمن.

الدسوقي حفيد جدي الكبير؛ لا أب له؛ أسمر البشرة طويل ونحيف؛ حرامي حلل وطسوت؛ شرط أن تكون نحاسية ليتسنى له بيعها وشراء قمصان تحتانية وزجاجات عطر، سكر نبات كل أسبوع. كنت أنام أنا وسارة في باحة الدار في ليلة حارة غير مقمرة؛ رأينا على نور اللمبة ما يشبه الوطواط ينزل السلم المفضي إلى باب الليل؛ ما أن سمع صوت سارة؛ تراجع صاعدًا بسرعة مخيفة؛ وهو يرفع مِلحفة سوداء كبيرة بذراعيه لأعلى. همست سارة في العتمة، يسحب النحاس بعصاه العوجة من شباك الحضير؛ وهو عارٍ كما ولدته أمه؛ يتعرى حذرًا؛ حتى لا تمنعه امرأة من السرقة ولو سرق روحها؛ ولو صرخت، يفضحها في العزبة ويقول كان في قاعتها على حصيرتها وتحت حرامها،

وكان غطاءها طول الليل، لا يستطيع رجل أن يمسكه إلا من ذكره، وقتها سيقول (الوسخ فاكرني مَره ولّا زيُّه بتاع عيال). يسرق في الليالي الباردة؛ حيث يطول الليل ويغيب القمر فيأخذ راحته؛ وإن ركضوا خلفه قفز في الماء البارد لا يقوى أحدهم على السباحة خلفه. يعوم ويخرج بعيدًا عن سلطة الخفر.

تزوج الدسوقي من انشراح حبيبة فتوح، وكلاهما ابن إحدى أسر الرفاعية الفقيرة؛ بعد أن باع أبوه نصف دارهم قبل مرور أربعين يومًا على وفاة أمه، ودفعها مهرًا لعروس في عمر ابنه، وكان فتوح في الحادية عشرة. هجر الدار ونام في الشون البرانية التي تأوي البهائم نهارًا. ما أن زُوِّجت انشراح من الدسوقي نكاية فيها وفيه لأنه تجرأ وتغنى بجمالها، وكسرًا لروحها وأختها وأمها فائقتي الجمال وأخيها ذي العيون الخضراء، أكمل لي زاد: كبر فتوح وساب الشون وصار واحدًا ممن لا مثوى لهم، يفتش عن رقدة ولقمة، يبيت في التُرب أو الشون، ويعتبر الجامع بعد مشوار الليل والنهار مثوًى مريحًا له. دفنوا الميت وأعادوا النعش وسابوه قدام باب الجامع. بعد صلاة العشاء نقل المصلون النعش إلى مكانه قريبًا من المنبر؛ يستعدون لصلاة الجنازة على أبي عبد الله شحاتة، الذي تسبب الدسوقي في قتل ابنه في دار الحاج حسن، فتوح لقي لقيَّه، فتح النعش، رقد فيه وسحب الغطاء الأخضر ونام. فى صلاة الفجر أمرهم الإمام أن يساووا صفوفهم وصلى بهم. وهم راكعون شافوا غطاء النعش يتحرك، ارتعشوا، حاولوا أن يثبتوا، فجأة ارتفع الغطاء، وخرج فتوح يفرك عينيه ويسأل (هو انتو اقمتو الصلا يابن عمي؟)، طلع الدسوقي من الصلاة مرعوبًا يسب ويلعن، ساب الجامع دون بلغته وهو يصرخ (دا أنا أول مرة نصلي الفجر يا ولاد ميتين الكلب). من يومها لا هدأ فتوح ولا سكن، واستمر الدسوقي حافيًا يبحث عن بُلغة أعطاها له العمده ليداوم

على الصلاة في الجامع، ولما عثر عليها باعها؛ فقد اعتاد الحفاء. كرهت انشراح دناءته؛ فطلقها. وأصبحا خصمين؛ العاشق والحرامي ولم تعد انشراح تصلح لأي منهما. وصار فتوح في العشق مثلًا.

سافر بابا وتركني. كنت مع زاد حين رآنا زُعرُب مضحك قريتنا؛ فصمم أن يريني الجبانة الغربية وكيف أنها كالجنة. رأينا فتوحًا يجوب الحقول حالمًا يكلم القمر؛ يرتعش من نسمة؛ مسلمًا روحه لليل؛ حاملاً سعفة بين ذراعيه؛ يناديها بلثغة أحالت حرف الراء على لسانه إلى لام. سمعناه يزعق (يانشلاااح). وكأنها كانت قريبة؛ تسمع مناجاته تنسل كخيط الحرير، تحمل خبزًا وماء، يضوع من جسدها العطر. رَقَّ:

(تعلفي يابت يا انشلاح أني بنحب الغلة ليه)؟. تطحن الشوق بشفتيها، تترك وجنتها في كفه؛ يلمس رأسها بصدره: (عشان انتِ طحين طالع م القادوس؛ دافي وفيه ليحة لبنا).

عرفت من سارة أن انشراحًا حملت بجنينها وطرحته بين أعواد الذرة. كان هذا أول لقاءات العشق بين فتوح وانشراح وقد أخبر العزبة أنها قبلته زوجًا. نسمع ولولته (يانشلاااح حبيبك مال حاله، يابت العز والدلال، ياأمُ المقام عالي، ببصة من عينيكي ينصلح حالي، يابت حني بقى وتعالي، يانشلاااح). ولا تجيء انشراح.

في غمرة وجد فتوح قد تقطع عجلة حبلها، أو تفلت بقرة من(النير)؛ أي ناف الكباس؛ وهو عرق خشبي يوضع على عنق حيوانات الجر وهي تدور في الساقية. في نوبة ري ليلي؛ قد تهرب بقرة صغيرة من مشاق العمل والجوع، أو أخرى قد تهيم طلبًا للعشار. لا يجيد القبض على العجلات الضالة والهاربة سوى فتوح الباحث عن انشراح نصفه المسروق.

قص علي زاد حكاية قديمة؛ ومازلت صغيرة لا أعرف معنى الأحداث؛ أن من لم يسق البقرة لن يدخل الجنة. كطفلة خرقاء- ودون أن تعلم ستي- أخذت العجلة لتشرب بعد الفجر؛ مصداقًا لقول زاد. نطحتني؛ فأفلت حبلها من يدي وانخلع قلبي. خفت من ستي إلى حد طلوع الروح، ركضت وكل المتيقظين خلف المبروكة؛ كما أسمتها ستي باسمها حين أعطتها بركتها. جرينا خلفها نحلق ونحوش، صرخ فتوح: سيبوها لي. يناديها؛ بصوت خفيض ودامع كما يناجي حبيبة عسيرة المنال؛ لا يركض خلفها، يقف بين أعواد الذرة ينتظر رفة من أذنيها، أو رشة من نفَسِها تنفخ في حريرة الذرة وهي الشُرَّابة تحمل أعضاء التأنيث في النبات؛ يسمعها برهف، وما أن يستدل على مكانها يمشي رافعًا يديه كالمستسلم: (تعالي ياغاليه، تعالي ياست البنات، أنا فتوح اللي عُمْله ما أذى لوح، تعالي ياختي).

كرر النداء حتى وقفت العجلة في سكون. قبض على حبلها وربت على رقبتها، وضع عقلة ذرة خضراء في كفه، مدت فمها تلتقمها، مسح ظهرها وأسلمها لستي التي جلست في الفحل ورأسها بين يديها كمن غرق حقله. كان هروب المبروكة سؤالًا كبيرًا في رأسي، لم أجرؤ على طرحه لسنوات. لم أدر لماذا ولا أعرف إن كان حقًّا، ولا أذكر- في زياراتي لقريتنا- سوى أن الإناث هي التي كانت تقطع الحبل تهج ولا تطيق الضيم والأسر، ولا أن يخلى بينها وبين الطبيعة. لم أذكر أنه مرة في بهيم الليل خرج الرجال والنساء خلف عجل أو ثور، حلوف أو طلوقة؛ ربما لأن الذكور النقية أغلى فتلقى عناية أكثر لتعتلي ظهور الإناث بنجاح؛ ربما لأنهم يشددون القيد عليها كيلا تطيح وتبدد طاقتها الجنسية التي يوفرونها لبهائمهم؛ ربما لثقتهم أن الإناث ضعيفات وأقل قيد يضمن بقاءهن قيد الحبس. منع الرفاعية زراعة الذرة كيلا تكون ملتقى العشق بناء على توصية من الدسوقي؛ فحرموا زراعتها بضع

سنوات، ثم عادوا إليها بعد انتقال الآثمين إلى الجبانة. امتلأت بهم وكان السبق لفتوح؛ حيث بنى قبيلة لا رئيس لها؛ ليس بينهم وبين الله وسيط ولا حجاب؛ يسكنون رحابه، يدعونه إن مسهم ضر، يشكرونه على العيش وأكفهم مرفوعة نحو السماء. يحتفون بمن أتاهم مغادرًا أو مقبلًا من قريتنا، يبكون، يرقصون ويغنون للموت والحياة كأسلافهم(٢). يرون فيما يفعلون حقًّا، وأن كل ما يفعلونه جميل.

-٥-

أحب البقر وأكره أن يذبح. لا أهضم اللحوم. امتنعت عنها.

أتشاجر مع إخوتي على مناوبة الليل لأدور خلف البقرة وأسمع خوارها حين تتعب أو تحرن، تحرك رأسها؛ تحاول أن ترمى الغُمَى الذي يضعونه على عينيها أثناء العمل. كنت أفسر ذلك- في حينه - أنه رغبة منها أن تعرف من يضربها. لم أضرب البقرة؛ فقد علمتني سارة أن أتواصل مع المخلوقات بالعين. يحول الغُمَى دون هذا التواصل؛ فأبكي، لترفع الغُمَى.

- صدقيني، غُمى عينيها رحمة.

لا أكذبها؛ غير أني أتألم من أجل البقرة. حاولت أن أصف لأمي حالها؛ علها حين ترى بؤسي وحيرتي ترفع الغُمى. ابتعدت عنها؛ وقد جعلتها مركز دائرتي. أغمضت عينيها ووضعت ذراعيها خلف ظهرها. عصبت عيني، ورحت أدور حولها. أسقط فأستند بكفي على الأرض لأنهض، أصطدم بجسدها؛ وهي صامتة. في آخر سقوط لي؛ تركتُ جسدي يفيض على الأرض حتى خلتني أغرق؛ فبكيت. هوت جالسة بجواري. رفعت العصابة عن عيني. لأول مرة أشعر أنها عاجزة؛ لمحت في عينيها الخجل، ضمتني؛ فبكيت. لم تتكلم. وعلى ما يبدو كان حزنًا، أو كتمانًا لسبب لا أعرفه.

رويت لزاد ماحدث. قال: سارة محقة؛ الغُمَى حماية لكائن لا حيلة له وليس لخطوه نهاية، لا يعرف متى ينتهي مشواره. الغُمى رحمة؛ سياقتها تكون أسهل لو لم تعرف من خلفها، لو عرفت ستقف؛ تُضرب وترمح فتقع في بئر الكباس، ويذبحونها قبل أن تموت فلا يخسرون لحمها، ويكفيهم خسارة عملها، وربما تشعر أمك أنها كالبقرة؛ وأنتم كالغُمَى.

آلمني كلامه، وتمثل المعنى في رأسي حين رأيتهم يشبحونه معصوب العينين ويبرحونه ضربًا؛ وهو لا يستطيع وضع يديه أمام وجهه؛ لا يمكنه حماية جسده ولا اتقاء الضرب؛ لا يعرف من أين ولا متى يضربونه؛ ومتى ينتهون؛ فكان فريسة. حزنت لقوله أن الأبناء قيد أمهاتهم. تركته غاضبة؛ وكأنه المسئول. أعشق عيني البقرة وأشفق عليهما؛ وهما مغمضتان تطوفان في ظلام. تمنيت وأنا طفلة لو أنها أحست بونس شجرة التوت، ولمعة نور الفانوس تجري على الماء؛ لو أنها سمعت مثلي وشوشة الصفصاف للماء، واشتمت طلة الكافور. البهجة التي أعيشها - وأنا أسوق البقرة- تنقلب حزنًا، وأحتار بين فرحتي بصحبتها وحجب بصرها، والمأتم الذي يُنصب حين تقع بقرة في بئر الكباس. أتذكر عدودة صوت سارة الحزينة: ياقاني الأرواح كُن عليها نَوَّاح. سألتها:

- ليه البقرة غالية قوي؟.

- البقرة راسمال، صاحبَه، متشتكيش، حلابه وشغاله، فك دين وشركه، عيالها تغني لو صاحبها مخلفش، وهي كمان أم.

أمسكت بيدها التي تأتي منها الإجابات ما إن تحط على كتفي كهدهد، أحبه كأمي؛ كعلامة على نقاء البيئة من السموم، الحشرات والأعداء. يرى الماء، ويحس به في باطن الأرض يرفرف على موضع فنعلم أن به ماء؛ هكذا أخبر سليمان.

في يوم كان لزامًا على سارة أن تجيب عن سؤالي كيف تكون البقرة ابنة وأمًّا ولماذا ينوحون إن أصابها أذى. وقت حليب الصبح أخذتني إلى الزريبة، جعلت عيدًا يقرب من وجهي طاجن الحليب؛ بخاره الدافئ ورائحته تشبه دفء ثديها؛ رغوته الفياضة كحنانها. قالت: إشربي ياحبيبة. لمست بفمي زَبَد اللبن، رأيت الوجود في إحدى تجلياته. شربت وشبعت. طبطبت على كِفل البقرة، بصت في عينيها:(تسلمي يا حبيبه).

أدهشتني أمي؛ فأنا والبقرة أحِبتها، وقد جمع قلبها بيننا.

في قريتنا صنفان من البقر؛ مدلل وشَقيٌّ: المستورد (الفيريزيان)، والمحلي (البلدي)، ولم نزل نحفظ للبقر قدره؛ فالبقرة في قريتنا إلهة وأضحية. أشهر إلهة مصرية البقرة الأم والزوجة العاشقة حتحور. جاء في كتاب الخروج للنهار: انحسر النهر سبع سنوات، فعم الجفاف والجدب، وتبعتها سبع سنوات من وفرة الماء والخصب. من كتاب الخروج للنهار استعارت التوراة آية سبع البقرات العجاف والسبع السمان. وأشهر بقرة جاء ذكرها كأضحية؛ بقرة بني إسرائيل؛ فقد طلبوا من نبيهم موسى أن يضحي ببقرة (صفراء فاقع لونها يسر الناظرين). القرآن الكريم.

كان بابا أول من جلب صنف الفريزيان إلى قريتنا؛ بقرة عشار ولدت في زريبتنا عجلة جميلة أسمتها ستي المبروكة؛ أفرطت في العناية بها؛ لا تأكل إلا من يدها مهما دللناها؛ كأنها تقصد أن تغيظ كل من يتقرب إليها. ما زاد من حزني؛ أن الناف لا يوضع على رقبة أمها المدللة هي الأخرى؛ ويبدو أن سارة ترى ذلك طبيعيًّا؛ فهناك بقر يشقى وآخر يتنعم. أقسمت بيني وبين نفسي أن أكسب حب المبروكة من ستي التي تستأثر بالأمر والنهي في حياتنا. كان الأوان عطلة صيف. وفي بقعة مهملة على رأس الغيط تملحت أرضها فنعمت تربتها؛ تنبت فيها الرجلة

بكثرة؛ مشهدها وهي تمشي على وجه الأرض بلونها الأخضر الداكن وأوراقها الغضة يأسرني؛ فأحببت أن تأكل المبروكة منها. يقع حقل الرجلة خلف المنازل التي تعطي ظهرها للأخضر والجبانة؛ فيقع عليها النساء والأطفال يقضون أسفلها حاجتهم. تنهاني سارة بشدة عن الذهاب خلف الحائط؛ فتخيفني بالزنابير التي تسكنه وتتكاثر عليه. حرضتني المبروكة بحركة من رأسها؛ وهي تبعد يدي وتنفخ فيها من منخارها؛ فأفزعتني وقفزت في الهواء. ذهبت إلى هناك؛ حيث الغائط والزنابير. لململت بيسر أعواد الرجلة، ملأت حجري منها. واجهتني مشكلة؛ كيف أرفع ثوبي وأسير عارية وأنا لا أرتدي سروالًا طويلًا مثلهم وقد نسيت ارتداء تنورة إضافية؛ لو فعلتها لشُبِحت. أرتدي قميصين فوق تنورتي. خلعت أحدهما صررت فيه الرجلة، هاجمتني الزنابير ذوات السترة الصفراء لدغتني فسرت أرتعش. وصلت دارنا؛ وكانت ستي نائمة. تسللت حيث المبروكة ووضعت في مزودها الرجلة. انتظرت أن تعطيني عينيها ورأسها أربت عليه. بعدما أكلت الرجلة، نظرت إلي نظرة لم أفهمها؛ فجلست أنتظر أن تحنو. غفوت في مزود بالقرب منها. صحوت على يد سارة تهزني: مسرة!

دعكت عيني ونظرت إليها، وكانت العجلة تخرج رغوة من فمها. خبطت سارة صدرها وصرخت: المبروكة بتموت!

ارتعشت ودخلت عظامي في بعضها، وفركت يدي كالمذنبة.

نظرت سارة في المزود؛ فرأت بقايا الرجلة:

- يانهار مش فايت سنتنا غبره! مين حط الرجلة للمبروكة؟

- أ..أ، أنا ياسارة!

- ليه يامسرة ومين جابها؟.

- أنا، رحت ورا الحيطة وجبتها.

وضعت أمي يدها على رأسها؛ وكادت تشق ثوبها وتندب.

استيقظت ستي على صوتنا. توكأت في اتجاهنا. جلست سارة تنتظر مصيبة. نظرت إلى العجلة، وسألت نفس الأسئلة، وأجبتها كما أجبت أمي. هوت بعصاها على جنبي، صرخت. خطفت سارة العصا منها وقذفتها بعيدًا؛ فصرخت بدورها وشتمتها وشتمتني. جاء عم رزق بيطري بهائمنا. عمل للعجلة حقنة شرجية من الماء والصابون وأعقبها بحقنة زيت؛ فزربت، وأخرجت كل ما في جوفها. رقدت منهكة، مسدت ستي بطنها وراقبت شهيتها للطعام. صدر القرار بعدم اقترابي من المبروكة؛ وإلا قطعت رقبتي مرتين؛ مرة بواسطة ستي وأخرى بواسطة بابا. أعادت ستي إلى عنق المبروكة حجابًا به جزء من المشيمة وخرزة زرقاء تحميها من الحسود، علقته في رقبتها بحبل ناعم من التيل. لم تلتفت إلى التي أصابتها الحمى وقرصات الزنابير في يوم قائظ؛ كل ذنبها أنها أحبت عجلة، وأرادت أن تربت على رأسها. وفرت صراخي حتى تنتهيا من الصراخ على المبروكة. حرقَت سارة بعضًا من نبات الشافية في قاعتها ليهرب الناموس، فجسدي به ما يكفي من اللدغات. ضغطت على الورم لإخراج آلات اللسع. صرخت، هددتني: (لو زبان الدبور فضل في جسمك هيجري سمه في دمك).

دلكت مكان اللسع بعصارة الليمون والبصل والثوم، قامت بتلييس وجهي وجسدي بالطين لتخفيف الورم والألم. كانت حريصة على أن أتعافى قبل مجيء بابا؛ فهو لا يعرف عن الحائط سوى أن الأطفال يذهبون إلى هناك لممارسة لعبة عريس وعروسة، وكنت أعاف الكلام نفسه؛ فكيف يكون اللعب بجوار الغائط. لا أنسى وجهي في مرآة أمي وأنا في قناع الطين هذا؛ لا ينقصني سوى قرني كبش وعجلة فخار؛ لأكون أنا الطفل الصغير صنيعة خنوم[٣] موزع المياه وسارة روح الحياة؛ الحارس القوي لهذا الطفل. في آلام الحمى زارتني ستنا وعلمتني

صنع عرائس الطين ذكورًا وإناثًا. أخذت قبضة من طين النهر وضعتها في كفي؛ هذه هي حكاية أبي الماء؛ خالق البشر؛ إله الفيضان حارس منابع النيل؛ الفخراني يصنع أجساد الأطفال من الطين، يضعها في أرحام الأمّهات، وتنفخ زوجته (حقت) الروح فيهم.

أصبحت المبروكة شخصية مهمة جدًّا في أسرتنا وقريتنا بأسرها. كبرت وأصبح لها ضرع يختلف عن ضروع باقي البقر الذي نقتنيه وتحوزه باقي البيوت؛ يعزى هذا إلى طبيعة صنفها. في صباح يوم دخلت أمي إلى الزريبة مع عيد يتشاركان في حلب البهائم. أمي مسئولة عن البهائم التي تحلب لأول مرة؛ بخبرتها تحنن وتعصر الحلمات وتربت الضرع بحنان واصطبار؛ حتى لا تجرحها فتحرن وتصير عادة. وكان عيد مسئولًا عن البهائم التي خبرت الولادة وتهيأ ضرعها للحليب على يد سارة. تنام ستي عقب صلاة الفجر وتصحو بعد أن تشم رائحة الرقاق المعجون بالزبد، وتسمع صوت بسملة عيد وهو خارج بطواجن الحليب. في المساء ذهبت سارة للمبروكة لتضع لها العليقة وكنت بجوارها؛ وقد تعودت أن تقف أمامها حتى تطمئن أنها بدأت تأكل، لكنها أبت. وجدتها قلقة تتحرك كثيرًا؛ ظهرها منخفض وذيلها مرفوع إلى أعلى. قالت ربما تكون شائعًا، أي شبقة تطلب العشار، لم تخبر سارة ستي. دخلنا على المبروكة بعد حليب الصباح؛ فوجدت مهبلها أحمر ومنتفخًا ويسيل منه مخاط شفاف. قالت: شوفي!

جاء عم رزق عاين المبروكة وتأكد أنها شائع؛ فأخذها للطلوقة بعد صلاة الضحى؛ بعد أن اطمأنت أمي إلى أن ستي قد نامت. نبهت عليه أن يعود قبل أن تصحو للغداء وصلاة العصر. لم تعرف ستي أن رزقًا قد ذهب وعاد قبل استيقاظها. بعد ثلاثة أيام من انقطاع الشبق جسها رزق لأول وآخر مرة. ابتسم وقال: عشار، على بركة الله. كادت سارة أن تزغرد.

مر شهران وذهبت ستي لتضع لها علفة الصباح، لمحت علامات العشار؛ ضمور فتحة الشرج، وانسحاب الفرج للداخل، وتدلي الضرع قليلًا.

دارت معركة قبل اليوم؛ فقد صممت ستي أن يأتي الطلوقة للمبروكة حتى مزودها، وفشلوا في إقناعها بأن خروج الثيران من معاقلها للإناث مستحيل. لم تعلم ستي أن سارة أمرت بأخذها إلى طلوقة فرزيان في أوسية العيساوية.

أقسمت ستي أنها عشار دون أن يمسسها بقر. عبثًا حاولوا إقناعها أن هذا مستحيل. غضبت، واستفتت الشيخ في جواز عشار المبروكة دون أن يقفز على ظهرها طلوقة. ما قولك يا حسن، يجوز إنها تعشر من غير طلوقة؟.

- لا ياحاجه، وأحب اقولك مستحيل.

لولا لحيته البيضاء، لخبطته بعكازها كما فعلت مع أمي ورزق، حين أقسما أنها عشار من طلوقة في أوسية العيساوية؛ جلده أبيض مرقط بالأسود وقرونه قصيرة، رقبته بيضاء مثل الحليب، تكلل جبينه غرة.

صدق الرفاعية رواية ستي عن المبروكة التي عشرت دون طلوقة، وامتلأ ضرعها باللبن قبل أن تلد. طلبه الرفاعية للتداوي والتبرك؛ بينما لم يقتنع أغلبية الحبش أن ثمة عشارًا دون بذرة، وأن المبروكة محض بقرة؛ صادف أن أسمتها صاحبتها على اسمها. سمع فتوح الحوار فقال رأيه.

(لا يا كبيِلة اللفاعية، مفيش حبل من غيل طلوقه، الله متحبلش الا لو اللاجل لكبها، زي العمده كدا ملكب الله ولما نزل من عليها كان لامي بذلته، اللي هو الحلامي اللي خد مني انشلاح اللي كانت هتُبقى ام عيالي، العمده هو اللي لكب ام الدسوقي وفي الاخل طلع ابن حلام).

مات فتوح عقب هذه المواجهة؛ فقد وضع شيخ الخفر قدمه على رقبته، ثم سحبه من طوق جلبابه حتى باب العمدة. ربطوه في شجرة التوت أمام الدار وضربوه. في نهاية اليوم؛ مات حسرة وذلًّا، وكانت المبروكة آخر تائه يعيده فتوح. لم تعتد ستي تركها في الزريبة البرانية؛ خاصة وهي عشار دون أن يمسسها بقر كما ألحت؛ لا يغمض لها جفن حتى تتأكد أنها في مربضها أمام مزودها وقريبة. لم يكذب الدسوقي خبرًا؛ فك قيدها في الظلام وسحبها من باب الليل. أطلق لها العنان. ظلت واقفة كطفل لم يجرب السير بعد؛ مما شجع بعض الأحباش والرفاعية على الإمساك بضرعها يعتصرونه ليخبروا ما به من حليب؛ بينما أمسك أحدهم بذيلها يشل حركتها وتشبث آخر بقرنيها. وضع أحدهم يده في شرجها يجس ما بداخلها؛ لم يمنعه من الاستمرار سوى أن روثها أغرقه، دارت دورة كاملة بمن يمسك بذيلها وقرنيها فرمتهما أرضًا، وانطلقت تطيح بمن في طريقها. أوقعت أحد الأحباش، وداست بطنه؛ فخرجت أحشاؤه. حاولوا الإمساك بها وتمزيقها؛ غير أنها شقت صفهم جميعًا. لم يطيقوا السكوت على قتيلهم؛ فامتدت يد أحدهم ببلطة؛ ففصل رأس أحد الرفاعية، واختفى وسط الجمع لا يتعرف عليه أحد. استمرت المبروكة تجري في الحقول والرفاعية خلفها يسبون أولاد السوداء لا يدرون شيئًا عن قتيلهم. طاش صوابهم؛ فاتهموا أحدهم بركوب المبروكة والزنا بها لتطرح جنينها، وينقطع نسلها وحليب يتداوى به الناس.

خافت ستي على عشارها؛ دون أن يمسسها بقر. بكت عليها كما لم تبك حفيدها الذي سقط أثناء دراس القمح، حين اهتاجت البقرتان اللتان تجران النورج؛ فطحنت أسلحته الحفيد. كانت ليلة تعيسة استقبلت فيها قريتنا الصراع بين أبناء الفرعين. انزلقت رجل المبروكة؛ فسقطت داخل الفحل المبتل؛ كلما حاولت النهوض زلقت ساقها.

حملها الرجال بخشوع كمن يشيعون ميتًا حتى دارنا. فرشت لها ستي حرامًا وأنامتها؛ عبثًا حاولت أن تطعمها أو تسقيها. مر يومان وهي فاقدة الشهية. أصابتها الحمى؛ فطرحت جنينها. غمرت ستي كفيها في دم المبروكة، وسألته وهي مغمضة العينين عن سر القتيلين. صرخت. قاتل الاثنين هم أولاد الحبشية، الدم أشار لي.

بكيت وبكت سارة. أم أبي المصلين. كان حديثه عن الصبر في الملمات، والحيوان الذي يضع الله فيه بعض صفات الإنسان؛ تكلم عن الفتنة والقتل، وأن في القصاص حياة للناس. أخبرني زاد بهمهمة المصلين حين ألمح أبي لفقد المبروكة. قال حبشي: أصبنا قبلكم فيما هو أغلى من المبروكة. كاد الأحباش أن ينزلوه عن المنبر حين تحدث عن العدل، وأنهم والرفاعية كادوا يضربون بعضهم بعضًا على حصيرة الصلاة حين ذكر القصاص.

أفتقد المبروكة. تعاملت سارة بهدوء مع موتها كيلا يعلِّم الحزن في روحي.

لجأت إلى زاد ليعيد لي سكينتي. أخذ يدي بين كفيه: بموت المبروكة لن ترتاح عزبتنا ولن يغمض لها جفن.

-٦-

علمتني قبل أن أتم عامي الحادي عشر، ولم تدعني ألوذ بالصمت وقت يجب أن أبوح، ولا أن أثرثر حين يقول جسدي ما أريد. في البدء علمتني أسماء الكائنات والأشياء، ولم تغفر لي لجوئي للتعمية ولو لمرة. أشاغبها:

- بلعب معاكي يا أمي.

تملأني حنانًا بقبلة، ثم تزجرني كنسمة، وتقول:

- هو ينفع نقول على القطة فار، أو على اليمامة صقر، ينفع نقول على العرسة كتكوت أو على التعلب إنسان؟.

كانت قد أرتني ثعلبًا محنطًا يحتفظ به جدي في حجرته. أندهش قليلًا وأتلعثم ولا أجيب. تصمت هنيهة:

- ليه احنا سمينا كل حاجه، يعني ليه الحاجات لها إسم ؟.

أتردد في الإجابة قبل أن أقول:

- عشان لما ننادي عليها تيجي.

ضحكة ندية، وهي تقبلني:

- ياسلام، هو كل الحاجات نقدر ننادي عليها لو عرفنا أساميها!

تحيرني قبل أن تستطرد:

- يعني ينفع ننادي على التعلب، والعرسة، والفار؟

أسرع بالسؤال لأفوز بقبلة:

- أمال إيه! ننادي على إيه يا سارة؟.

تمسك بأصابعي واحدًا تلو الآخر؛ تعدد لي أسماء الكائنات التي يمكننا النداء عليها والتواصل معها:

- القطه والكلب، اليمامة، الهدهد والغراب، البقره والإنسان.

تكمل وكأنها نسيت شيئًا:

- آ، لكن في حاجات ينفع نناديها بس متجيش.

تنظر في عيني وتصمت؛ تستنطقني بفرحة صغيرة تلمع في عينيها؛ فأقفز إلى صدرها أمرغ وجهي في شعرها الغزير؛ وأنا أشتم رائحته علها تدلني على تلك الأشياء التي نناديها ولا تأتي. تمر بإصبعها في مفرق شعري، وتقول بأسى صغير:

- الشمس والقمر والبحر والجبل.

صعدت معها جبلًا خلف أراضي طرح البحر؛ وهي تجمع بعض ثمار البطيخ؛ فعرفت ما الجبل. بعد صمت وشرود وتنهيدة صغيرة دفنَتها في صدرها قبل أن تنطلق:

- والحُب!

ارتعش قلبي. أعرف قليلًا عنه من حكاياتها ولهوها القليل مع أبي، ومن أقراني. سألتُ بصوت خفيض وحنان لا أدري مصدره:

- الحُب!

أبعدتني قليلًا؛ ولا أزال أنام في صدرها. قربت وجهها وتركت في عيني نظرة أرتجف كلما فاجأتني حتى هذه اللحظة:

- هو احنا ينفع ننادي ع الحب، هو احنا نعرفه؟

صمتت كثيرًا وأكملت:

- الحب ينشاف وينحس، لكن منقدرش نناديه، وكل بني آدم وشوفه، وكل قلب وشوقه، الحب ميستخباش واللي يحب لازم يقول لا يخاف ولا يستحي.

خبأت عيني في كفها وسألت:

- وازاي أعرف الحب ياسارة؟

- الحب بيبان في النني، وانت اللي لازم تكوني جوا النني، اللي يحبك لازم يقول لك في عينك وميسيبش البحر يكبر بينك وبينه، ولا يقول لك إنت الشمس وانت القمر والبحر وانت العمر اللي جي أو مجاش. اللي يحبك لازم يقول لك بنحبك يامسرة قدام اخوكي، قدام امك وابوكي وقدام كل أهله كمان.

سبت حضنها، وابتعدت قليلًا؛ فقد كان جسدي ينتفض، خفت من صوت نبضي. نظرت في عيني فرأت زادًا، احتضنتني، صمتت طويلًا، ثم قالت:

- في العتمه ميفرعش زهر حتى لو ارتوى بحليب الفجر، والعشق بالبوح في العين.. يعيش.

ظل سؤالها يراودني، كلما اشتممت رائحتها في المرآة؛ وأنا أحدث القليل من ملامحي التي شاركتها فيها:

- هو احنا ينفع ننادي ع الحب، هو احنا نعرفه؟.

في حدائق العشق مئة فرع واثنان، فأين تحط القلوب!

-٧-

للحمام شأن في قريتنا لدلاله ودلالته، اسم عام لليمام والقماري وحمام الأمصار. يسبغون عليه الأساطير. يستخدمونه في تصفيات ماكرة بعد الشجار، في طقوس المصالحة والتعمية على سلوك همجي؛ كالعراك على الماء. يتصالحون فيطيرون الحمام ويتقاتلون قبل أن يطوي جناحه.

مابين أسطورتي الحمامة والغراب وقصة الطوفان، كانت هناك حكاية. كيف يكون العشق بسيطًا!

كنت أرى الحمام البرّي مخترقًا السماء؛ كرأس سهم اتجاهه من قِبلي قريتنا إلي بحريها؛ حيث الحقول الخالية من الفلاحين أوان تشميس الأرض أو بين عملية زراعية وأخرى، وفي الأجران بعد الحصاد. يهبط بعضه قاصدًا أعالي شجر البقس والكافور، الجميز والصفصاف، أو أسطح البيوت الهادئة. أسمع رفرفته وهو ينزل ببطء متحسبًا كمن يتوجس غدرًا؛ طلقة صياد، حجرًا خائنًا لطفل. كطائرة تقصد مهبطها؛ ينزل ضامًّا جناحيه إلى جنبيه رافعًا رأسه. يحط، يمشي بطيئًا محاذرًا يدور حول نفسه حتى يطمئن؛ ومن ثم يغرد. يأكل ويشرب، يمارس العشق بحرية، ثم يغادر. يدق قلبي بعنف كلما حلق منه فرد أو زوج، وتدمع عيني كأني أودع حبيبي.

الحمام في دارنا غيَّة تفوق الهوى وترقى للغواية، يغوي الحمام الشارد ويصحبه معه إلى بيتنا. يسكن الحمام أعلى دارنا في صفة لها طابقان؛ وسلم يفضي إلى السماء والشجر والطيور. كنت وسارة ندخلها راكعتين لانخفاض سقفها؛ أتنقل كالأرنب؛ أحمل صغار الحمام الذي غادر البناني إلى الأرضية وأقبله؛ بعد أن نبت ريشه وقويت أجنحته. تنبهني قبل ذهابها: إبعدي إيدك عن البناني. أنظر بدهشة. تؤكد: لأنها محصنة.

لا أفهم الحصانة، يستهويني اللعب فلا أبالي.

أمد يدي داخل بِنيَّة مازالت تحتضن أُمًّا وصغارها بزغبها ومناقيرها الطرية. تبسط جناحها تغلق البنيَّة ثم تنقرني بحدة؛ تسيل دمي. لم أسلم مرة، وأعاود. توزع سارة الحَب والماء، يهوي أحد الأبوين يغمر منقاره حتى القرطمتين الطريتين حول أنفه؛ يشرب في سحبة واحدة مستمرة دون أن يهز منقاره أو يرفع رقبته. يا أمي الحمام مات. تضحك حتى يضيء اللؤلؤ فمها. عرفتني أن الحمام يشرب دفعة واحدة على خلاف باقي الطيور تجزئ الماء لتشربه.

أرى حمامة كبيرة تضع فمها في فم صغيرها؛ فأنظر لسارة:

- أول ما يطلع الفرخ من البيضة يلحس أبوه وامه الحيطان ويمضغوا التراب المالح ويطعموه به لاجل تسهل سِكة الأكل، وينفخوا في حلقه لاجل يوسع ممره، ويقطرو في منقاره أكل يشبه الحليب لغاية ما يشبع.

يمضغ الأبوان التراب المالح، ويطعمان صغارهما به لفتح طريق الأكل. اليوم؛ أقف طويلًا أمام ذلك المعنى: الحكاية الشعبية بجمالها وبساطتها؛ في مواجهة المقدس: "الآباءُ يأكلون الحصرم والأبناء يضرسون". العهد القديم.

تفتح أمي باب الصفَّة، وتجلس على السلم المواجه. أسمع صوت الحمام وأنبها لهدهدته. تطلب مني أن أغادر؛ فأرفض. تجذبني برفق

للخارج وتترك الباب مفتوحًا. تجلسني على ركبتيها وتهزهزني. يستمر الصوت، تختال حمامة بمشيتها؛ متباهية بريشها والتغريد كو رو- كوتو- كوو؛ كصوت البلابل والكلارينيت، تضع فمها في فم حمامة كبيرة. هتفتُ: سارة!

ضحِكَت. رأيته يتبعها أينما ذهبت، يدور حولها، ينحني أمامها ويبسط ذيله ويتمتم بأصوات رقيقة شجية كصوتها. يملأ صدره بالهواء حتى تبدو ألوان الريش في عنقه أكثر جمالًا. يظل يداعبها في وجهها ويقبلها، يأخذ منقارها في منقاره ثانية.

تميل الأنثى على الذكر، تدخل منقارها في منقاره، يحتضنها؛ يخفض كل منهما جناحيه حتى يلتصقا بالأرض. ثوان ويحلقان مصفقين بجناحيهما.

لم أفهم فيم فرحتهما، تضحك:

- ده العشق يامسرة، دي فرحتهم بعد ما البلبل دخل شق القمر.

تستحوذ علي تلك التسمية؛ البلبل وشق القمر؛ دلالات رقيقة تفتقر لها دروس النكاح في بعض كتب التراث التي قرأتها خلسة فيما بعد.

تصعد السلم داخل الصفة، وتفتح نافذة السماء، يحلق الحمام.

يحتل مخيلتي في تلك اللحظة سهم الحمام البري يحلق عاليًا، بعد أن مال بعضه إلى بعض حمام قريتنا وعاد به إلى بيوتنا.

- إزاي الحمام بيعرف بيته؟.

- طبع الحمام انه يطلب عِشُّه ولو سافر ألف فدان، يصطبر لوغاب عنه ولو عشر سنين، هادي ومتطمن لا يشتكي ولا يستعجل، في عقله يحفظ طريقه، وَفي ويحِن لصاحبه لو صَدُّه أو أساء له، ولما يلاقي منه وصال وحنيَّه يرجع عشه تاني.

أسألها عن معنى الوصال:

- لقا الأحبة، قربهم. في سفرك البعاد بينا بيكون بعدد محطات القطر، لما تيجي ينمحي البعد ويوصِل القرب المحبة ما بينا، حبك في قلبي حتى وانتِ بعيد، البُعاد من غير لقا وجع ومظنة.

اكتفيت بفهمي لكلمة وجع، وأرجأت المظنة حتى يأتي أوانها. أمد رقبتي حتى يقارب وجهي سماء الحمام. تخشى علي أن أُفتن. تنبهني:

- الحمام أوفى الطيور؛ طيَّار ولا الصقر، ضعيف وطيب؛ يخاف كما الحمار؛ يزقر لو شاف قط.

تفتح نافذة السماء على اتساعها؛ بينما العاذل والجوارح يرقبُون؛ فأرى الحمام يعود للعش؛ وهو يغرد: أوه- أو- أوور، وأسمع صوت استغاثة ونوح: أووووره أووووره فيما يشبه صوت الفلوت.

رأيت فتى يتطلع بشغف، يرفع رأسه ويخفضها كذكر الحمام؛ لم أتوهم ذلك، لم أرفع وجهي نحوها؛ جذبت ثوبها:

- دا سطح دار مين ياسارة، مين قاعد يقرا هناك؟

- أنهي دار؟

- الطالة على البحر والكباس.

- آ، زاد الزاهد.

- زاد.

استملحت الاسم فرددته. بصوت وزغرة عين لا أخطئهما:

- وطي صوتك، لو ستك أو بابا سمعوكِ مش هتطلعي برا قاعتي، ولا مخلوق يعرف بسؤالك، ولا تعيديه تاني، فاهمه؟.

- يعني إيه زاد؟

- زي زاد الطريق وزاد الخيل وزاد الخير.

لم تجب عن سؤالي، لم تشرح كعادتها. ودون مناسبة قالت:

- الحمامة رجعت لسيدنا بعد الفيضان شايله فرع زتون.

بقي نوح في اللجة أيامًا، بعث الغراب ليبحث عن الماء ومرفأ للسفينة، طار الغراب فلما وجد جيفة وقع عليها ونسي أمر نوح وصحبه. أرسل نوح الحمامة، فلما رجعت كان في رجليها طين، صار بعد ذلك خضاب رجليها الدائم، طالبت بالطوق الذي حول رقبتها، فأعطاها الله تلك الزينة بدعاء نوح.

بصوت خفيض ومسموع. الغراب من عاد لنوح. قال زاد.

لم تعلق. تمسك كل منهما بأسطورية طائره. لا أرتعب من الغراب، يكفيه أنه علمنا دفن موتانا وأوحى لنا بفكرة القبر. أحب الغراب، ولم أحب الحمام أكثر؛ على الرغم مما قالته أمي: لا تقتل يمامة حتى لا يموت أحد رجال العائلة؛ فاليمامة بعمامة. وكأن روح الرجال تسكن الطير!

نظرت لأعلى؛ فرأيت زوجًا من الحمام يقترب من شجرة التوت وفي منقاريه عشب؛ وكأن زادًا رأى ما رأيت في ذات الوقت، قال كالمُلْهَم: أبوان يُطيبانِ عشًّا، يمحوان طباعه الأولى؛ ينثران بين أعواد السدا واللحمة التي يصنعانه منها؛ طباعهما ورائحة أبدانهما؛ حتى إن سمعا صوت رعد أو لمحا برقًا أو همَّ عاذل باقتحام العش ارتجفا؛ فتقع البيضة لتستقر في مكان هو كالرحم؛ فيه من أنفاسهما لينهما وقوتهما.

تردد السؤال بصداه داخلي: لماذا لا يسلك الإنسان كالطير؟

كان لقائي بزاد صدفة؛ كتآزر اليمام في يوم عاصف مطير، وكأنه كان فردًا في سهم الحمام الأزرق فوق الجرن.

-٨-

المحبة مشيئة الخير وحسبانه وليس ثمة ما هو أصفى منها. تمتلئ الحقول ببشائر القمح؛ سنابل خضراء غضة تقرط منها أمي غمرًا عصر الثلاثاء الذي يسبق أربعاء أيوب، تضحي بالبكور قربى إلى الله وحمدًا له على عطاياه. ونحن نرتدي ثيابًا لا نخشى تبقعها، نجلس في ظلال شجرة التوت فوق حصيرة جديدة من السمار نتلقى أولى بشائره، ونملأ صحنًا كبيرًا من ثماره الوردية والبيضاء؛ ثم نجدل عرائس القمح. تختص سارة بأكبر اثنتين؛ نصف السنابل متجاورة؛ فنجدل السيقان بالعرض لنصنع اليدين، ونثني نهايات السيقان نجدلها معًا بالطول؛ فتبدو كما المشط يتدلى منه السبل مشكلًا جسد العروسة، وفي القمة نصنع الرأس كالعروة. تعلق أمي عروستيها أعلى بابي الليل والنهار شكرًا وامتنانًا لروح الخصب، وأعلق أنا عروستي بجوار المسرجة. هذا اليوم هو لزاد ورواد مجلسه من الصبية، يملأون الطرقات بالسعف احتفاء بعيد النخلة بكل حمولتها المصرية من دلالات، يصنعون نماذج مصغرة من أدوات الري والزراعة دوابها وطيورها، ومما يساعد الأمهات في أشغالهن. نعود لدارنا بصحن توت، وعرائس القمح في سبت من الجريد، بيدي سعفتان من زويدة النخلة، فوقهما مهفة وحصالة وقبعات صغيرة لعرائسي، أخفي خبيئتي عنهم لتكون سمير غرفتي.

في باحة الدار نجلس أمام المنقد نشوي القمح الأخضر، وأول الفريك المشوي يكون من نصيب ستي والتالي للجيران.

صباح أربعاء أيوب؛ ملأت قلتين من الزجاج بالماء. بجوار سور المنزل الذي يحتضن باب النهار من الداخل؛ قطعت جزءًا من نبات خشن له رائحة عطرية من نصف زلعة ضخمة، وقطعت عشبة أخرى أعرفها. وقبل أن أرفع عيني؛ أومأت للعشبة بعرعار أيوب. قلت، رع رع [٤] أيوب ياسارة. كنت أعرف الرب (رع) من حصة التاريخ. ضحكنا وألقمتني إجابة سؤال تعلق بلساني، سنكمل حكاية أيوب.

سألت زادًا. أيوب المصري هو الفلاح (خونانوب) الذي عانى من الاستبداد. يتأمل الموت بقلب عامر. يراه خلاص نفس تتعذب بما حاق بها من ظلم. كرائحة بخور المُرّ وزهرة السوسن، كالجلوس تحت شراع في يوم عاصف على شاطئ النشوة؛ الموت مجرى للماء العذب. هذا الفلاح دبرت له مكيدة من قبل موظف فاسد للملك أنوبيس قبل أربعة آلاف سنة، دفعت حماره لقضم بعض القمح من أرض الموظف، فاستولى الأخير على حماره بما يحمل. كتب تسع شكاوى للموظف الفاسد: أقم العدل. من يكبح الباطل؟ يا خيط الميزان الذي حمل الثقل، يا مثقال الميزان؛ لا تمِل إن العدل يفلت من تحتك. لا تكونن ضد الشاكي، اكبح جماح السارق، ودافع عن الفقير. كن صبورًا، اكبح جماح اختيارك ولا تجعلن قاربك يرتطم. إنك تعاضد اللصوص. إن المحكم متلاف، وإن حزني يفضي إلى النزاع، واتهامي يؤدي إلى تحول. إن جوفي لملآن؛ وقد انفتح فمي للكلام. اكتب يا قلم، أقم العدل لرب العدل. سأشكوك إلى أنوبيس الملك. وينهي شكواه بتحذير؛ لا تتوانين يا من لا تسرع، ولا تكونن متحزبًا، ولا تصغين لقلبك، ولا تسترن وجهك من إنسان تعرفه، ولا تتعامين عن إنسان قد رأيته، ولا تردن إنسانًا يشكو إليك.

أما أيوب المصريّ في وجدان سارة؛ فهو نبي مُرسل جاء من الشام، نزل إلى بحر العريش؛ قريبًا من هضبة التيه في سيناء. معجزته الصبر، حين عُدَّ الصبر نصف الإيمان. تحتفل بخلاصه من المرض والعجز، الفقر والفقد. تعشق أمي «رحمة» زوجة أيوب وحفيدة يوسف؛ لها إخلاص ايزيس؛ وهمة هاجر؛ فتفارق صورتها ماورد في العهد القديم؛ والتي أظهرت زوجة أيوب متذمّرةً مما لحق به من بلاء سلب النعم؛ كما سمعت من الحاج حسن.

غمرت سارة الرعرع في الماء، كما غمرت بعضًا من نبات العِتر. في موعد لم تخلفه معي عامًا؛ كفجر عيدي الفطر والأضحى؛ في صباح أربعاء أيوب؛ أخذتني إلى المرحاض وبيدها إناء تسبح في مياهه بعض عيدان الريحان والنعناع؛ سكبت فيه بعضًا من ماء الآنيتين الزجاجيتين وعوَّمت عودًا من الرعرع:

- دي ليلة الرؤية.

ارتبكت في يدها وصرخت:

- الرؤية ياسارة!

ضغطت يدي:

- هتفضحينا ستك عينها وودنها مننا.

صحت كالعيال:

- ليلة الرؤية، هو احنا في رمضان؟.

صرخت ستي من حجرتها في باب المرحاض الموارب:

- والله مهيخيب البت دي غيرك؛ رؤية إيه ياختي يشفيكي ربنا.

تشير بإصبعها أمام عينها ناظرة في عيني: هس.

ترد على ستي تكيد لها؛ وأنا أقفز في الطست مبتهجة:

- سمعت ابنك بيقول الرؤية دي قديمه من قبل رمضان. وشوشت سارة: مش بابا، دا زاد؟. رفعت سبابتها: هس.

ارتعشت، ولا أدري إن كان من الهواء البارد يمر على جسدي الدافئ بطقوس الاستحمام، أم لأنني أعلم أن سيرة أبي في خلاف بين أمي وستي يستدعي غضبه؛ وربما يتطور الأمر إلى شجار تحمل بعده ملابسها وتذهب إلى دار أبيها. راحت ترش جسدي بماء شكلت رائحته خريطة روحي. دلكتني بالرعرع وربتت به على ظهري؛ وهي تتمتم في الماء بأدعية كثيرة؛ حفظتها عن أمها، وستنا، وأم عبد الله شحاتة.

تغمس الرعرع في ماء تحمُّمي، تنثره كتعاويذ مائية أمام بابي الليل والنهار وقاية من الأمراض وجلبًا للشفاء والبركة.

عصر الجمعة التي تلت أربعاء أيوب؛ غمرتني في العناق:

- بكره سبت النور. لمحت ستي الطقوس من طرف، حوقلت وبسملت بعين، ونهرت أمي بالعين الثانية:

- دا اللي بتعلميه للبت!

كان لستي ابن يعمل بالحجاز؛ لذا كانت تعرف من الأصول ما تحرص أمي على الخروج على أكثرها. في حضنها سردت لي الحكاية كما سمعتها من السيرة الشعبية لأيوب وزوجته ناعسة، وكنت كلما سمعتها من شاعر الربابة، أبكي. كانت أذن ستي معنا، فتأتي منها مداخلات أغاظتني. جملتان أثارتا ستي: العرعر شفى أيوب، وناعسة باعت ضفايرها؛ قالتهما سارة.

زغرت ستي في وجه أمي، وبصوت حاد يشبه الصراخ:

- ناعسة إيه، دي هلاوس سمعتيها من شاعر الربابة ياهبله!

تحول ناظريها نحوي:

- مفيش في الخونازية ناعسة يابت، عمك قال كدا.

بعد صلاة الجمعة يأتون بكتاب كبير من دار العمدة. ينطقون اسمه بهيبة: الخونازية. تسللت وقرأت غلافه؛ تفسير البخاري؛ يعرف العامة

أنه القرآن الكريم. يضعون يد السارق أو المخطئ عليه يستحلفونه أنه لم يفعل.

قبل الفجر - في موعد تحري الرزق والحليب- تزقق الطير وتصنع خبز الصباح. بعد الفطور أخذتني إلى حجرتها، أتت بوعاء زجاجي داكن اللون من سحارة ملابسها، أخرجت منه حجرًا داكنًا مبللًا؛ حجر كُحل نقعته ثلاثة أشهر فى الزعفران وماء الورد وورق الحنَّة. تركته يجف، سحقته في الهون، مررته خمس مرات من قطعة شاش وعبأته في مكحلة بمِرْوَد.

تهيئني للفرح. مسدت جفني بمِرْوَدِ الكحل الأزرق؛ فغسلت الدموع وجهي:

- الكحل الحلو لابد يكون حامي..

ابتسمت مقدمًا، أعلم أنها ستمزح:

- إزاي الحلو يكون حامي يا سارة؟

مررت المِرْوَد على جفنها بعد جفني، وأغلقت عينيها عليه. وأنا أفتح عيني بصعوبة والدمع ينهمر منهما:

- ليه غمضتي عينك على المرود بعدما كحلتيني بيه؟.

تضحك بصخب، لا تخبرني أنها لا تستطيع فتح عينيها وهي تكتحل، تعبث بعينيها الدامعتين، تغمضهما وتفتحهما على اتساعهما؛ فأرى حدقتيها السوداوين؛ بياض عينيها الواسع كحوراء؛ معرقًا بالوردي بلون بشرتها:

- عشان ينمد خيط النور من عينك لعيني، نشوفك حتى وانت غايبه ولو في آخر الدنيا نشوفك حتى لو استخبيتي فى العتمة، وهي دي حلاوة الحامي!

نضحك بجلبة وفرح يثيران كراهية ستي وحنقها. ونغني:

سبت النور عيدنا

واحنا فراحه بسيدنا
سيدنا فدانا
وبنوره رعانا
والشجرة الشجرة الهزازة.

تصرخ ستي مجددًا:

- ربنا يخيبكم، إيه اللي بتعلميه للبت؟. تواصل سارة الضحك:

- أُم عبد الله شحاته بتقولها لما تكحل ولادها، تقول لنا: (لما تكحلو عيالكم غنوها توسع عينيهم وربنا يحفظ نورها طول السنة). قبل أن أسألها عن الكحل وسبت النور وأم عبد الله:

- أم عبد الله قالت: (زي كل اللي كانو عايزين الدنيا يكون فيها إنصاف، فيه خلق كرهوا اللي عايزين العدل يصير. خطفوا سيدنا يوم الخميس من وسط ولاده وهو بيعلمهم المحبة، شبحوه على صليب في الجبل يوم الجمعه، مات، دفنوه وعينو عليه حراس لاجل ولاده ميسرقوش جسمه وتبان له كرامه، يوم السبت قام من قبره وفي قومته فج النور).

لا تتركنا ستي في حالنا: قامت قيامتك أنت وهي يارب.

تشير لي أمي بالصمت.

لا تستاء ستي من الكحل- فهي دومًا مكتحلة- ولا من السعف لأنه طقس من طقوس الموت في قريتنا، يعود الحزناء من الجبانة بعد دفن الميت حاملين السعف الأخضر، يمرون به على الحقول أولًا، يتركون فيها رائحة الموت، يعطفون على دورهم بالحياة. تقهرها الإشارة إلى أم عبد الله. نتجاهل ستي.

نغسل وجهينا لتصير أمي كزنبقة بيضاء بعينين نجلاوين يحدهما الأزرق. أنظر في المرآة فأجدني لا نجلاء ولا بيضاء.

كأمي؛ ألمس زجاجة روح الورد بلساني ليبقى العطر فيه. تأتي بمجمرة تحرق بها بعضًا من خشب الطلح، الورد والصندل، تقف فوقها

وتدخلني معها أسفل ثوبها لدقائق؛ فيتشرب جسدانا روح العطر.

تتحرى قرص الشمس الأرجواني في غروب شمس الأحد وقبل صلاة المغرب؛ يظهر القمر بدرًا بعد الغروب مباشرة؛ في ليلة لا ينقطع سناها، يبقى حتى غروب الشمس فى اليوم التالي. في هذا الضياء نتبع طقوس العيد، نستقبل شم النسيم أو «شمو ال سم»؛ «شمو» تعني حصاد، «سم» اسم نبات، قبل إدخال كلمة «نسيم» العربية على الاسم، والتي يعرفها المعجم بأنها «ريح لينة لا تحرك شجرًا»؛ إشارة لاعتدال الجو وقدوم الربيع.

كان الماء حاضرًا في عروق أرضنا وفي متناول الروح. في هذا الوقت من السنة؛ عرفت أن المحبة حياة وبرء من مرض، لكن قريتنا لا تبرأ.

-٩-

في دار الحاج حسن حوش به نخلتان، أتون عملاق، كانون، زير، دست نحاسي، ووعاء فخاري عظيم به ثقبان كالمصفاة. لحسن اثنا عشر أخًا وأختًا. قسموا الميراث؛ فاختاروا الأرض ووزعوها فيما بينهم، وتركوا له النخيل؛ فهو لا ولد له ولا وريث سوى إخوته. كان نصيبه مئة نخلة؛ جعل ذكورها بين إناثها، يستأنسون بالجوار، تلقحها الريح فتينع. لم يذبح نخلة لحصاد جمارها، لم يقطع إلفًا عن خليله يومًا، يرعى الهوى دومًا. إن مالت نخلة إلى بعل، مد بينها وبين معشوقها الذي إليه قد مالت رباطًا معقودًا، أو يعلق عليها سعفة منه، أو ينفض في متاعها من غبار طلعه فلا تهزل، تمد جذورها بحثًا عن العيش، تنجب وتزدهر. كالأم يحفظ مواعيد أمواهها، يعطيها في طوبة ماء واحدًا للمحاياة، ثم يلتقف زهرها ماء أمشير، فى برمهات لها ماءان لينعقد ثمرها، في بشنس ثلاثة أمواه، في كل من بؤونة وأبيب ومسرى لها ماء واحد كل سبعة أيام، في توت وبابة لها من ماء النهر تغريقًة واحدة. يشبع مصاطبها ريًّا في هاتور، والبعل يغرقه هاتور في ماء النهر مرّة؛ وكأنه يستعيض بالكرمة عن الأبناء. عاشق للنخل يردد دومًا: "في البدء كان النخيل؛ آدم والأرض"[٥]. بنى بالقرب من الكرمة دارًا واسعة؛ بابها بعيد عن الماء يفتح عليه، يسير المرتاد مسافة ما في طريق كالفسيفساء؛ يحفه الشجر دائم الخضرة ممهد بسن الزلط؛ تسير

وكأنك مقبل على ظلال السكينة. الشجر كثيف ومنخفض نسبيًّا؛ فيدخل نور الشمس وضوء القمر من بين الفروع والأوراق. المكان دومًا دافئ بأنفاس النباتات شتاء؛ يشع بنسمة طرية أيام القيظ. ألحق بداره محلًّا أسماه خمارة الحاج حسن لإحياء الإنسان، يعلق في صدره آية، ومزمورًا، وسفرًا. يفرض على الداخل إليها قراءتها أو تسميعها قبل أن يجلس. حفظتها عن زاد دون فهم:

﴿**وَهُزِّي إِلَيكِ بِجِذْعِ النَّخلةِ تَسَّاقَطُ عليكِ رُطَبًا جَنِيًّا**﴾[٦] و✠الصدّيق كالنخلة يزهو✠[٧] و✠ إِنِّي أَصْعَدُ إِلى النَّخْلَةِ وَأَمْسِكُ بِعُذُوقِهَا✠[٨]

لم يتزوج حسن؛ وقد توفيت أمه هاجر ابنة عم حليمة؛ فرباه إخوته البنون؛ بعد زواج أخواته. تزوجن وهو بعد صغير؛ فلم يعرف بوصلة المرأة، البيت والسكينة، ثم تبدد حلمه في نادية ابنة عبد الله شحاتة على إثر محاولة الدسوقي اغتصابها وموت شقيقها فوقها مدافعًا. يؤم الناس في الصلاة على غير رضا بعضهم؛ فالمتزوجون أولى بالإمامة، ثم الأكبر سنًّا. الإمامة له لأنه فقيه النخل، لا يجاريه أحد في تأويل تصاريف الشمس، الماء والرياح، الجمار، والتأبير: نثر حبوب اللقاح من الشماريخ (الجمار) التي تحمل أزهارًا مذكرة (الطلع) على الشماريخ التي تحمل أزهارًا مؤنثة (المتاع).

أسلمه جدي محمد قبل أن يموت لشيخ في مرقد سيدي شبل يهب العلم؛ الطريق إليه صعب؛ يمشيه على قدميه في القيظ والقر، يصل بعد ساعة، وقبل صلاة الظهر يمكث حتى الأذان صامتًا، يصليان الظهر مع عابري السبيل والمنتظمين في العبادة، ثم يبدآن الدرس من بعد الصلاة حتى قبل أذان المغرب بساعة؛ فيعود كيفما ذهب؛ ما أن تلمس قدمه جسر القرية، ينطلق صوت المؤذن، يضع دفتره وقلمه أمام المنبر، يتوضأ ويصلي إمامًا.

شريكه في الخمارة بالعرق وقليل من المال أسرة عبد الله شحاتة. كان عليهم العمل بدوام كامل هو وزوجته وأولاده في موسم حصاد النخل. لا أحد يعرف سر ما بينهما؛ هل شاركهم لأنهم عائلة مثابرة مسالمة تريد ضمان العيش وتخشى عليه، وتحتمل في سبيله المشقة، أم رغبة منهم في الانتماء لعائلة لها جذور تسند ظهرهم، أم لأن الحاج يضمن ولاءهم لأنه يعرف سرهم ويصونه، أو يهددهم به، أم لأنه لن يجد عمالًا مخلصين من أهله أو أقربائه دون معارضة أو رفض للعمل في الخمارة.

ينتظرون اكتمال القمر في شهر بابه من كل عام؛ للاحتفال بحصاد البلح. تعقد المصالحات؛ عقب مشاحنات بين الرفاعية والحبش تبعث على الفرقة.

نقلت سارة عن ستنا: (كان جدي محمد يجوب الأرض خلف تجارته، في إحدي سفراته تعلق به حسن فصحبه معه غربًا). عشق حسن أغاني البرانس والأمازيغ؛ وهي مزية لا يتمتع بها سواه في قريتنا. يردد في أوقات صفائه غناء لا نفهم معظمه، لكننا نشجى وقد نبكي لسماعه. حفظت سارة بعضًا منه تهمس به في خلوتها في مقعد يطل على الليل ورائحتي اللبخ والكافور، تفتح نافذة القلب مختلسة سويعات من السكينة، تغني لي كلما بكيت، فعرفت أن الغناء شقيق البكاء، تهدهد دمعي. أنام وفي حضني أغنية.

اتسعت الخلافات فيما بين الفرعين؛ مما دفعهما للدخول في تحالفات ضد بعضهما البعض؛ فأرسل حاكم الشهداء حملة إلى قريتنا؛ متخطيًا جدي؛ يعين وصيًّا على قريتنا من كل عائلة لمدة لا تزيد على عامين؛ إلا أن النزاع يظل قائمًا لأن العائلة التي لم يأت منها الوصي ترى في هذا ظلمًا؛ فينشب بينهما الشجار. تجرأ جدي ذات عام ونقل تقليدًا أمازيغيًّا؛ أمر بخروج كل الأسر من الفرعين المتناحرين

بالقرب من أراضي طرح البحر وفي حماية الجبل؛ للإقامة معًا مدة ثلاثة أيام؛ يطبخون، يأكلون ويشربون. يقوم أحد أفراد عائلة الزاهد القدامي بتزويج الفتيات والفتية ممن هم في سن الزواج أو أوشكوا؛ من كل عائلة لمن يصلح لهم زوجًا من أبناء العائلة الأخرى. تبع الحاج حسن هذا التقليد وجعله عيدًا ومناسبة.

تركتني سارة أشارك مرة. تأتلف الأسر على مائدة واحدة حول الطعام الذي يبدأ بإشارة من حسن. بعد أن يصعد أعلى الجبل ليراه الجميع؛ يبدأون الغناء خلف حادٍ حتى المساء. في اليوم الثاني يتصالحون وينهون خلافات العام الفائت، يعترف المخطئ أمام الجميع وبصوت مسموع بإثم ما ارتكب من جور وظلم، ويدفع الفدية المتفق عليها بموافقة صاحب الدم أو الغُرم، يطلقون الحمام، ويتناول الجميع الغداء معًا فاتحين صفحة جديدة للتسامح. في اليوم الثالث يطوف الحاج حسن على المنازل يأخذ من كل بيت نفحة تؤكل؛ لتقام وليمة كبيرة يتجمع حولها أسر الفرعين مرة أخرى. وبعد انقضاء ثلاثة أيام الغفران؛ تبدأ طقوس الحصاد. ثمة رجال من العائلتين يعشقون طلوع النخل، يمدون أياديهم في الفضاء يلتقطون أنفاس الحقول يعبئونها في أعماقهم؛ ثم يزفرونها تباعًا خلال طوافهم في رحاب قريتنا والنخيل الشاخص إلى السماء. يقذف كل منهم بسَلبة على خصر نخلته مهيئًا نفسه للصعود، يحبو على جسدها ليبلغ القمة. بالمنجل يقطف سباطات البلح؛ فتسَّاقط ويهوي الثمر للجالسين؛ يستقبلونه في الطسوت، يهادي بأول عرجون (حامل البلح) من كل نخلة؛ وهي زكاة سخية.

يفصل المتصالحون العراجين عن البلح وينشرونه على مد الشوف ليستقبل الشمس. بعد جفافه ينزعون نوى نصف المحصول ويتركون

الباقي. هنا تنتهي طقوس المصالحة وعيد النخيل. يعود الجميع إلى بيوتهم يستأنفون حياتهم وشئونها.

وصفت سارة طريقة الحصول على حلوى البلح والعرقي نقلًا عن أم عبد الله؛ وهي تبكي ظلم الرفاعية لها ولأسرتها؛ واصفة عملهم في الخمارة بالشقاء الصافي؛ متسائلة: لماذا يتلهفون على العرقي الذي نصنعه بأيدينا! يتم تحضير محصول البلح؛ نصفه رُبًا أو دبس كما نسميه؛ فتقوم أسرة عبد الله شحاتة بغمر التمر منزوع النوى في الماء داخل الدست النحاسي؛ يترك ليغلي بضع ساعات حتى يذوب تمامًا؛ وفي الأثناء تحافظ على مستوى الماء لا يقصر حتى لا يحترق المحصول. كثيرًا ما نامت أم عبد الله أمام النار؛ فتمسك بثوبها ولا ينقذها غير رائحة شياط النسيج؛ فتنقذ لحمها قبل أن يأكله الحريق. تصفي المغلي لفصل السائل عن اللحم المطبوخ. يقوم الحاج بتوزيع حلوى البلح بالتساوي بين إخوته وعائلة عبد الله، ثم تقوم أم عبد الله بإعادة غلي السائل حتى يتبخر ماؤه تمامًا ويصبح غليظًا كثيفًا؛ فيحصلون على طعام طيب يشتري منه القليل للتداوي وجلبًا للفحولة، والقادرون يشترونه ليأكلوه مع الخبز. أما النصف الآخر من البلح؛ فقد خصص للشراب الذي كان مجلبة للعراك والتأويل؛ وهو عَرق البلح. يخلط بالماء في زير ضخم مخصص له؛ يترك حتى يلين، ثم يهرسونه بأيديهم لينعموه، ويتركونه في الزير من سبعة إلى عشرة أيام؛ تواليه أم عبد الله بالتقليب يوميًّا وتعيد إحكام غلق الزير. وفي نهاية مدة التخزين تضع المهروس في قدر من النحاس وتضيف إليه الماء ويترك مكشوفًا حتى تمام التبخر. تضع القدر على النار وتغطيها بقِدْر مماثلة من الفخار بها ثقبان من أعلى، ثم تلئم القدرين إلى بعضهما بحزام من العجين والقماش السميك لمنع تسرب البخار المتصاعد.

يضع الحاج حسن في الثقب الأول غابة من البوص طولها أقل من ذراع، وفي الثقب الثاني غابة أقصر يصلها بالأولى ليمر البخار الساخن منها إلى قدر أخرى من النحاس يوضع أسفلها إناء كبير مملوء بالماء لجذب الحرارة كحمام البخار؛ تشعل تحته نار خفيفة جدًّا وقودها من جلة الأبقار. باقتراب النضج يسحب حسن غابة البوص من ثقب القدر ويضع مكانها سعفة نخيل مشتعلة، يبتهج حين يستمر اشتعال السعفة في إشارة إلى الحصول على عرقي ناضج لم يعد به ماء. يغيم وجهه لو انطفأت السعفة؛ فيعيد تغطية الثقب بالغابة. يأمر أم عبد الله بإضافة كميات أخرى من البلح المهروس. يوالي تكرار العملية حتى انتهاء كمية البلح. يقوم بترشيحه وتصفيته للحصول على مشروب صافٍ. يخزن في براني من الفخار تتفاوت أقطارها؛ فهناك مواسم يزيد فيها الطلب؛ فينتقي من البراني ما يناسبه. في ليلة سيدي شبل؛ يقبل الكثيرون على المتعة ويتحللون من القيود، يغترف الرجال كثيرًا منه. بعض ليالي الشتاء الخالية من المحبة؛ أيام انحسار الماء وعموم الجفاف؛ التحاريق عند أَدنى مستوى لماء النيل؛ فترة حزينة تمتد من بعد الفيضان إلى بداية الفيضان التالي قبل حصاره في بحيرة السد. أيام السدة الشتوية؛ حيث يقومون بتطهير الترع والمساقي والقنوات؛ فتُمنع مياه الري وتُضخ مياه الشرب فقط. تلك الأيام تلقي بظل كئيب على الرجال. يضيق بهم الحال؛ فيتكاثر العراك على أولوية الري. ينمو الشجار في البيوت متسلقًا فراش ليلة الجمعة. تلك الليالي تحتاج العرقي زهيد الكمية وفير الأثر؛ يحفظ في قناني صغيرة من الزجاج المعتم في مكان بارد مظلم وظليل؛ لا يعرفه سوى زاد والحاج.

مازحت زادًا:

- أنت دائمًا تروح الخمارة.

خمارة! الحاج حسن يعظم من شأنه، يوحي للناس بأنه رجل عربيد وخبير، لا يحرم روحه من متع الدنيا، العرقي ليس خمرة يازويدة، العرقي عسل البلح كعسل القصب.

وكان عبد الله شحاتة المؤتمن على الخمارة. زاد أمين البهجة؛ يعلم روادها أن يرتووا بقليل لا يحيل رقتهم غلظة، وأدبهم وقاحة، وسمو أرواحهم انحطاطًا.

-١٠-

في ماعون الحضرة تنداح الروح بقداسة من وعائها الحجري؛ بعيدًا عن جذر العشيرة، ومن على ظهر القبيلة تنجذب وتتنوع. ننتظر ليلة قطب الرجال بروح الطير؛ تنفتح روحانا لها كما تُفتح نافذة على السماء. قال زاد: في الحضرة؛ العشق لا اسم له ولا وصف، فقط ارفعي يديك ودوري، اسمعي قلبك. رجوته: أتمنى أن أكون معك.

- وأنا أتمنى، لكنهم سيقتلوننا قبل العشاء.

لم تفارق سورة الماعون لسان أمي؛ خاصة آية: ﴿**الذين هم يراؤون ويمنعون الماعون**﴾[٩]؛ ترددها في وجه ستي. ورغم ذلك؛ تقول: (اللي يحتاجه البيت يحرم على الجامع). لم أكن أعي في طفولتي سوى كلمتي اليتيم والماعون؛ فهما من الكلمات الشائعة في قريتنا.

ترد ستي السائل فقيرًا كان أو مضطرًا؛ خاصة عما هو ليس مالًا أو طعامًا؛ كالإبرة والفأس، المذراة والقدر، وشاح وثوب للعزاء، وما شابه وكان يقضي حاجة.

تناول سارة السائلين ليلًا؛ حتى لا يراها المتطفلون، حين تكون في الغيط لم تبخل يومًا بكلأ، ولا رفعت مسمار الطلمبة ويدها عن محتاج. تفتح باب الدار لمن أراد الماء، تتشاجر مع أمي لأنها تقرض الناس ما يحتاجون. تفرك يدها: بنت أمينة فاكرة نفسها صاحبة دار. يتحصن المحتاجون بحسن الظن، ولم تخذلهم سارة. سلوك أمي

ليس ملائكيًّا، لكنه نكاية في ستي ومكايدة، ونصرة المحتاجين، وكسبًا لمحبتهم.

تعد دارنا بناسها مجمعًا للشيء ونقيضه؛ التتيم والبغض، التالد والجديد، الإمساك والسخاء، انفتاح الروح وانطباقها، روح القيظ والشَّفِيف (لذع البرد). وكنا في حل جديد نجهز الدار لاستقبال ليلة أفهم معناها بروحي.

صادفت ليلة قطب الرجال ليلة عيد الفطر؛ اعتاد أحد الرفاعية -كان الدور على أبي- أن يحيي تلك الليلة في حب الله. يستدعي الشيخ حامد النوبي الذي يحملني صوته لقمم النخيل؛ أتأمل، وأشتم رائحة الجنة التي أسمع عنها. يفتح لي زاد عقله؛ بينما تبسط سارة صحاف المحبة. وليمة الحضرة صنيعة أمي؛ لحوم الضأن؛ التفتيل(الكسكسي)، المخروطة وتشبه شرائح المكرونة، صحون التسقية باللحم؛ الحساء للشيخ وبطانته، وللمتحلقين حول محبة الحضرة وماعونها، صحون الأرز باللبن وأنجر من العصيدة يتوسطه صحن من العسل الأسود، ومثله من السمن السائح للأطفال والوحيدين من الرجال والنساء. كان الاحتفال مهيبًا؛ الكعك والبسكويت، وأكواب التمر والترمس وأقماع السكر والحُلبة تتبادلها النساء؛ استعدادًا لزيارة الأهل والجيران بعد الصلاة للتهنئة بالعيد؛ يزرن المقابر قبل انتهاء الصلاة؛ يوزعن الخبز والتمور رحمة ونورًا على أرواح الموتى. تستعد بعض النساء بأواني شراب الليمون والفول النابت لتوزيعها في مولد سيدي شبل. تجهز الحضرة أمام مندرة العيلة، توضع كنبتان فوق بعضهما؛ يسبقهما سلم من الأسمنت يصب خصيصًا لهذه الليلة.

نادت ستي للعشاء. مُدَّ الطعام، دخل رفاعية المدينة العائدون توًّا. اصطفوا حول الطبلية. تعمدت ستي نسياننا؛ أنا وأمي. ناداني أبي، تشبثت بسارة؛ فغمرتني في صدرها. أبت ستي أن تنادينا ولم يشأ أبي؛

فأزهرت كبرياء أمي. عن إذنكم أقفل الباب عليكم حتى لا تضايقكم القطط.

في انتظار بدء أحداث الليلة؛ لعبت وسارة حج حجيج لبيت الله، وكنت قد كبرت عليها، لعبنا عسكر فوق وعسكر تحت، تعِبنا. لعبنا كوريك مين[١٠].

تعانقنا، اكتفينا بهذا العشاء. التمع الدمع في عينيها ففركتهما:

- ستي؟

- الظالم ميتعاتبش، دا نطرده أو نفارقه، واحنا منقدرش.

- بابا؟

امتلأت عيناها بالدمع مجددًا؛ فلم تستطع مغالبته:

- عيبه إنه مبيعرفش عدلة الميزان.

كانت أمي تقوم بوزن لحوم الأضحية؛ تزن أول نصيب ثم تستعمله كمعيار. وكانت عدلة الميزان هي تعلق الكفتين في مستوى واحد. ذهبت مع أخي الأصغر لرؤية الحضرة؛ بموافقة سارة. رأيت الرجال والفتية وقد تحلقوا حول الشيخ؛ استعدادًا للذكر؛ على رأسهم وقف الحاج حسن. افتتح المنادي:

- آلو..واحد..اتنين..تلاته. الليلة معانا شيخ المنشدين؛ العارف العترة سيد أهل الله؛ الشيخ حامد المأصل أبًّا عن جد في حب رسول الله وذكر المولى جل في علاه.

تتحلق النساء فوق أسطح البيوت المحيطة بالحضرة، تقيم جارتنا يمَن حضرتها من النساء؛ فتتوسط باحة دارها واقفة استعدادًا للذكر. تبدأ أصوات المحلقين منخفضة: الله.. حي..الله،

ثم تتعالى بالتدريج؛ يبدأ الشيخ حامد:

- صلي. يردون بصوت جلي:

- عليه أفضل الصلاة والسلام.

يدق الكنبة بحذائه الذي تزينه حديدتان من أمام ومن خلف كحدوتي حصان، ينقر بمسبحته الكهرمان عامود الميكروفون، يبدعُ إيقاعًا لم أشج لمثله حتى اليوم، ينشد:

- أَحنُّ لِذكراهُ إِذا ما ذَكَرتُهُ   وَتَنهل عَبراتٌ تَفيض غُروبها

حَنينُ أَسيرٍ نازحٍ شدَّ قَيدهُ   وَأَعوال نَفسٍ غابَ عَنها حَبيبها(*).

يبدأ الرجال في إيقاع واحد:

- الله..الله..الله..ينطلق صوت مفرد؛ (حي)؛ مادًّا الياء بضع ثوان. تعلو أصواتهم في لحن يشقشق في الروح:

- الله..حي...الله..حي، حي يا حي..حي يا حي.

ينوع الشيخ حامد بين الإنشاد والغناء، الرجاء واليأس، الهجر والوصال؛ فتختلط الأنفاس وتتوه. في غمرة اندماجهم تذهب أجسادهم لأبعد ما يستطيعون. ينادون.الله.الله. يطيرون، ينزلون إلى السماء يستريحون بالوصال ثم يأوون إلى ذواتهم.

لم يغب الأطفال عن الحضرة، استنكروا تطوح الأجساد. رأيتهم؛ بخيط السنارة ربطوا أطراف أثواب الرجال في بعضها البعض؛ فأفسدوا سلطانهم وراح كل منهم يكيل لأخيه. فكوا الاشتباك، طاروا. دفعني شقيقي:

- إمشي من هنا.

بحثت عن زاد أستنجد به، لمحته تائهًا؛ غارقًا في نبعه.

رجعت إلى الدار غاضبة مغتاظة من زاد وأخي.

- ياسارة إبنك قال لي إمشي من هنا!

جذبتني إلى حضنها في صمت. في قاعتها ينسال دمعها على وجهي، أذهب إلى قاعة ستي، ألمح دمع أبي وإخوته.

(*) أبو الفتوح يحيي بن حبش بن الحكم السهروردي، فيلسوف إشراقي، شافعي المذهب، قتل بأمر الناصر صلاح الدين بعد أن نسب البعض إليه فساد المعتقد.

ألح في الذهاب إلى حضرة الشيخة يمن. تتمسك بي سارة تضع سبابتها برفق على شفتي. انصعت تمامًا، وأيقنت ألا فكاك من دفء حضنها ومشاركتها القرب وحضور القلب. تتعالى الصيحات:

- الله.. الله.. تتسارع، تضيع اللام ولا يبقى سوى آه ..آه..آه.

تختلط أصوات حضرة الشيخة بأصوات حضرة الشيخ:

- يا حبيبي.. يارسول الله.. يا طبيبي.. يا حبيبي..حي.. الله..

يتوه الذاكرون فينخفض صوتهم. ويبدو أن الشيخ حامد قد انتبه إلى أن جمهوره قد غاب ولم يعد منصتًا؛ فعلا صوته:

- إصحا. ينتزعهم من حالهم بغناء:

- يا قلب لكويك بالنار

وان قلت عاشق لازيدك

يا قلب حملتني العار

وتريد من لا يريدك(١١)

تزغرد أسطح البيوت فيهف النسيم من الحقول. يواصل:

- طبيب الجرايح قول الحق

وهات لي الدوا اللي يوافي

فيه ناس كتير تعرف الحق

ولاجل الضرورة توافي(١٢)

يهدأ نداؤهم، يعودون. يبكي بعضهم فيزيدهم:

- شوف الزمان انتهت عَدَليه   وادي البُطْل ع الحق راكِب

جه السبع يُطلُب عدل ليه   لقَى الكلب ع التخت راكب(١٣).

تتناثر همهمات النساء بين الزغاريد والبكاء؛ يعود:

- صلي؛ إيذانًا بالراحة.

ينزل المحلقون إلى الأرض؛ صامتين، وقبل أن تهبط نفوسهم يقول:

- اذكر الله. فيهبون واقفين، يستأنف:

- وَارَحمةً للعاشِقينَ تَكلفوا

سر المَحبَّةِ وَالهَوى فَضَّاحُ

بِالسرِّ إِن باحوا تُباحُ دِماؤُهم

وَكَذا دِماءُ العاشِقينَ تُباحُ[١٤].

يستبد الشوق بالرجال للتواصل به وحده، يهتفون باللام الضائعة.. آه. بينما هدأت ساحة الوصال بين حامد والنساء وقد اندمجن في البكاء، يواصل الغناء مستدعيًا أغاريدهن:

- كلام الغرَابا حِملناه   فات علينا كما ريح هاوي

كلام القرابا آخ مناه   ييجي فوق فرش الكلاوي[١٥].

تنطلق الزغاريد كميلاد طفل في كل بيت. يزيدهم فرحًا، يهز قلوبهم مرة تلو أخرى تسَّاقط المسرة:

- سحبت سيف المحبه   لجل ما أرميه

رمش بعينه رماني   قبل انا ما ارميه[١٦].

تتصاعد زغرودة لسماء الروح كهدير شلال الفرح فيزيد:

- يا بت جملك هبشني   والهبشة جت في العباية

رمان صدرك دوشني   خلى فطوري عشايا[١٧].

تغرد الجدات بأصوات مبحوحة؛ فيسيل الشجن رقيقًا؛ يعلم أنه ملك القلوب وسيطر على عقول سامعيه. يختم:

عودوا بِنورِ الوَصلِ مِن غَسَق الدُّجى

فَالهَجرُ لَيلٌ وَالوصالُ صَباحُ[١٨].

سال دمع سارة هينًا. انتبه بابا أخيرًا إليها؛ فجاء من قاعة ستي؛ مد يده نحوها، فغالبته. جاء إخوتي في إثره؛ ومازالوا يتقمصون شخصية العفريت؛ من خلفهما شبكوا ثوبيهما كما فعلوا في الحضرة. كانت ترتدي ثوبًا ضافيًا وهو كذلك. حاولت الابتعاد فلم يتمزق الثوب. مدت يدها تخلص ثوبها. مال على رأسها يقبلها فبكت. بصوت خفيض

سألتها:
- بابا يا سارة؟.
رمقتنى بحنو ووجه يراوح بين الفرح والأسى:
- السماح طبع الملاح يابنتي.
الآن، والآن فقط أستطيع أن ألملم أفكاري وأصوغها من جديد، بعدما غرقت في الحضرة من رأسي إلى أخمص قدمي. معظم الرفاعية في صف المقدس التقليدي بانفصال وتجريد عن الوجود، اتحاد بعض الرفاعية وقليل من الأحباش بالوجود في علاه؛ يمحون التناقضات ما بين الأرض والسماء، يجعلونها فضاء واحدًا متصلاً. حسن و زاد حائران بين عجز العقل والشرع للإجابة عن أسئلتهما العميقة. دائرتهما الواسعة اللا معقول واللا معروف واللا مرئي، بغيتهما التماهي مع الغيب، مع المطلق فيما تتجلى مخلوقاته وموجوداته. يقف زاد وحيدًا في دائرة العلم عاجزًا عن الإمساك بالوجود؛ مكتفيًا بما يفعله يوميًّا؛ اللف والدوران، القراءة والاشتعال والتورط.
حيرني تجاور الأحباش والرفاعية؛ ستي وأعمامي في تواصل مع الشيخ حامد يشجون، يفرحون. زدت شغفًا وحيرة.

-١١-

لا يستدل على الحبشي الكبير في الليل قبل ظهور القمر سوى بثوبه الأبيض؛ ما جعل أخاه الرفاعي ينتفض خوفًا لما وجده بجلبابه الأسود؛ في منتصف ليلة غاب قمرها؛ فمال عليه ليسر إليه بنبأ استل على إثره فأسه. حملت زوجة الحبشي وبناته لمبات الصفيح، وذهبن في إثره مولولات. استدعى صراخهن كل الأحباش، وتبعهم الرفاعية في القرية التي تنام بعد ريَّة العشاء. كان صوت الكبّاس يعول؛ وقد سندت رأسي إلى جذع شجرة التوت، ونور قنديل الجامع. عيناي على البقرة تسير مسرعة؛ حتى كاد الناف أن يلتف حول رقبتها؛ أثناء محاولتها إسقاط الغُمى منتفضة مع الحركة والصراخ. يشد وثاق البقرة بين الناف والهوديَّة. الأول عمود يوضع فوق رقبتها والثاني عمود أعرض وأثقل يوضع خلف أرجلها. يرشدون حركتها بشدها بين العمودين بالحبال، ويوضع طرفا العمودين في ثقبي الكمبوشة وهي جزء من الحديد في نهاية ساعد الجر يتصل بقواديس رفع الماء.

أختار نوبة الليل وأصر عليها، وأغار لو استحوذ إخوتي على ليل أعشق رائحته وهمسه. مع انسياب الماء في المسقى وصوت خشخشته الوديعة؛ كانت الأحلام تنير رأسي. ماهي إلا دقائق وسحب الصراخ عقلي؛ فقد تراكم القتال على فرعي الرفاعية والأحباش. كذب الرفاعي على الحبشي حين أخبره نبأ قطع أحد إخوته من أمه الماء عن أرضه؛

فلم يكن سوى عبد الله الطويلة؛ زوج إحدى أخوات الرفاعي بتحريض من الحليبية؛ لأن أولاد الحبشية لا ينامون حتى يرووا؛ الأمر الذي لا يقدر عليه الرفاعي وإخوته وأزواج بنات حليمة التي رأت أن السود لن يهدهم غير اقتتالهم فيما بينهم. انتقل إلي صوت العراك؛ فقد كانت ماكينة مياه المُعين هي أرض المعركة؛ قريبة من الكباس الذي أسوق بقرتنا على مداره. يتردد عواء الريح في جنبات الليل كالكلاب الجائعة. انتقلت القرية؛ عدا الشيوخ والنائمين ناحية العراك، وأسفرت العركة عن الحبشي أكبر الأبناء وقد شجت الفأس رأسه؛ ومازال الطين ينز منه مخلوطًا بدمه. حمله إخوته مرابعة؛ وقد تهدلت أطرافه كالعود المكسور. فضح نور اللمبات الصفيح الوجوه؛ فلم يستطع أي من أولاد الحبشية أو الحليبية الادعاء بإحراز النصر. لم تنم الحبشية ليلتها على جنبها؛ بل نامت واقفة كشجرة الكازورينا الجافة. نشرت الشمس الشتوية دفئها على القرية وفرقته ريح طرية كقأقأة الدجاج على البيوت ألفة وسكينة. افترش الحزن الحقول وقلوب النساء، تناثر الأطفال في الطرقات يقصون ما حدث، وسقطت ليلة الأمس من ذاكرة الشيوخ. تعافى الحبشي بعد شهرين برعاية أمه، ولم يَعُده جدي مرة، ولم يُشغل في تلك الفترة سوى بزوجته وجاريتيه الجديدتين؛ ما أثار ضغينة ومقت الحليبية، فراحت تحث الحبشية وأبناءها على الامتناع عن الزراعة حتى يعرف جدي قدرهم، لكنه أقسم ألا يقحم نفسه بينهم. روى زاد عن الزاهد.

شحَّ الماء ونما العراك، وكان بالكاد يكفيهم حد الكفاف. لجأ بعضهم إلى ستنا التي لم يعد أغلبهم يعتد بمشورتها. قال جدي إبراهيم زوج ستي المبروكة:

- الشوره مباركة، نقصدوها في الشدة، نتشاورو وننتهو لرأي.

قالت ستنا:

- مش كل شيء يلزمه المشورة، لُميَّه وقسمتها لازمها عدل وشدة تسنده.

قالت حليمة وهي تباهي بسلسالها:

- منين نعرف انو عدل؟ لأ. لازم المشورة، وأبويا قال شورة النسوان متمشيش، متأخذنيش يعني ياستنا.

نظرت الحبشية إلى جدي محمد وقد أوشك على الرحيل:

- إيه قولك ياسيدنا؟.

نظر فيهم جميعًا:

- المفارق ملوش قول، وانا مفارق.

توكأ على عصاه الأبنوس، رفض أن تساعده الحليبية. لمس بيده كتف الحبشية الذي بدا كجبل وغادر.

يجلس قريبًا من الباب؛ يختلط أحفاده بأولاده من حوله؛ لا يميز بينهم إلا عندما ينادون أمهاتهم. علمهم أن ينادي كل منهم اسمه مقرونًا باسم أمه وجدته ليعرفهم من بعضهم البعض. امتلأت القرية بنسله؛ حتى ضاقت بهم؛ فعبرت الحبشية وأبناؤها النهر ناحية الشرق البحري. زرعوا وعمروا رقعة أسموْها عزبة أولاد محمد الجديدة. جرى الماء فيها جريان الحياة؛ فاخضوضرت الأرض، وربت الزراعة؛ فاشترت الحبشية بجهد أبنائها عزبة صغيرة في البحيرة يرويها فرع رشيد؛ أسماها أبناؤها عزبة الحبشية، وانتقل نصفهم بأسرهم إلى هناك واستقروا، زحف الأخضر حتى الشاطئ ونمت البيوت بحذائه. صار للأحباش مراكب، وصيد، وتجارة بين رشيد وأسوان، وبينها وشعوب شتى. لم تهنأ الحليبية إلا حين وافق جدي على شراء ما يربو على مئة فدان في إيتاي البارود خالصة لأبنائها؛ أسمتها عزبة الرفاعية أولاد محمد. ذهبت إليها بأبنائها الذكور الذين لم يتزوجوا بعد، ولحق

بهم الرفاعي بأسرته لرعاية الأرض بعد أن فشلوا في الزراعة وإدارة الأجراء. تكاثروا وامتلأت إيتاي بأحفاد جدي. لم تهدأ رحلات القطار بين عزبة أولاد محمد جنوبي الدلتا شرقي فرع رشيد وعزبة الرفاعية أولاد محمد في الشمال الغربي.
لا تترك حليمة جدي كثيرًا؛ خشية أن تستحوذ نساؤه على نصيبها فيه، وكان أعظم ما تخشاه أن يضيع مكرها هباء، وتفوتها ولو خدعة واحدة.

عاش جدي محمد مئة عام وستة عشر، ومات في ركن مظلم صغير يحبو إليه حين يريد أن يريح رأسه من الضجيج. كان مشهد جنازته مهيبًا؛ وقف فيه أناس من كل لون وملة. احتل شريط المصرف بطول عشرات الأفدنة، وزحف حتى أطراف القرية. تواصل المشهد على حافة النهر حتى باب الجامع الذي شهد صلاة الجنازة؛ والذي لم يسمح سوى بعدد قليل من أبنائه وأحفاده للصلاة عليه. انتشر دعاء الميت من لسان ابنه الحاج حسن ابن هاجر إلى ألسنة المصلين والمصطفين في المشهد؛ حتى بلغ باقي أبنائه الذين راحوا يساوون مرقده في لحد أطول قليلًا من لحد طفل في العاشرة. أهالوا التراب، فغرست حليمة برعم صبار عند رأسه. في المساء تصدرت المشهد بعدودة شقت قلوب بناته وأحفاده؛ فأشعلت البكاء:
لما رأيت جسمك في الكفن انمد
عرفت اني بعدك لا ليا عين ولا يد
يا عمود بيتي والعمود هدوه
يا هل ترى في بيت مين نصبوه
يا عمود بيتي والعمود رخام
يا هل ترى في بيت مين انقام

بكت الحبشية، وتلفتت في جنبات الدار تبحث عن رجل لم يعد ينادي. أتمت وأبناؤها أكثر من ثلاثين عامًا في رشيد. ماتت على حافة النهر وهي تغرس شجرة تين بنغالي؛ أتى بها أحد أبنائها من إحدى سفراته. بكت القبيلة أمها. أبى ابنها الحبشي الكبير دفنها بجوار جدي، وكان جسد الحبشية أول ما لامس تراب رشيد من نسائهم؛ سمعت سارة من ستي أمينة.

أوقف ابنها قطعة أرض باسمها يذهب ريعها للمحتاجين، حفر فيها بئر ماء غرس على رأسها طلمبة أسماها الحبشية. شيدت حليمة قصرًا كبيرًا في إيتاي على نسق بيوت الأثرياء من أبناء المدينة؛ استقر الرفاعي فيه بزوجاته وأبنائه. اشترت قصرًا في القاهرة وألحقت باقي أبنائها الذكور وبعض أحفادها بالمدارس والجامعات وخصصت لهم الخدم؛ عدا من تخطاهم عمر التعليم فبقوا في إيتاي. استأجرت كثيرًا من الفلاحين. تركت بناتها بأزواجهن يرعون الأرض القديمة، وأدارت حياة الجميع فى القاهرة وإيتاي وعزبة جدي محمد الكبير. عافت نفسها القرية بعد وفاة جدي، ولم تعد تقوى على زيارته سوى في الأعياد وأيام أُخَر متفرقات. تركب القطار مع بعض أحفادها تحمل الرحمة، وبعض النقود يوزعونها على روحه.

بموت جدي خلت عزبة أولاد محمد من الرفاعية الذكور أولاد حليمة، تفتتت الأرض بقانون التوريث بين أبنائه؛ لكثرة ما طلق وتزوج. عمَّر أولاد الحبشية الباقون بجوار النهر أرض أبيهم القديمة من عائد نصيبهم في الميراث، ورفض الرفاعية أن يدير إخوتهم الأحباش نصيبهم فيها، كما رفضوا أن يديرها أزواج أخواتهم مخافة أن يطمعوا فيها. نصحهم الحبشي بعودة بعضهم من إيتاى ليديروا الأرض فرفضوا.

عرض الرفاعية أرضهم للبيع، نفذ قانون الشفعة فلم يتقدم أحد للشراء. لم يتنازل الأحباش عن حقهم في الشفعة، جاء الحبشي يشتري. تربص به أزواج بنات حليمة محاولين قتله. بادرتهم حليمة: بادلوا الأرض، نصيبكم هنا قصاد نصيبكم في رشيد، البدل يكبر أراضيكم وأراضينا وتلم كل عيلة عيالها.

مستاءً ومستغربًا نظر لها الحبشي:

- نصيبنا هناك من شغلنا، أبونا اشترى لكم في إيتاي، وأمنا اشترت لنا في رشيد، كبرت من خير أرضنا هنا، رشيد أرضنا تجارة ومراكب وشغيلة، لا لكم فيه خبرة ولا عزيمة، الخلاصة ولا سهم واحد من رشيد يروح لكم.

لوى الرفاعي وجهه باتجاه الحبشي:

- لو الأرض غالية عليكم بادلوها بأرضكم، أو يتغرب الطين لا يرتوي ولا تدوسه قدم.

مرت السنون والأرض غريبة. تركها الرفاعي، وتركها الحبشي إكرامًا للدم. دمعت عينه وهو يرى أرضًا تعطش وتجف ثم تبور. قرر ألا يتركها مرعى للحلفا والملح. بدرها برسيمًا معمرًا؛ تأكل منها المواشي والدواب العابرة. راهن على أن الزمن كفيل بإلانة رأس إخوته؛ بعد موت أمهم. تتعامل الحليبية مع الجميع من عل، وتطرد من جنتها من يخالفها. تغرب الأرض كما تغرب البشر. تمارس التغريب دون كلل، أوصت حفيدها الذي أحب على غير هواها: افعل كما فعل جدك مع الجواري، نل وطرك دون زواج.

تحيك حليمة الحياة كمؤامرة، كما تفعل كثير من النساء في المخادع. كمن ينثر الحنظل في حقول الحنطة؛ فيشعل البغض؛ ليبقى الحقد علة أمضى من ولق السكين، من انسحاب الروح دون ترتيب.

واصلت نصائحها لحفيدها، اختر من تشبه ستك الحليبية. السوداء للخدمة وإعداد الطعام، البيضاء تناولك الماء، يظهر بللور الكوب بريق جلدها كالنور، والدم يجري تحته كنهر، فتهفو روحك لها. بسطت كفيها كبائع يعرض بضاعته، رفعت سبابتها وأوجزت:

- السودا تخدمك وتطبخ لقمتك، البيضا تناولك شربة المَيَّة وتزين فرشتك.

سمعت حديثها وأنا أعترض الحياة في دارنا بعد موت أمي، في قاعة ستي المبروكة، وقد أتت حليمة بحفيدها لجدته الكبيرة تصلح له رأسه.

-١٢-

لم أحدثكم عن مسرة من قبل. هي كنهر يفتح ذراعيه؛ كفاتنة تفسح ضفتيها للأخضر ينسكب فيها، علمتها أشجار النهر السباحة؛ تَنبت وإن في جوف الملح؛ تزهر ولو في بيئة شحيحة. تحمل فطرة المتسائلين. نمت بعد وقوعها من رحم أمها جنينًا يتأقلم لتجنب شظف العشق وانقطاع الرجاء. تزدهر بطول شواطئ الحب وعند مآل الأحلام القديمة. تنمو في معايش قليلة؛ لا ترتاح للبشر ذوي الأرواح العاتية شديدي المَد، عميقي الجَزْر. قلب هادئ شرط أبدي لإنباتها؛ فتنثر عطرها في مدى إنساني واسع. تحتمل انحدار الوجد رقيقًا بطيئًا ممتدًّا لا ينتهي إلى نحر. لها من أسطورة اللوتس أجنحة: حين يلامس الظلام وجه الوجود، تنبثق وفي قلبها النور، تغلق أوراقها ليلًا حتى يعود إليها رب الحياة، يتلفع بها في العتمة ليحمي ضياءه من الانطفاء. وفي العتمة كان زاد فضاءها وشهابها؛ يحاصران معًا ما يواجهها من ظلمة.

رفض بابا سفري لأمي. واصلت الاحتجاج، وكسبت أهم جولاتي؛ أن أحظى بحِضن سارة ودعمها. بت أغادر المدينة مع بابا ليطمئن على أمه والأرض. انتزعت حق السفر لأمي أسبوعيًّا بالبكاء والامتناع عن الطعام؛ وكانت حيثياتي في هذه المواجهة المبكرة لرفض الظلم ما

قلته: أخي الكبير يضربني لا يمنعه أحد، أكلف بأعمال تأكل الوقت، لا أنعم بالراحة، لا أستطيع الاستذكار. بعد اكتساب حقي في زيارتها، أتذكر وأنا في حضنها ماواجهني من تمييز طفلة سمراء:

- وانا لوني مش معروف، قمحي ولا اسمر خفيف، بني ولاّ حسب الظروف.

- احط الراديو جنب ودنك واقولك إسمعي، أغاني السمر ليكي.

- احضن الراديو وامد إيدي أطَلع الغنا.

- اضحك واحضنك.

- تلات سنين ومفهمتش، انت ليه بتسمَّعيني انا، أسمر ملك روحي واسمر يا اسمراني وسمرا ياسمرا ؟ وتسأليني كل مره.

- فين ضفايرك ياسمرا؟

- أقول لك ملهاش لزوم مبحبهاش.

- بس إنت أحلى بالضفاير.

- أحلى إيه بس، انا كنت بَغير من شعرك المفروق ضفيرتين.

- وتنطي من الأرض للسما وتدبي برجليك الاتنين.

- واصرخ واقول لك عايزه شعري زي شعرك.

- اضفر لك شعرك وتجري تبصي في المرايه.

- واصرخ تاني، بس دا مش زي فرقك يا ساره.

- اضحك وأحب على راسك.

- افلت منك واصرخ تاني، بس دا مش فرق أبيض زي فرقك.

- اقول لك مش ابيض يا سمرا.

- ولما أقول لك ليه إنتِ بيضا يا أمي؟ تضحكي وتحضنيني.

- أنا وانت زي الليل والنهار، وحش كدا؟

- انتِ النهار مش كدا، وأنا الليل صح؟ وتضحكي.

- واقولك الأجازة الجايه هجاوبك.
- انط جوا صدرك، اقول مش الجايه دالوقت يا بلاش، تسكتي وفي عينك عتاب. أبص لك وانا مكسوفة. أسافر، وارجع.
- ونكمل كلامنا كأنه منقطعش.
- فضلت من سِن سته لحد سن تسعه، مش عارفه أسالك، وانتِ كل مره تغني لي، في سن عشرة كبرت وسألت، ليه الأغاني ليا أنا، مش لبنت عمتي المولوده معايا، هي بيضا وأنا السمرا.
- جيتو الدنيا في شهر واحد، حطيناكم في غربالين جار بعض.
- عمتي قالت، كلهم بيحبو بنتي لأنها بيضا وياما قالو لابوكي اديهم غربال السودا، البيضا دي بتاعتنا احنا.
- ومليت الدار بُكا لأنك تمره في غيط ليمون، اتمنيتك واترجيت ربنا يديمك بين إيديا وجوا روحي.
- واسألك، ليه كنت قصداني بالغنا؟
- بنت عمتك جت بيضا، مش محتاجه الأغاني، واسأل تاني.
- وليه إنتِ بيضا؟ اضحك واحضنك تاني، واقول لك هو ينفع الزرع يعيش في الضلمه بس أو في النور بس؟
- حسب كتاب العلوم والصحه لأ.
- طيب. أنا نصي نهار ونصي ليل؛ وشي وشعري، وانت نصك ليل ونصك نهار شعرك وقلبك.
- واسألك قلبي أبيض؟ ازاي؟.
- لإنك بنتي، وقلب النخلة جمارها وانتِ قلبي.
- تعرفي ياسارة، بنت عمتي عايرتني بالسمار، قالت لي ياسودا يافحمه. قلت لها: أمي أبيض من أمك. قالت: السودا تتعايق ببياض امها. جريت على ستي أمينة وسألتها: ليه انا سمرا وامي بيضا، بنت عمتي بتقول

انها بيضا زي الحليب، وانا سودا زي العبيد: قولي لها انت بيضا وامك سودا كدا خالصين. ولما قلت لها كدا اتغاظت ولنا أجازتين متخاصمين.

أُنتزع من كفها كما ينزعون الظفر من الإصبع. بالدمع مكتمل القسمات والسهد بألوانه الداكنة؛ من ذا يستطيع أن ينسي طفلاً أول فتنة، أول رجفة فراق؟. كنا- في المدينة- قبيلة رفاعية مصغرة في رعاية بابا؛ أكبر إخوته ورئيس قبيلة وضعت ستي دستورها. وأنا غريبة بدون سارة، بعد أن أخذوني منها للالتحاق بالمدرسة. بانتهاء أول عطلة دراسية؛ عدت دامعة وعرفت لأول مرة معنى الانفصال والفقد. تم التفريق بيننا؛ فكنت ائتنس بالكائنات المحبة من حولي. اعتبرت أن البشر الذين لا تحبهم سارة لا يحبونني، لم تذكرهم اسمًا؛ فقط كانت تشيح بوجهها عندما تأتي سيرتهم. من بين الكائنات التي أحببت الياسمينة. شجيرة تتعلق بشرفة منزلنا الأمامية؛ أتلصص على عمتي ترويها في حديقة صغيرة تحيط بالمنزل. لا تتركني أروي الورود؛ لأن الأشياء الجميلة من نصيب الكبار. أمشي حتى آخر شارعنا بالقرب من ضفة النيل. ثمة محل للزهور يجاور سينما الصفا الصيفي. أشتري بمصروفي الذي تعطينيه أمي الورود التي أحب، في طريق عودتي أقف للفرجة على إعلانات الأفلام أعلى مدخل السينما. كانت تلك بداية تمرد مسرة على فكرتي النساء والكبار في آن واحد. وعلى أية حال لم أكن لأخرج على الذكور في أسرتي؛ فلم أكن أجرؤ في هذه السن على الاعتراض. في ملامح الحياة كان هناك فصل تام بين ذكور وإناث العائلة؛ وهو شأن أغلبية الأسر الريفية التي تعيش في المدينة. في مساء الخميس من كل أسبوع؛ يذهب الذكور إلى الحلاق، أو السينما، أو لعب الكرة الشراب في الشارع، ويقضون باقي اليوم في الفراش حتى النوم، نناولهم الطعام والشراب، نغسل ملابسهم

ونرتب لهم الخزائن، ننظف أحذيتهم. كنت أشارك في هذه الخدمات فى نهايات الأسابيع التي لا يتمكن فيها بابا من السفر إلى أمه وأحرم من لقاء أمي الأسبوعي؛ فنتشارك أنا وعمتي في تنظيف المنزل، ثم نتحمم وترتدي كل منا قميصًا منزليًّا كاسيًا غير قصير وغير عار صيفًا وشتاء؛ حماية لذكور العائلة من الفتنة؛ لم أعرف القمصان المكشوفة حتى بعد رحيل الكبار عن البيت؛ فقد احتل الصغار مكانتهم. وكنا نخرج للشارع بملابس قصيرة وبدون أكمام ولم يكن دربنا مفتونًا.

لا تنهك جسدها بأعمال المنزل، تستأثر بري الياسمين لتعجنه و تصنع منه قناعًا لبشرتها، تحاكي الطبيعة فتطرز على الموائد ما تعلمته في حصة الأشغال في مدرستها السنية، تستذكر ولا تهتم لشيء غير ذلك؛ تلك هي عمتي الصغرى. لا أعرف سببًا لاستثنائها من أعمال البيت؛ ربما لأنها أول فتاة في قريتنا تصل للتعليم الجامعي، وربما لترسيخ الفارق بينها وبين سارة ومسرة بالتبعية. كانوا يبررون ذلك التمييز بهشاشة روحها وميلها لإيذاء نفسها إن جار عليها أحد. كانت الأنثى الفضلى والأقرب لقلب ستي. لم يسعد الحظ الكبرى بإكمال تعليمها ولا بالزواج مبكرًا، ورفضت ستي كثيرين من راغبي الزواج بها من أبناء قريتنا لتكريسها لخدمة إخوتها الذكور؛ فصارت شكاءة ضيقة الصدر؛ لا تحب الأطفال ولا تقبلهم؛ شأنها في ذلك شأن إخوتها. كنت أشفق عليها بعدما أُرغمت على رعاية قبيلة من اثنتي عشرة نفسًا؛ يعيشون على كفاف فرضته عليهم الرئيسة. لا ألتمس لها عذرًا؛ كونها وافقت على ظلم نفسها وظلم أمي حين حلت محلها. قبل إجازة نصف العام أعطتني جنيهًا وطلبت مني شراء بعض احتياجات المنزل. كان الوقت عسيرًا؛ عام حرب وهزيمة. بذلت جهدًا وأنا أبحث عن مؤونة البيت من الشاي والسكر اللذين لم يتوافرا في محال البقالة؛ وإن

وُجدا فلا يتاحان لكل راغب. أنجزت مالم يستطعه البنون من إخوتي. يحتفي بي الباعة ويلبون مطلبي لسبب يتعلق بشكلي؛ فأنا سامقة بالنسبة لطفلة، أسير مستقيمة مسرعة الخطى كالعسكري؛ فأبدو في مشيتي كبوصتين تخطوان على عجل؛ تحملان أعلاهما بكرة خيط ضخمة تتنفس برتابة. أرفض الضفائر وتقييد شعري الذي تلتف خيوطه حول بعضها كالعرائس؛ فأبدو مُضْحِكة. بعدما اشتريت الشاي والسكر حملتهما في يد؛ فمال جذعي. كنت حريصة على أن أترك الثانية لأحمل بها بعض الخضر واللحم؛ فيستقيم عودي. انتقيت الطماطم جامدة حمراء كما أوصتني عمتي، وبعد مساومة اشتريت كيلوين وأعطيت البائع ثلاثة قروش. حمل عم سعد البواب مشترياتي وتركها أمام باب الشقة. حملتها حتى باب المطبخ، وانتظرت أن تثني علي. وقفت أنظر إليها؛ لم تلتفت نحوي. قلبت حقيبتي التي ادخرت فيها بعضًا من مصروفي الذي ربطته في طرف منديلي الصغير. أخذت من مدخراتي قرشًا واحدًا، انتظرت عمتي لأعلمها بما وفرت. جاء وقت ثمن الطماطم؛ فأخبرتها أني ساومت البائع ليبيعني الكيلو بقرش واحد بدلاً من قرش ونصف.

لم تهتم أو تنتبه -على ما يبدو- لأهمية أن أوفر لها ثلث ثمن الطماطم؛ وهي من كانت تسكب كوب الشاي في الحوض حين يضع بابا المفتاح في الباب؛ دون أن تأخذ منه رشفة؛ مخافة تعنيفها واتهامها بالتبذير. وضعت النقود جانبًا ورتبت المشتريات في مكانها بالمطبخ؛ نادتني وأنا أنتظر عند باب البنات. ذهبت متلهفة متدفقة. تواجهنا فقبلتني في جبيني. يا الله. عمتي قبلتني! إنه لحدث يدون في تاريخ قبيلتنا. عدت إلى حجرة البنات، أتنفس بعمق، أقفز في الهواء احتضن جسدي، فتحت النافذة وأبلغت الياسمينة ما كان من عمتي، تساقطت أوراق

البوانسيانا؛ فبدا الكون فسيحًا. غنيت على أطراف روحي، خفت أن تشعر ببهجتي؛ فتسألني وأكذب. انتهى اليوم وأنا ممتنة لها. نمت دون أن أبلل وسادتي. في المدرسة حكيت لزملائي؛ فلم أر اندهاشًا: عمتي قبلتني، ياليلى، يا عصام.

سألوني –باندهاش كأنني جننت- سؤالًا أحال فرحتى رمادًا: عمتك قبلتك! كلنا نتلقى القُبل كالهدايا، أين أمك من تلك الضجة تفتعلينها بسبب قبلة؟.

خجلت وتواريت كأن غياب أمي عار؛ وكأن أول قبلة لي في هذه التغريبة حدث لا يستحق الاحتفاء. انتحيت جانبًا. لم أشأ أن أجيب عن أين هذه؛ مخافة أن يحيلوا يومي جحيمًا. حملت حقيبتي وغادرت. سرت لا أجد إجابة لسؤالي: لماذا غُيِّبت أمي، لماذا تغيَّبُ الأمهات وهن فقط من يكافئن الأبناء. قررت ستي أن تتعلم العمات والأعمام أبناء إبراهيم الرفاعي، وتتفرغ أمي ابنة الخياطين لخدمتها والإشراف على الأرض. ستي لأمي هي أخت حليمة من الأم يمتد جذرها إلى كبير طائفة الخياطين في المحروسة؛ طلقها جدي ليبني بحليمة؛ فتزوجها خلف المنسي، كان فتى يافعًا حين رحل أبواه من الشهداء خلف جدي؛ هي ابنة من يحوزون القليل من الأرض والمال الذين يعلمون أبناءهم قليلًا؛ فلم يلتحق أي منهم بالجامعة، فلتقنع أمي بما قسم لها، ولا تتطلع للبندر ومعيشة أبنائه. في نفس اليوم الذي لامني فيه أقراني على احتفائي بقبلة عمتي، ضاع مني كتاب سلاح التلميذ. فتش أبي الحقيبة، وفتشت القبيلة البيت. عرفوا أني فقدت سلاحي ودارت الأسئلة: فيم كنتِ شاردة؟ من شغلكِ عن كتبك؟ من سرقه منك دون أن تدري؟ لطمني بابا على وجهي. سحب سكين المطبخ وطرحني أرضًا. وضع رجله على بطني كأنه سيذبحني. كان مشهدًا أغرق بيتنا المكفهر في الضحك؛ بعدها لم تجف وسادتي ولا فراشي. قرصتني

إحـدى الأنثيين: ليتك تموتين، أنـا كنت أحـق بالفلوس أشـتري بها شرابات فوال. قالت الأخرى، كنت ركبت الترولي للجامعة في الدرجة الأولى شهرًا بطوله، أو أكملت عليه واشتريت كتاب التكاليف الذي أتسوله من زملائي (ربنا ياخدك).

انتظرت أن يطرح الذكور كبارًا وصغارًا احتياجاتهم التي سيوفرها لهم ثمن سلاح آخر، لكنهم لحسن حظي لم يفعلوا، وإلا كنت أضحية.

-١٣-

صبية مع امرأتين، وعشرة من الذكور؛ فتعلمت أن أكون أم نفسي. عشت عمري نصفين؛ الأول مسرة أختي التي دفنوها في الجدار وانتحلت شخصيتها بنصف مني، ونصفي الثاني انتحلَتْه سارة؛ نصف يلعب دور مسرة ونصف متمرد؛ نصف يمسك العصا من المنتصف، ونصف يمسكها من طرفها؛ يلهب بها ضمير الظالمين. كان عنفي كلامًا ومقاومتي صمتًا واستغناء. خبِرت القسوة. يمارس أخي الأكبر على جسدي قوة عضلاته كمعظم الأولاد مع شقيقاتهم. قالت لي سارة التي تسكنني: بكيتِ أم صبرتِ على الأذى كله سواء، فلا تتركي خلفك علامة على ضعفك تجرئهم عليك. لم أبك.

طلبت من أبي برغبة مني في تقليد الأقوياء أن أقص شعري عند الحلاق. وعدني بتحقيق مرادي. تقرصني عمتي؛ لأنني أتململ حين تشد شعري وهي تضفره لي؛ أشتم كراهيتها. تقول: أنا أبني في غير ملكي وأربي غير ولدي. ولأنني لم أخترها، قررت الاستغناء عنها، تمردت على الضفائر وعليها.

لم يكذب بابا خبرًا، أخذني معه للحلاق وحلق لي شعري تأديبًا وردعًا. عدت إلى البيت أحمل ضفائري على يدي. ثلاثة شوارع مشيتها كمن يحمل كفنه. بابا يبص لي ما بين مشفق ومغتاظ، وإخوتي غارقون في الضحك، ينطون حولي محاولين خطف ضفائري. استجرت بسارة: لا

تبكي، البكاء يزيد الأذى، وربما فرطوا ضفائرك خصلة خصلة على رأسك في الشارع. ولم أبك.

عدنا للبيت، ملأ الفزع وجه عمتي: ماذا فعلت بالبنت؛ أينقصها مزيد من القبح. سمراء طويلة نحيفة وأيضًا حليقة الشعر كالبنين! ماذا أفعل معها الآن وقد أصبح ظهرها كوجهها في المريلة! كنا نرتدي جميعنا- بنات وبنين- مريلة بلون واحد وتفصيلة واحدة. توصلت عمتي لاختراع يشير إلى الجواري بشدة؛ حلق(قرط) طارة كبير ألبسه في أذني لتمييزي عن الصبية لأني حليقة الشعر؛ وهي فكرة متسقة مع أفكارها عن ضرورة كسر ضلوع البنات؛ كبداية للتمييز والكراهية.

تحاصرني القسوة فأزداد عنادًا ومقاومة؛ كانت أبله ليلى مدرسة ابتدائي تضرب كل من لم ينجز واجبه المدرسي- وأنا منهم- بسن المسطرة على ظهر يده، وكثيرًا ما بالغت في العقاب؛ فتضرب بالسن الحديد؛ وهذا تعذيب يفوق احتمال الأطفال. كان الأولاد يصرخون ويشدون أياديهم منها؛ فتزيدهم عشر مساطر؛ نظير اعتراضهم. تنظر لي: إبكي إبكي يالئيمة. أتشاغل عنها بالنظر بعيدًا كيلا ترى وجهي الموجوع. أبحث عن سارة بداخلي، تشوفني مذهولة مستغربة تصرفاتها. أهمس داخلي: أليس التعذيب حرامًا؟. يستفزها صمتي دون بكاء؛ تصرخ: مجنونة...، وتتركني دون أن تزيد العقاب.

كانت ترتدي الفساتين القصيرة والعارية، تضع رجلًا فوق الأخرى؛ فتبين حمالة الجورب أعلى فخذها، تصبغ وجهها بالبودرة، وشفتيها بالأحمر، وتلون أظافرها. وكان كامل وسيمًا مهذبًا، نظيفًا يفوح منه العطر، وكنت أستلطفه. كثيرًا ما سرنا معًا حتى فيلتهم الواقعة خلف المدرسة مباشرة. فى يوم غاب عن الفصل. في طريق عودتي من المدرسة للبيت؛ رأيت عربة يجرها حصانان مزينة مسارجهما بالزهور وسعف

النخيل. تحمل صندوقًا خشبيًّا لامعًا مكللًا بالورود، رأيته يرتدي بذلة كالكبار، يبكي، وجميع من حوله يرتدون السواد. بعد ثلاثة أيام عاد، جلست إلى جواره. كان يرتدي بنطالًا قصيرًا تحت مريلته، في أعلى فخذه شاش يرشح منه الميكريكروم، تخيلت أنه قد حاول الانتحار حزنًا على أبيه. قال: كنت أحلق رجلي لينبت فيها الشعر. رأتني أبله ليلى أربت على فخذه من فوق المريلة، سبتني، ونهتني عن الجلوس بجواره، قرصت أذني حتى أسالت منها النار.

صرنا صاحبتين، أخبرتها عن نصفي الذي تحتله سارة، ونصفي الثاني؛ مسرة المدفونة في الحائط. ربتت على خدي.

أصبح سلوكي يشبه سلوك الرجال؛ مثلهم لا أبكي أمام أحد.

كان لنا جار يكبرني بسنة، والغرف الجنوبية متقابلة متشابهة؛ لكل منها شباك يطل على الآخر. المسافة بين الشباكين قريبة؛ حتى إنه يمكن لكل منا لمس كف الآخر لو مد يده. لم يحدث. لم يدر بيننا حديث؛ فقط نظرات من بعيد، وارتعاشة قلب صغير يخشى أن يتهموه بالحب. وكانت أمه تبتسم لي. نسهر للاستذكار يؤنس كل منا الآخر؛ لا شيء غير ذلك. فجأة ظهر عمي ورأى بهواجسه؛ فقرر تسمير خشب النافذة؛ بحيث يستحيل فتحه. تجاهلت فعلته. كانت النافذة ممر التنفس الوحيد؛ لأنهم يغلقون الهواء ليلًا، وكنت أستذكر في الوقت الذي لا أكلف فيه بعمل؛ أي وقت نومهم. سألني بابا هامسًا: من صاحب هذه الفعلة ؟ قلت: بابا...

كنت أخاطب الأعمام بذكر أسمائهم مقرونة بكلمة بابا، أقول بابا فلان..؛ وهكذا كان لي ستة من الآباء.

بابا لا يلوم (بابا..) ولا يعاتبه ولا يناقشه، فقط نظر إليه: بدون النافذة تصير الحجرة كالقبر، والبنت وجهها انطفأ.

مستغرباً نظر إلى أبي: لم أر منها اعتراضًا، يعني لا شكوى ولا بكاء.

طبعًا هذا كذب قراح؛ لأنني كنت أعاقب إن بكيت أو شكوت؛ أحرم من السفر لأمي. دائمًا يكذبون ولا راد لكذبهم.

لا أنسي يومًا عنادي ومقاومتي، وكراهيتي للظلم بكافة التفاصيل. أحتفظ بمخازن للذكرى، يغلقونها بظلمتهم فأحن لأجملها؛ تلك التى تدثرها الشمس. فتحت نافذة بداخلي لا يتنفس هواءها غيري؛ أرى منها كفي زاد تلتفتان للشمس ويُسكِنني فيما بينهما. يقبل كفي: لا شأن لك بالكذبة، امسحيهم من رأسك. واستغنيت.

-١٤-

في ليلة معركة مكنة المُعين، سحبت النساء لمبات الصفيح والمسارج لإنارة الطريق للرجال المشغولين بحمل المصابين، وإماطة آثار العركة. وقفنا أمام باب دارنا. ضغطت سارة كفي حتى كادت تخرج من بين أصابعها: سنقف هنا، لو علم أعمامك وأبوك أننا خطونا خطوة واحدة لن يطلع علينا نهار.

لم تعنني المعركة في شيء ولم أمارس الفضول مع أمي؛ حتى إنها اعتقدت أنني قد أصابني ضُر؛ أنا التي لا تفُوت سؤالًا. لم تعرف بعد أني قد أصابني هَوًى عظيم. كنت أحمل شأن النساء والأطفال المسرجة الممشوقة سائغة النور؛ ذات الهمس اللين والحضور السمح؛ منيرة الأرواح ومضيافة قلوب خبا نورها؛ ونيسة البيوت الفقيرة والعقول العامرة؛ تلك التي تنام بداخلها شهوة المعرفة وجِن الشغف؛ يحتضنونها فتمسي في مناماتهم أحلامًا ترعاها الملائكة. لم يكن النور قد دخل قريتنا بعد؛ فلم يسعني المقارنة بين سناها ونور المصباح الكهربي. انقطعت المقارنة بين حجرتي في المدينة؛ فيها المصابيح والأيقونات المضيئة تنمو من الحوائط، وقاعة أمي في قريتنا. لامجال لمرادفات وأضداد الجن والملائكة في البقعة المحيطة بالمسرجة وانعدامها في محيط المصباح الكهربي. على نورها رسمت أمي كلبًا

وقطًّا. وثعلبًا، ورسمنا معًا بقرة، محراثًا وجميزة. عرفت الكبَّاس والنورج من جيدها وقدها ويديها. أحيانًا لاتصل خيالاتنا للحائط ولا تملأه، وأحيانًا يمتلئ بنا. رأت سؤالي، عبثت بوجهها أمام وجهي:
- على قد زيته خايل له. نظرت إليها متسائلة، ابتسمت:
- يعني لو الجاز أو الزيت قليل في المسرجة يبقى الخيال قلة ونحيف، ولو مليانه بُه يبقى الخيال شبعان وكبير.

علمتني خيال الظل بالمسرجة، ولم أكن قد عرفت اسمه بعد.

في حواراتها مع بابا وحواراته مع إخوته؛ حفظت عنهم، واستعملت قلبها فرازًا؛ يُروِّق ماشاب كلامهم من كذب وزيف أو مبالغة. تغضب مني حين أستخدم المرادفات الريفية للأشياء، تخشى على وجداني الناحِل وقلبي العذِب من هول المفارقة بين الأسماء والأشياء وروح الكلام. رأتني مفتونة بالمسرجة؛ فأسمتها بما يليق بمن تعيش في المدينة: سميتُها ذات الخير؛ اسم حلو يشبهك. وكانت أحيانًا تنطقها زيت الخير.

أُذعن رغم أنها الوحيدة فيمن أعرف التي تسمي المسرجة بذات الخير. نفخت من زفيري في لمبتها ومررت قطعة من الجريدة برفق وحرص داخلها؛ أمسح عنها ما علق بها من سناج، وأزيل عنها روائح النعاس. لمحتني من بعيد: خدي بالك تنكسر اللمبة وتجرحك. واستأنفت شأنها مرة أخرى.

أقلبها بحثًا عن الجن المرسوم على الحوائط، والملائكة التي تتبعني أينما حملتها؛ تلك التي تقف على أطراف ضيائها. أمسكت بالزجاجة وأدخلت عيني في فتحة نورها. كطفلة تعشق أساطير قريتها؛ أهمس من أين تأتي شياطين وملائكة الحواديت التي تحكيها لي سارة على نورها؟ سمعتني:

- كل اللي عملوه الأنبيا له ضل من خير وضل من شر.

ضحكَت وأنا أحاول الاستحواذ على الظلال. لاحقتها:

- ليه مسرجتنا بالجاز، ومسرجة أم عبد الله شحاتة بالزيت؟.

أخذتني إلى الغيط، أرتني أشجار الزيت؛ القطن والزيتون:

- عوايدهم يعمرو المسرجة بالزيت، ولو زيتهم قليل يحطو أُميَّه وزيت في كوبايه جواها فتيل، ودا قنديل الفقير، ومتحطش المسرجه قدام صورة سيدها.

- أنا بقى مشفتش عندها صورة.

- ما هي متقدرش.

أخذت بيدي وأشارت بعلامات في الهواء أمام وجهي. ذهبت إلى المدرسة وتذكرت زميلي كمالًا وبعض أقراني:

- آ؛ يعني أم عبد الله شحاتة مسيـ...

وضعت يدها برفق على فمي:

- شش، ستك وبابا ممكن يدخلو علينا. اختبأت فيها، وشوشتها.

- يعنى أم عبد الله شحاتة ممـ...تهمس وبحزم.

- محدش يعرف غيري والحاج حسن، وانت.

ازداد خوفي؛ فقد حمَّلَتني سرًّا لم أقو على حمله. ولم تغفر لي أني بحت به لزاد وقد كان يعرف؛ فسامحتني.

لم أدع سؤالي يمر رغم المفاجأة:

- وسيدنا ليه ملوش صورة ؟.

- مش لازم صورة، لأن نوره في قلوبنا أجمل من الصورة.

- سيدهم نور وسيدنا برضه نور؟ .

- آ؛ برضه، سيدنا وسيدهم نور. وكل الأسياد والأنبيا اللي عرفتهم الدنيا وعمروها، برضه نور، هو يمنع؟.

- والمسرجه؟. كل الناس عندهم جاز وزيت عشان ينوروها؟.
- لأ. وستك أمينة مفيش على لسانها غير قولة بيعو من قوتكم واسرجو بيوتكم، وستك عمر مسرجتها ما انطفت.

أخبرتني كيف تفكر أم عبد الله شحاتة؛ ما فهمت منه أن زيت القنديل يدل على روح سيدها، وأن النور هو ثمرة عملها.

سمعنا نقرًا على باب الليل، وأم عبد الله شحاتة تعول: إنجديني، أبو عبد الله شجوا راسه وهو بيفصل بين الرفاعية والحبش. انطفأ وجه سارة، تلاطم فيه نهر نصفه مالح ونصفه عذب. لم تستأذن من ستي، سحبتني وجسدها ينتفض: وجعهم لا يطيب، كعذاب الزيت في القنديل تحته ماء وفوقه نار.

مرقنا من باب دار أم عبد الله بصعوبة. كان ممددًا على الأرض ومسرجته مال نورها، وكانت تهذي:

- حلمت بالزيت سايب فتيله، حلمت بنور المسرجة مكسور.

غطوا وجهه وهموا بإطفاء المسرجة؛ فمنعتهم سارة.

فزعت أمي حين سمِعَت عدودة زوجته:

مات الحبيب وف إيده إنجيله
شاف المسيح ساند ومديله
سافر ولم البركه في منديله
وكان يا دنيا دمه في منديلك
وعاش عمره وهو مديلك
ولا حد فيك يادنيا مد له إيده
ونتمنى يدخل الجنه
إيده ف إيد سيده.

داوت سارة هذيان أم عبد الله، قالت بصوت أسمعته للجميع:

- لها أسبوع بتروح عزا نصارى في البتانون، رفعت صوتها:
طريق الجوامع تبكي عليه وتنوح
فين المُصَلي اللي ييجي ويروح
طريق الجوامع تبكي عليه ديمه
فين المُصَلي صاحب القيمه.

لم تفلح حيلة سارة، وفضح سرهم حرامي النحاس.

ثأروا من عبد الله شحاتة؛ لأخذه صف الحبش في العراك، يلوحون بالدم في وجه الحاج حسن. سمعت القليل وأنا أسوق البقرة، وأعاد علي زاد ما دار بينهم. قال الدسوقي:

- الكفره، بيصلو الفجر في حضيرهم، صلا غير صلاتنا.

وجه طارق الرفاعي كبير الواطية كلامه إلى أبي عبد الله.

- ترك الذنب ولا طلب المغفرة، انتو ساعدتو حسن يزرع بينا خمارة، سيبوها وسيبوه.

- العرقي مش أذيَّه ولا خمره، وانا وولادي بناكلو عيشنا بعرقنا. ناظرًا في عين العمدة:

- متعايرنيش ياعمدة، المذنب ابنك بيسرق النحاس ويرازي في بنات الناس، الحرامي الفلاتي يئذي أكتر من العرقي.

لطمه الرفاعي ابن حليمة، أمسك عبد الله بيده يمنعه من مواصلة عدوانه. صرخ فيهم الرفاعي: كتفوه، وزاجرًا بخسة:

- لما نلطشك على يمّه تدير لي وشك اليمّه التانيه، سامع!

نزف من أنفه. أمسكه اثنان من تحت إبطيه ورفعوه ليقابل وجهه وجه الرفاعي ليكمل صفعه. زعق فيه وهو يبلع دمه.

- الرجولة انك تضربني وانا حر مش متكتف، الدسوقي خلع كتف بنتي لما صدته، مرغها في التراب عراها وركب عليها قدام العزبة كلها، عايز حقها.

تسبب الدسوقي في قتل شقيق نادية ابنة عبد الله وهو يدافع عنها، لم ينس تصديها له وهو يسرق دار حسن. لم يغفر للحاج رعايته لهم وإفساده مخطط اغتصابهم.

قال طارق الرفاعي زوج ابنة حليمة.

- انت انهبلت، فاكر راسك براسنا، بنتك غير بناتنا، وبعدين فين شهودك؟.

تقدم الحاج حسن، زاد وعلي، الشيخ الزاهد، سيدي خلف، سارة وأم زاد.

وجه طارق الرفاعي كلامه للعمدة يستحثه على الرد.

- انا بقى عايز الحكم في حق بنته اللي ركب عليها الدسوقي.

- اللي يجوز لبناتنا ميجوزش لبنتك. حتى لو ركبها الدسوقي ونكحها وحبلت منه كمان ملهاش حق عندنا، ابنها يكون ابن حرام، نسبه يكون لها مش للدسوقي وميجوزش يتجوزها، وميلزمناش ولا شاهد واحد.. ايوه الدسوقي حر حتى لو حرامي وفلاتي وورينا هتعمل إيه؟.

تفل عبد الله في وجه طارق الرفاعي، أفلت جسده مقيد اليدين، وركل ماسكيه في محاشمهم.

على شفا الموت، يطعَنون في الخذلان فارين من هيئتهم، يكفون عن الإيمان بنصف أمل، نصف فرصة ونصف روح فلا شيء يعدل الحياة.

ناولوا طارقًا فأسًا، خبط بها رأس عبد الله مرة واحدة؛ أسالت منه الروح.

وجه العمدة كلامه لجسدٍ سفحوا دمه:

- الحق لنا، عايشين في حمانا، فلازم تدفعو لنا وتتاوو كمان.

سدد الحاج حسن نظره إلى أخيه العمدة:

- الحق! الدسوقي زاني والمصيبة أنه ابن زنا، الحق إنه لا ينكح حرة من

أهل الكتاب، الزاني له زانية مثله.

لم يسقط هوى نادية من قلب حسن، ولم يزل يبغض الدسوقي ابن الإكراه على النكاح، هو ومن جلبه إلى الدنيا، يكره من تسببا في بوار قلبه ككساد سوق الأَيِّم. بات كمن ماتت عنه زوجته، كالأرملة مات زوجها؛ فبارت.

تجاهل العمدة كلام أخيه تجنبًا لعراك الرفاعية أمام الأغيار ومشايعيهم، مكتفيًا بقتل عبد الله شحاتة شريك الحاج حسن، واهانة عائلته.

أشاح زاد بوجهه مستنكرًا الحديث كله:

- ربنا ينتقم منكم. كلامك تخريف ياعمدة، هي حرب والرفاعية مغاويرها؟ يدفعوا لكم؟ ليه هي نسوانهم سبايا؟.

مات عبد الله شحاتة أبو عبد الله وشحاتة ونادية. أنهكهم حكم دفنه، وكانوا قد أعدوا المسجد للصلاة عليه، يوم فتح فتوح -شهيد البوح بالغرام، وفاضح سر العمدة والدسوقي- النعش وسحب الغطاء الأخضر ونام.

قام زاد والحاج حسن بتغسيله، كفَّناه وصليا عليه في داره. في فجر اليوم الثالث نبش بعضهم قبره وسرقوا جثمانه.

تعاضد زاد وعبد الله، فتم شبحهما متجاورين ومنفردين، واستقبل سرب النسوان معذبًا آخر.

-١٥-

لي أخت لها نفس اسمي؛ مسرة. ماتت بعد ولادتها بفترة قصيرة. لم يكن أهلي في بحبوحة لأنهم حريصون على التعليم؛ متطلعون لحيازة الملْك؛ ينفقون خير الأرض في توسعتها. تكاسلوا عن الإبلاغ عن وفاتها لمشقة السفر إلى السجل المدني، لم يتداركوا الإهمال لأن تسجيل وفاتها بعد الميعاد يعني دفع غرامة قيمتها خمسة جنيهات، يشترون بها ثلاثة أفدنة، وتم دفنها دونما تصريح. انتهى وجودها إلى مجرد شق في جدار بجوار الفرن وعين أمي؛ شقَّة بيضاء بحجم منديل الرأس؛ كانت الكفن. دُفِنت مسرة ونُسيت. تذكروها يوم الأربعين كطقس مصري قديم. تروح ذكراها وتجيء بين خطى أمي ودمعها، وحازوا الأفدنة. وجئت أنا، لم يخبروني كم مر من الوقت حتى بلوغهم حلم الإنجاب ثانية. تحايلًا على الغرامة أسموني باسمها. حللت مكان أختي التي تسكن حائطًا معتمًا. يذكرني شقها المظلم بقريتنا ورياح تقتلع أهلها ليلًا، تسقطهم في النهر أو في حضن إحدى شجراتها العتيقة. قرية يحرسها طوف ستنا، تنيرها المسارج وقنديل جامع، والدعاء على صوت مؤذن حنون كالناي(١٩) يطل على مجرى نهر طيب. و كنت أبكي عند سماع الراديو يبث أذاني الفجر وإفطار رمضان يمهد لهما بالناي. في ليلة شتوية غير مقمرة رحت مع أمي نسترد طبلية استعارتها

جارة. في طريق عودتنا سكنت الريح الطبلية، حملت أمي ورمحت بها مسافة، أناديها وكانت تضحك ببذخ.

تأخرت الكهرباء عن قرية يستدلون عليها من قرى مجاورة.

كبرت قليلًا واحتفيت وأمي بدخول النور إلى دارنا. وشأن قرى كثيرة كان هناك فتى قد تعلم في مدرسة الصنائع. مرر سلكًا يحمل النور إلينا من الجامع، وكان أبي يمد المسجد بحصر بديلة عن أخرى قد بليت، ويغذي قنديله عند انقطاع الكهرباء. أحببت الذي أنار دارنا؛ وكان يجيد صناعة النورج والمحراث، الشادوف، وبرج الحمام من سعف النخيل؛ وقد أهدانيهم، وأحرق أحرف اسمه على جذع نخلة في غيطنا؛ أسماها زويدة ولم يخبر أحدًا. أخبر سارة، مسرة ماتت فلينر الله روحها، أنا زاد وهي حتَّة مني، سميتها زويدة! بطفولة الأسماء وبذخها يزهر الندى في الساحات. أسلمني للماء وأطعمني منه، كبرت في ظله، رفعني للسماء ووالاني بالحب.

نثرت اسمه في جلهنا فتربص بنا حراث الظلم: لا تفتح التابوت، فسيذبح الخوف بجناحيه من يجرؤ على شحذ إبطيه.

كان اليوم عيدًا، فيه تكبر بعض البنات؛ فتمتلئ بالأحلام، تهتز أوتار الأولاد على شجرة الأنوثة، تحتفي الطبيعة بسخاء بالذين نشأوا بالقرب من شمس النهر ودفئها. كان العيد سماء وأرضًا لم تطأها قدماي. وعلى خلاف البنات في سني كنت أحتاج قليلًا، لا أعرف مبعث ذلك؛ قد تكون حياة الأسرة الممتدة؛ حيث تدار المعايش والمباهج وتوزع بين أفرادها برأي الرئيسة، يسري علي ما يسري على سارة، وعلى الهامش بضع معارك أمومية صغيرة لتكريس بعض حقوقي وعدم الجور على أنثى في عائلة ذكورية.

علمني زاد أن أستغني وأستأنس إلى وحدتي؛ أعجن الأوراق وأضيف لها الصمغ أُشكلها كائنات؛ أصنع لها فمًا وجناحين وأبوح لها، أطيِّر

قصاصات الورق فراشات من على كفي عوضًا عن الطائرات الورقية. علمتني سارة أن أخبئ مشاعري كيلا يراها رجل أيًّا كان عمره، فقط يتلقاها ثوبها همسًا؛ دمعًا وفرحًا. كتمت وجعي. تأوهت بصوت خفيض، حين أغلق شقيقي الباب على يدي لمنعي من الخروج بأمر ستي، صرخَت:

- يافاجرة الصوت الطري دا لمين؟.

عبثًا حاولت إقناعها أن هذا صوتي الذي ولدت به؛ لا أصطنعه. فكرت في قطع أحبالي الصوتية لأنجو من التبكيت.

هل جاءت هذه الآهة حنونة لأني أحب؟ ربما!

أنا أحب زادًا يا سارة!

لا ينجو عاشق ببوحه. لم يطأ زاد أرض جَلْهنا ولا تنفس بين أشجاره يومًا. في غروب العيد كنت أطلب منها باستعطاف- لخوفنا من بابا أو أحد الأعمام والمتواطئين- أن أجلس في الجَلْه بين الشجر، التوت والخوخ، الليمون والجوافة؛ ليمتلئ جسدي بعطرها. كان الجَلْه جنتي، والفضوليون كثر. أثرثر باسم زاد وأحكي للأشجار عنه. تلصص عم.

- بنتك بتحب ياخويا.

- بتحب. يانهار اسود! بتقول إيه!

- وعهد الله زي ما قلت لك كدا، كانت قاعده تحت التوتة تكلم روحها تحلم وتتمنى، بنتك لو مجوزتهاش هتجيب لنا نصيبه.

كانت ستي والذكور يتعجلون زواجي قبل أن تتسلق الأنوثة جسدي؛ فالزواج كعود المشنقة يكسرني قبل بلوغي حقيقتي.

- جواز؟ دي لسه مبلغتش وبتتعلم، وعماتها أولى بالجواز.

- مبلغتش وبتحب؟ وإيه جاب سيرة عماتها؟ بتعاير اخواتك؟

- الله. ياسيدي لا معايره ولا غيره، قصدي عماتها أهم.

- انت حر، اللهم بلغت فاشهد.

يرى عم أن العشق مرض، ويراه إخوته غاية الجهل ومجاوزة في البهيمية.

أحببت زادًا كما أحببت سائر الكائنات.

قبل المحيض؛ أخبرتني سارة ستكبرين؛ ويمكنك فك ضفائرك. ويجب أن أحترس من الأولاد في المدرسة. لم يكن يتبقى سوى سنة واحدة وأترك المدرسة المشتركة، كنت في الفصل الخامس الابتدائي، وكانوا قد بدأوا يفصلون الذكور عن الإناث في مدارس التعليم الإعدادي.

لم تكن سارة حنونًا طيلة الوقت، لم تكن متفهمة كما أحلم. هي خلطة من أمها ومن ستي، وأنا وزاد. شاءت أن تخفف قسوتها التي تصيبني بها أحيانًا:

- احنا بنتعلم من بعض يامسرة.

جريت عليها واحتضنت ما أدركته من جسدها، وابتسَمت.

- أنا عرفت بقلبي وانه بيحبنا كلنا، واتعلمت الرحمة منك.

- ربنا بيحبنا كلنا! وكنت بتقرصيني لما اقعد مع الصبيان؟.

- خايفه يلومو علي في تربيتك، وسيرتك تمضغها الكلاب. خفت من ستك بالذات، كانت قسوتي حماية لك، حتى لو حرقتك بالنار، انت عندي يوم، وباقي أيام الأسبوع عندهم، خفت ينتقمو مني فيكِ.

- انت أمي، لازم تحبيني قدامهم، وتعرفيهم انك سندي.

- مينفعش أبين حبي لك قدامهم، ولا يمكن نسندك وقت مايميلو عليكِ، بنطاطي مرة لاجل ننصفك مرة، واللّيّن مينكسرش.

لأمي بشرة وردية، وضفيرتان تجاوزان منتصف ظهرها، تجمعهما معًا عند نهايتهما؛ فيبدو ظهرها كنهر بزغت منه سعفتان. كن يغرن منها. تقسو أمي علي، لا تنصفني أمامهم؛ حتى وإن كنت على صواب؛ فإفشاء الحب يعنى إشعال العداوة بين عائلتها وعائلة أبي، تتعثر علاقات النسب وتموت المودة.

وكأننا نسل منذور للبغي، أحب خالي عمة لي، وأرادوا له أختها؛ فرفض. كتفوه ورموه أمام باب دارهم؛ أقسموا لأبويه أنهما لن يرياه ثانية؛ وإن استمر على رفضه، وتطلع في أختها سيقتلونه. بكيت فوق دم خالي.

رآنا زاد فقال لعمي: النظر إلى الوجه المليح عبادة.

قذفه عمي بسلاح منقرة كان يهذب به عصا تحسبًا لعراك. أسال دم زاد، كتم جرحه: انت تحب الشافعي[٢٠]، وتستشهد بكلامه، هو من قال:

يقولون لا تَنظر وتلك بليَّةٌ

ألا كلُّ ذي عينين لا بدَّ ناظرُ

وليس اكتحال العين بالعين ريبة

إذا عفَّ فيما بين ذاكَ الضمائرُ.

أمسكوا بزاد وشبحوه على النخلة لأول مرة. هرب. خطفوا أمه وحبسوها؛ فعاد إلى النخلة مسرعًا، دار الغراب لافًّا الحبل بيديه حول النخلة. قيد زاد نفسه ليحرر أمه.

أخفت سارة خالي في الحاصل واعتقدتُ أنا أنه تليس يئن.

-١٦-

أهملت بنياني فقد ضاق ثوبي وصار لدي جسد يزخر بالخطيئة! أرفع كتفي وأقوسهما وأدفعهما للأمام ليخفيا ما نهد في صدري. حرت في ردفي، كيف أخبئهما، كيف أمنع استدارة فخذي. سيري مستقيمة كالعسكري بخطى ثابتة دون أن يرتج جسدك، لا تترهل مشيتك. ذبحت أمي دجاجة وحزنت. عنقود بيض تدلي من بطنها المفتوح، بيضة لم تكتمل استقرت في مجمعها، دجاجة بياضة ياخسارة! في عطلة نهاية الدراسة بين الفصلين السادس وأول الإعدادي تبقع ثوبي المفضل من اختيار أمي. اجتمعت القبيلة للاطمئنان أن بُقعي حميدة. سألتني الأنثيان الراشدتان: هل مسَّكِ رجل؟. أبي وإخوتي وأعمامي وخالي. صرختا: هل تعريت لأبيك وإخوتك وأعمامك وخالك؟. ولماذا أتعرى لهؤلاء أو لغيرهم. صمتتا. انتحت بي إحداهما جانبًا: أنت حائض؟. ربما، وماذا في ذلك، أخبرتني سارة أني سأحيض يومًا. فلترعي حيضك، ولتحفظي بيضاتك إذن! هل يمكنني قتل بيضاتي إذن حتى لا يتبقع ثوبي؟. لا يقتلها إلا طبيب، أو يشاء الله فتقتل بغير علمك. هل يمكنني إطعام ثديي للقطط على الدرج بديلًا عن السمك؟ عل الله يشاء ألا يبزغا أكثر من ذلك؛ يضمران، يجفان ويلتصقان بقفصك الصدري ولا يصلحان طعامًا للسمك! كيف لي أن أنحف فخذي وردفي؟ يصيبك الله بالسقم فلا تأكلين وتسيل دهونك من فوق عظامك! لماذا

أعطاني الله بيضات ونهدين وردفين وفخذين مستديرين؟. لتحفظهم كالبيض المكنون حتي يأتي وقت نكاحك، ليحرثهم رجل إن شاء الله.. وجاء. يا الله، هل أنت قاس؟ ألا تحبني؟ إذن لماذا أعطيتنيهم، لماذا ولم أزل صغيرة، لماذا لا تفعل وأنا كبيرة أحتمل العراك؟. ياالله، اكشف لي حكمتك؛ أن يتبقع ثوبي ولم أزل طفلة؟. لم أعد أُشغل بجسمي فقد حاصروه كالبرزخ؛ كأرض ضيقة بين بحرين موصلة بَرًّا ببر؛ رجالًا بنساء، كشبه جزيرة معزولة ببر، يهيلون الآثام على جسمي، كما يردمون التراب على القبر أظلموا جسدي. ابتعدت عن أهوال البدن لأنجو؛ فعشش السؤال في صدري. كنت سؤولة تتحين أوان الصفا والليل لحصاد الإجابات. في طريق شاق الاستجابة؛ كغيمة صغيرة تلح بالمطر في صحراء. كالمحب لمراده كالمريد اللحوح، كما يقولون. في زياراتي لأمي وأنا أتحسس الطريق إلى محيطي؛ الفيضان والدميرة، الحضرة لاجئ الجبانة، العالية والواطية، سرب النسوان؛ اعتصرني التعلق بالإجابات؛ فاضطُررت للاشتباك بأسئلة الأطفال الساذجة.

جلستُ عند أقدامها، بعدما وضعَت تمرة الليل الأولى في فمها تستحلبها بقليل من الدبس؛ وهو عسل التمر سالت قطرة منه وسارت داخل أخدود في وجهها؛ فانبجس في عيني نهر.

- هي الميَّه جت منين ياستي؟. جرى النهر ولم توقفه، قالت:

- من ياقوتة خضرا جرت لمُيّه من جنابها الاربعه، أربع نهور واحد منهم بلون الدم. بعدهم بحر مالح ريحته مُر، يِحيا الضلام فيه لا تدخله شمس ولا يشوفه قمر، وأقسم ربي يفضل لونه اسود عشان يقدسو نوره سبحانه.

- وفين البحر اللي ما تدخله شمس ولا يزوره قمر؟.

- بعيد زي الدخان غويط ما له قرار. سألت:

- هي الجنيات بتسكن البحر ياستي، يعني نقدر نشوفها ؟.

تململت ولم تجب. ابتعدت عني. ألححت في السؤال ولم تجب. فركت كفيها وزفرت، هبت نسمة فامتلأ ثوبي وكدت أطير. تمسكتُ بثوبها الراسخ:

- منين بتيجى الريح ياستي؟.

- من رعشة لُميّه وهدوتها؛ إرتعشت فنبت لها جناحين قعدت الريح عليهم.

لاكت تمرة ثانية. تجاوزت مؤقتًا عن أسئلة لم تجب عنها.

شجعني الرُّبُّ المنسال من فمها واستعذابها له، اقتربت منها.

- برطلتي خالي لو سمع كلامك هترفعيه لسابع سما. أدركتني:

- في زمردة خضرا كبيره جدًّا، دخل وساب فيها روحه فانقسمت سبع سماوات وسبع أراضي؛ كل واحدة بلون.

عددت لي السموات بألوانها وختمت بسماء خضراء مورقة؛ نازل منها شجر الجنة. أشرقت جوانحي بالفرح. صمت أفسح لها الوقت لتلتقف أفكارها:

- لكل سما من دول خازن، أمين خزنة يعني.

حدثتني عن خزنَة المطر والزرع، والمسئولين عن شفاء المرضى وبعث الموتى، وقابض الأرواح والأمين على عطايا الله. سكتت ونظرت في عيني تعدني لاستقبال الهول:

- النار بقى مسئول عنها تسعتاشر خازن ماشيين ورا عبيد ربنا يراقبوهم ويجازو الخاطيين منهم.

حدثتني عن حملة العرش عددهم وعلو مقامهم بأمره، وشجرة السدرة تقف على رؤوسهم. أنهت بحراس الحياة الذين يسكنون غيمة قريبة يحمون الناس من عمل إبليس. قلت:

- سما قريبة!

- آ. ورب العرش، عشان يلحقو ينزلو وينجدو الخلق من عمل إبليس

لأنهم حفظة العهد.
- هو إيه العرش؟. كنت قد سألت مدرس الدين عن معنى الآية:
﴿ **اسْتَوىَ على الْعَرْش**﴾ [٢١] امتعض من سؤالي، أهمله.
قالت بضجر لتوقفني:
- وهو بيلف بمركبه، لقى الفضا واسع قسمه نصين، نصه اللي فوق سما ونصه اللي تحت أرض. من ياقوته خضرا كبيرة جدًّا خلق سبع سموات وسبع أراضي، نادى على الياقوته دابت وصارت أُميَّه، جاب الريح وقعَّد عليها لُمِيَّه، سجد العرش فوق لُمِيَّه، وبعظمة ربي استوى عليه، حملة العرش ملايكه، السما محاوطه الأرض، الكرسي محاوط السبع سماوات والسبع أراضي، العرش محاوط الكرسي.
حفظت عنها كمن يدور على رأسه، وكلما أوشكت أن أسألها سؤالًا احتجب في قلبي، تفاجئني بكلمة تلهمني سؤالًا مغايرًا. تذللت بحيرة الأطفال، سألت:
- احكي لي حكاية الملايكه والشياطين ياستي.
بان عليها التعب، لكنها تماسكت في مواجهتي:
- ملايكة الجن خُزَّان الجنه أول من سكن الأرض لاجل يدبرو أمر الخلايق، فسدوها، وقتلو بعض والدم صار بحور، ربي بعت لهم ملايكة النور لاجل يخلصو الأرض من شرهم فقتلو منهم شويَّه، لكن إبليس ملاك النار، قتل منهم ياما ورماهم في جزاير البحور وعلى شواشي الجبال، ولما قتلهم إغتر بروحه
لأنه عمل اللي ما قدرتش تعمله ملايكة النور.
تجنبتها حين تذكرت قول زاد:
(الشر موجود بسبب تمرد ملاك في السماء تحول إلى شيطان) [٢٢]، ولم يفسر. وحين سألت عن المعنى نهيت عن العودة إليه، أو لمس هذا الكتاب في مكتبة بابا مرة أخرى. لم أخبرهم أن مصدري كان زادًا.

مسحت وجهها بكفيها وأكملت:
- قامت الحرب بين ملايكة النور والنار، أمر ربي ملك يجيب له طينة، نفخ فيها وخلق آدم وأمر الملايكه تسجد له، إبليس رفض فسخطه ربي شيطان.
ناولتها قدح الماء. بتردد تركت الوقت يمر:
- ليه مسجدش؟
- إبليس قال لربه أنا من نور وهو من طين واتعلمت قبل منه.
- واشمعنى آدم هو اللي عاش على الأرض؟. تنفسَت بعمق.
- إبليس دخل الجنة لأذية آدم وحوا، الخزَنة منعوه. راح للحيَّه وطلب منها تدَخَّله في حنكها دخَّلته، وعدت من الخزَنَة ، طلع إبليس من شدقها وقال لآدم: هندلك على شجرة إن كلت منها تبقى مَلِك الكون انت وحوا. إبليس قصد يزقهم على الشجرة ياكلو منها وينهَتَك سرهم، لأنه قرا في كتب الملايكة وعرف به؛ سرهم اللي هو الخرم اللي تحت السرة في جسم حوا، والحمامة اللي بين الوركين في جسم آدم، وهما الاتنين ماكانوش يعرفوه. انتابني خوف، تركتها تواصل.
- ربهم حرم عليهم الشجرة، لما كلو منها وقع لباسهم وانكشف سترهم، بان خرم حوا وحمامة آدم. ناداه ربه: يا آدم ليه أكلت.
- أطعمتني حوا. قال ربي لحوا ليه اطعمتيه؟
- أمرتني الحيه. قال سبحانه للحيه:
- ليه أمرتيها؟ قالت:
- أمرني إبليس. قال جل شأنه:
- ملعون إبليس. أما انت يا حوا فكما جرحتِ الشجرة تنجرحي كل طلة هلال تعيشي جاهلة، تحبلي مغصوبة وكل مرة تولدي تبقي بين الحيا والموت. وقال للحية اقطع رجليكِ وتجري عمرك كله على وشك، وكل من شافك يشج راسك بحجر. انزلو كلكو للأرض انتو عدا بعض.

وكأن الحية كانت مساعدة للرب دون أن تدري، وكان الرب قد فرض الحمل والولادة على حواء، والعمل الشاق على آدم![٢٣]

زفرت وأنهت بموجز أرعبني:

- ولولا عملة حوا لعاشت النسوان من غير دم كل شهر ولا حبلو وولدو غصبانية وهم بين الحيا والموت، وكانو فضلو بعقلهم، ولا كانو قالو على حوا حيَّه، وعاشت لهم ماعون.

كنت أجهل معنى كلمة ماعون في هذا السياق، واستقر الخوف في جوفي.

تخلصت من فكرة عذاب ينتظرني بوصفي أنثى ستحيض؛ فعطفت على الماء وسؤال تجاهلته:

- هي الجنيات تسكن الميَّه فعلًا ياستي؟ قالت:

- لُميَّه يسكنها شيخ دقنه طويلة جدًّا يطلع من بحر الشام كل سنه، يقعد مع الناس شويه يبارك عيشتهم ويرجع لُميَّه تاني؛ يسوق الموج بعصاه ويفضل فيه قيمة حول. أما الحوريات...

لم تقل إن كانت هي الجنيات. نظرت في عيني:

- الحوريات تشبه النسوان وشهم يلالي زي ضي القمر ونهودهم شبه صدور اليمام، فروجهم بتضوي، يتمتع بهم الصيادين ويرجعوهم البحر تاني، وفي ميعاد معلوم من عمر القمر، يوشوش الجبل الصيادين كلمة، تخلي روحهم ترفرف وينملا شَبَكهُم بالحوريات الموجودة في أُميِّتنا احنا بس.

في فمي أسئلة ترددت قبل أن أرميها في حجرها؛ مامعنى كلمتي نهود وفروج، ماذا يعني تمتع الصيادين بالحوريات. أحسست من تجاوزها لها أنها عيب لا يجوز لمثلي أن تسأل عنها. أحسست بالنار تخرج من وجنتي وأذني، لَمَحَت الخجل ينساب على جسدي تنبئ عنه أنفاسي المتلاحقة.

ألقيت أسئلتي كأنما أرمي حجارة ثقيلة. ضحكت لأول مرة منذ بدء الحوار، وضعت تمرتها فى فمها، وقرصت ثديي:

- نهد يعني بِز، حوريات بزازهم واقفه زي تينة الجميز قبل متنجرح.

- وإيه الفروج المنوَّره؟.

وضعت كفها على بطني وبسطتها بالطول، لمست سرتي بإبهامها وحركت خنصرها على فرجي:

- الخُرم داهـوه، أو علبة اللولي أو شق القمر زي المعدوله امك مبتقول، خرومهم زي النجوم منوره ليل نهار.

- طيب آخر حاجه ياستي ازاي الحوريات بيمتعوا الصيادين؟.

- إزاي!

صمتت ونظرت لي، ضربت على ظهر يدها كالدف:

- آ .. بيتجوزوهم يعني.

لمت طرف ثوبها وشربت الدبس بعد تمرتها الثالثة:

- لا. زي ما قلت لك دول وهبة ربي للصيادين.

- وبيمتعوهم ازاي يعني؟.

- يعني(...) ينكحوهم، أو على رأي امك؛ البلبل يدخل شق القمر ويصاصي، يحلب في الشق بعد ميجرحه وينقفل ولا كأنه دخله.

بعدما انتهت قلت لها جادة جدًّا:

- ليه ياستي بتقولي كلام عيب. هبشتني:

- دا مش عيب، ربي قال الكلمه دي والناس حورتها.

- طيب، وبعدين؟.

انتبهتُ إلى أن عندي الإجابة؛ فقلت:

- آ.. يعني الصيادين بتوعنا بلبلهم بيدخل شق قمر الحوريات؟

هبشتني من قميصي ثانية. ضحكت وخبطت على صدري:

- آ..ياختي حلال. ربنا بيبعت الحوريات لرجالته الطايعين.

حسب كلام ستي؛ الجنس لا يهدى للعصاة!
أغسل كلامها العايب بالماء مرة أخرى:
- آخر سؤال والنبي، لما الميَّه ياما ولها رب خلقها، ليه بيتعاركو عليها؟.
خلعت ثوبها الفوقاني، أشارت إلى صفيحة الوضوء، قالت:
- صبي لي.
صببت حتى أسبغت. فكرتها بسؤالي: لماذا يتعاركون على الماء. أشاحت بيدها كالقابض على الحقيقة:
- لُمَّيه بزياده لكن الخلق ناقصه، والناس المؤمنه شركا في كل اللي خلقه ربي؛ لُمَّيه والوقيد وكل مَينبِت من الأرض بأمره ومن غير مايكون لمخلوق فضل فيه.
وكأنها ترى الله دفعة واحدة، وتقرأ آياته كأنها تقرأ الكتاب دفعة واحدة.
تخيفني ستي كلما اقتربت منها، و كأنني أرتكب إثمًا إن ابتعدت عنها!
وكان لستي كل التبجيل، ذيلها طاهر يصلي عليه الرفاعية ومن يشبهون. وويل لمن يراجعها؛ خاصة لو كان ساذجًا كطفل أو جريئًا كعاقل..
صلت ستي ونامت، وكنت قد نسيت أن أسألها عن العشق. حمدت الله أني نسيت؛ فسوف أسمع عنه من زاد وسارة.

-١٧-

وقفتُ ببابها حائرة مترددة، تسمرت قدماي؛ وهي تهمس:
- حبيبي انت ظلمتني لكن انا مسامحاك. مظلمتنيش؟. وحياة شفيعك، ومريم الطاهرة ظلمتني، لو سمحت طيب خاطري، ياكريم مش هننضام وانا بين إيديك، ومتزعلش من عتابي.

رجعت بظهري إلى الوراء، تعثرت واستدعيت حكايتها لي بالأمس عن حية تغوي الرجال؛ حية أقسمت أن تأكل مئة عيل في اليوم؛ لأنها لاتريد أن يتحكم فيها رجل أو يحكم عليها. ربما تكون أمي تكلم عِفريت الحية في الحدوتة. غالبًا لا أخاف وهي معي، لكن ثمة شيء غير قلبي، انخرطَت في بكاء فبكيت لبكائها، وقفت مكاني لا أرجع ولا أتقدم. واصلت الهمس:
- وحياة حبيبك ظلمتني، وغلاوتي عندك خف عني يا حنيّن.

هممت بالصراخ، حطت يدها على فمي:
- هس. قلت بسذاجة:
- مين معاكي ياسارة؟.

وهي تزيد نور المسرجة:
- مين! رددت وراءها:
- مين؟.
- مفيش غيره.

- هو مين؟.
- اللي بتحبيه.
- طيب، ينفع أكلمه؟.
- ينفع طبعًا.
-هو مين بقى اللي كنت بتكلميه في الضلمه؟.
- ربنا.
- وهو بيسمعك ويشوفك في الضلمه؟.
- طبعًا.
- هو مين بقى بجد؟.
- ربنا.

ياالله، ربنا! العاشق الطيب، والمعشوق الجميل.

ليس في عزلتها عـاذل. واسـع؛ يقبل منها العتب فترضى؛ غـائر في الضياء لايحده زمن ولا يحيطه جمال.

قصصت عليها ما قالته ستي، وبالطبع كان فوضى. قالت:

- الليلة الجايه.

نمت في حضنها. في الليلة التالية قبل أن تحكي:

- قولي حكايه غير حدوتة ستي. قولي حاجة تشبهك.

لم تجذبني إلى صدرها؛ كما تفعل حين نتسامر؛ هذا شأنها حين تُفهمني. جعلت بيني وبينها مسافة تسمح لي بالتساؤل:

- ابن آدم دايمًا شاغل نفسه بالضلمه والنور، عايز يعرف جم ازاي، ومين جا قبل التاني. زمان كان اللي يعرف يجاوب يحكم كل الخلايق، وينظم الدنيا، والخلق بتصدقه لأنه بيحبهم.
- طيب فين الحكايه يا سارة؟. لم تمهلني:
- الكلام سمعته من الزاهد، وستنا ومن قلبي، إسمعي:

أول مَنْشَأ الدنيا كان فيضان غطى الأرض، أُميِّ ملوش شكل، لا هو

أرض ولا سما، منه انولدت الشمس من ذات نفسها، وطلّعِت من أُميِّ البحيرة أول تبه في الوجود انخلق من عليها كل شيء؛ الأرض والسما، الهوا والندى، والناس.
- بحر ضلمه يشبه بحر ستي، اسود غطيس ملوش نهاية؟.
- في الأول كان ضلمه زي العما. مكانش فيه غير بحر كبير، هو أم الكون اللي جا منها كل شيء، قبل الأم دي مكانش فيه غير السكات والضلمه، بان لُميِّ من الضلمه وطلع منه النور وعاشت فيه المخلوقات، البحر اتجوز ساحره تشبه الأسد، فات الوقت، فجأة طلعت وردة من لُميِّ.
- بنتهم اسمها وردة؟.
- ابنهم هو الوردة، لكن مخلفوهش.
- ازاي يبقى ابنهم؟.
- زمان دا كان بيحصل، لما الناس تحتاج شيء والساحره متقدرش تجيبه أو تعمله لهم، يظهر لهم الشيء دا منه لنفسه.
نظرت في عينيها متسائلة. أجابت:
- لأنه خالق الكون، صانع كل ما كان وهيكون، لُميِّ من غير سحر ولا جواز عطس فخلق الهوا والندى، وكان لما يتصور شيء في قلبه يظهر ويطلع للوجود، واللي ينخلق بكلمه منه يعيش لأبد الآبدين. واصلَت:
- الهوا اتجوز الندى خلفو الأرض والسما، ودول اتجوزو وجابو ابن آدم.
- الأرض ولد والسما بنت، إخوات يا سارة؟.
- آ. زمان لو الإخوات عاشو من غير جواز كانو ماتو وخلصو، ومكناش بقينا موجودين في الدنيا. الأرض والسما خلفو أربع عيال كل مرة اتنين، ولد وبنت، كل ولد يتجوز اخت التاني وبقت عيلة لُميِّ أول عيله في الوجود مسئولين عن
السما والضلمه، المكان والزمان، الهوا والخِفا (عالم الأموات).

- والدنيا اتملت ناس، ومخلوقات تانيه ازاي؟.
- لُميِّ كان لما ييجي في دماغه حاجه أو يحلم قلبه بفكره ينطق لسانه بكلمة تشبه الفكرة اللي حلم بيها، وتبقى هي اسم الحاجه، طير أو إنسان أو حيوان، منهم اللي طلع السما ومنهم اللي فضل في الأرض.
- طيب السما متعلقه ازاي كده؟.
- وقف الهوا وسند بإيديه الاتنين جسم السما الممدود فوقنا خيمة زرقا مالها أول ولا آخر، ومن ساعتها وهو راقد تحت رجلين السما. وهي دي الدنيا.
- مش فاهمه! انت قلتِ سما وأرض، هوا وندى، نور وضلمه، زمان ومكان وخِفا، احكي لي حدوته تانيه يمكن افهم.
- بشرط مَتقطعنيش وتصبري للآخر.
أشرت بيدي إلى فمي علامة الصمت.
- كان قرص الشمس شايلينه أربع عواميد كبار جدًّا، النيل يمشي في قلب الشمس يقسم الأرض نصين والناس عايشه حواليه. تحتهم عالم الأموات وفوق عالم العايشين. السما انحنت على حبيبها وسندت دراعينها عليه من الغرب ورجليها من الشرق، ابوها شافها لازقه في حبيبها لعنها ودعا عليها متخلفش, نفخ ما بينهم، فرقهم الهوا، فارقت السما الأرض، قال لهم مش هتقربو من بعض سنة بطولها. السما حزنت. لعبت مع الزمن لعبة السيجا بس بخمس طوبات مش تلاته، كسبت من الزمن خمس تيام غير السنة اللي حرم عليهم فيها الحب، ولدت فيهم من ورا ابوها خمس عيال، كل يوم عيل، ودول أول عيال جم الدنيا. لمحت الشغف بعيني كافأتني بالمزيد وبابتسامة:
- استمر النيل يمشي في السما كل يوم من ناحية الغرب لِلشرق، والشمس تعدي في قلبه من الصبح لحد آخر النهار وتعدي النجوم منه في الليل. تبلع السما الشمس في المسا وتولدها كل صبح. تشرَّق

الشمس وتغَرَّب كل يوم، تيجي الضلمه وينولد النور، يكبر القمر يوم ورا يوم ويجيب الحيض والمطر والفيضان، ويكبر الزرع والمخلوقات وتخضر الدنيا.

سحرتني أمي وكأني رأيت الجنة. نمت على صدرها ولمس رأسي ثديها؛ فتذكرت حوريات ستي ويمامهم. سألتها:

- والحوريات يا سارة؟.

وكأنها تسلت يديها من لقانة العجين (إناء فخاري كبير):

- كلنا حلال، صبيان وبنات، فينا اللي راحو البحر برضاهم وفينا اللي راحو غصب. والنسوان تحبل وتخلف وتحب عيالها وتِسْعَد بهم، ولولا دم كل شهر ماكان الخلق. مخلوقات ياما بينزل منها دم مش بس حوا، ومش شرط كل طلة قمر، المخلوقات بتحيض عشان تخلف وتكتر، وربنا بيحبهم كلهم.

تعلقت في رقبتها وقبلتها، أزاحت يدي برفق:

- انا داخله نصلي. سألتها بكسوف:

- انا لازم يجيني الحيض؟ وساعتها لا امد إيدي على الغله والخميره، ولا اشوف البقرة والناقة وقت الحليب والولادة، ولا ابارك للوالدة، واشيل النونو؟

رجعت بسرعة، ضمتني:

- طبعًا هييجي لك الحيض، مين قالك الكلام دا؟.

- ستي قالت الحيض نجاسه، والعيال تحت نخل الحاج حسن وهم بيلعبو عريس وعروسه قالو لي نفس الكلام.

- الليلة انت في حِضني. يارب بابا ينعس في قاعة أمه.

خفت أن يأتي بابا ويشتم رائحة الكلام؛ فبابا رجل. ماذا لو أتاني الحيض وتبقع ثوبي، من سيخبرني أنه حيض، وماذا لو كان جرح؟ ومن سيصدق لو كان كذلك؟ من لي وقتها ليدفع عني الأذى، من

يعرف (علبة اللولي وشق القمر) مثل سارة؟ من يعرف أن (علبة اللولي سليمة)، وأن (شق القمر) لايزال مغلقًا؟. ما هذا الخوف! فيم؟

تحتفي الطبيعة بدخولنا عالم البقاء، نحزن ونخاف.

وما بين كلمة الله الأولى والأخيرة يضيع الناس!

-١٨-

أنهيت ما بدأته من أسئلة غمضت علي بسؤال زاد. نمت بعد مصارحة سارة أني ذاهبة إليه في الصباح. فكرت أن أسأله عن الحيض. لن يكذب. هل أسأله فيما سألت فيه ستي وأمي أم أسأل أسئلة الجسد؟. كانت أسئلتي صغيرة؛ فتأتيني إجابات هائلة عن الدنيا والآخرة. هالني ما سمعته عن الله، خفت وبكيت لأنه لن يغفر لي، وسيعذبني، ويحرقني بالنار؛ لأنني أسأل كسائر المتسائلين. كنت كلما سألت بابا شيئًا غمض علي يقول (إلعبي في الطين واسكتي). لماذا لم ألعب في الطين، وأدعني من هذه الدنيا؛ لكنهم تسببوا في تلعثم وجداني، واضطرب عقلي بعد آخر فيضان قسم عزبتنا نصفين؛ نصفًا بعيدًا عن الماء وراء التبة يحيطها جبيلان؛ وقطعة واطئة بما قيمته تسع سلمات، ونصفًا آخر قدام التبة قريبًا من الماء. تغيروا كأنهم ليسوا أهلًا، صاروا أعداء، ظالمين ومظلومين.

خبطت على كفي كما يفعل الكبار، طل من كوة خلف لبلابة أزاح قلوبها الخضراء بينما يرتدي ثوبه، همس بحنان، زويدة!

لا أستجيب لنداء زويدة إلا في حالة أن تكون لديه الإجابات:

- زويدة يازاد.

- قولي، مبيجيبك ليَّ غير السؤال عارفك سَؤولة.

كدت أن أعطيه ظهري، لولا ضحكة أنارت المسافة بيننا:

- طيب، أنا بسأل عن الدنيا واللي فيها، هتعرَّفني ولا اروَّح.
- الدنيا! كلها؟ قولي لي مِن بدا ومِن ختم.
- ستي بدأت وسارة ختمت. يبتسم حين يسمع اسم أمي.
- بتحبيه يازويده؟.
- هو مين؟.
- ربنا.
رددت فورًا ودون تردد:
- بحبه وربنا، بحب ربنا يازاد، بحبه قوي.
وانطلقت كأنني في حصة المحفوظات: ربنا خلقك انت وسارة وزعرب والغراب، المبروكه والغلة والياسمينة، اليمام والهدهد، الدودة والتوتة، وبحرنا.
- هو جميل وروح بني آدم منه، وانت فيكِ منه.
- يعني إيه يازاد؟.
- يا خالق الأشياء في نفسه

أنت لما تخلقه جامع

تخلق ما لا ينتهي كونه

فيك فأنت الضيق الواسع[٢٤].

أغمض عينيه وصمت، ثم وكأنما يسحب خيطًا من السماء:
أنت معنى وما عداك مجرد اسم انت كنز والعالمون طلسم[٢٥].
توقف؛ فسال دمعه. تألمت حين رأيته يبكي:
- وحياة ربنا يازاد، الكلام شبهه حلو، لكنه مش إجابة سؤالي.
سرح ببصره، وعينه لم تزل بالدمع تلتمع تكشف ما بروحه:
- وحده الحقيقي الوجود بذاته صانع الموجودات. لما كان أبويا بيشتغل حارس جبانة، سمع عنه من مرشدين الآثار: إنه واحد ملوش تاني، خالق كل شيء، أبو البدايات، سره متدركوش المخلوقات، يلد ولم

يولد صنع نفسه بنفسه، لا يزيد ولا ينقص.

غمغمت بغضب وهممت بالرحيل، همس: زويدة!

راح قلبي بين ضلوعي ورجع. انتظرته:

- خايف متعرفيش فتحرمي روحك وخايف متفهميش تتعذبي.

- متخافش عليَّ، سارة هتطمني وترد لي قلبي لو انخلع.

لم أفهم منه حرفًا، لكني أصدقه. أسمع وأحفظ عنه علني يومًا أعي. لم أخبر أمي؛ فهي إن لم تعرف ما يعرفه قد تمنعني عنه:

- انت تبع مين يازاد؛ ستي ولَّا سارة؟.

- أنا أصفي الوقت من العكاره، أصفي قلبي عن عيوب النفس، عشان اعرف واشوف واهرب منها للوجود.

رددت بضجر وانفلات روح:

- متعرفش مين اللي عمل الدنيا دي؟ متعرفش؟ يعني كل الكتب اللي في دماغك دي مفيهاش إجابات؟.

بهدوء وبصوت عميق كأنه يأتي من خلف الأفق الأرجواني لحظة التقائه بالأخضر:

- نعرفه، ويمكن في يوم تعرفيه.

حين يريد أن يصرفني عن شيء يعيد رأسه إلى خلف. ينظر في عيني بطرف عين المحب؛ وهي كل قلبه، يغير الموضوع:

- أحكي لك حكاية يازويده.

تنفست باحتراق وتعلقت بفمه:

- هي حكاية قديمة جدًّا. كانت الشمس تمشي في الفضا جوا مركب يعدي بها في السما. الصبح يكون اسمه مركب الشمس، وفي المسا يكون اسمه مركب الليل. تدخل مركب الشمس مملكة الليل اللي بتنقسم لاتناشر مكان؛ كل واحد منهم له اسم ويفصله عن التاني بوابة عليها حارس، الأماكن دي هي ساعات الضلمه. قريب من المركب

فيه حارسات تحمي الشمس من أعداء الليل، كل حارسة منهم تعرف كلمة السر، من غيرها لا يمكن يسمحو للمركب تمر. كل يوم التعبان يمنعها تعدى، وفي كل مرة تغلبه الحارسات. الشمس لما تدخل مملكة الليل تموت، يقابلها الخنفس الطاير يوهب لها الروح، وهكذا كل يوم. في الليل الخنفس يزق الشمس تنزل تحت لعالم الأموات، ويستنى فوق الأرض لاجل يحييها لما تتلم روحهم في جسم واحد، ولما يرد لها الروح تمشي ناحية الشرق، وهو دا الغروب والشروق، الليل والنهار.

صَمَت وتلاحقت أنفاسي. ينفتح كياني. منذ حرق حروف زويدة على نخلتي وأنا أرغب في ضمه وتقبيله. هل هذا هو الحب الذي لا ينفع أن نناديه؛ على رأي سارة؟ سألته:

- ازاي الناس فضلو عايشين مع إن حاجات كتير تخليهم يموتو، وازاي السما والأرض، ومين اللي عايش فوق، مين اللي بيشغل الدنيا دي؟.

أدخل رأسه في عبه كمن ينظر إلى روحه. نظر في عيني:

- كانت الدنيا حلوة؛ الحكام والأرباب والناس عايشين سوا، كانت السما والأرض لسه مفترقوش. فات وقت الناس كترو وأخلاقهم اتغيرت وعملو دوشه زعلت خالقهم رب الأرباب، اللي سأل إيه اللي بيحصل من الخلق، بيظلمو ويسجنو، والأخ بيقتل اخوه، واستصغرو كل اللي خلقته عشانهم، قرر ينتقم منهم. إستشار باقي الآلهة قالو له: إنت الكبير، إعمل اللي انت عايزه. بعت بنته توقف المتآمرين عليه عند حدهم لاجل يعرف يرتاح، لكنها قررت تقضي على أهلها، ربهم رأف بهم، بعت رسُله جابو كمية من الطفلة اللي بيجيبها الفيضان، أمرهم يحضرو سبعة آلاف إبريق من الخمرة، خلطها بالطفلة فبقت شبه العسل وبلون الدم، في الليل الغميق غَرَّق الغيطان بها ولما الصبح هَل، راحت بنته تتخلص من أهلها. دخلت في بحر العسل اللي بيلمع زي المراية، شافت نفسها عجبتها روحها واغترت، شربت وعقلها راح

ومقدرتش تقتل. ربهم كان غضبان عليهم من كتر خطاياهم في حقه، لكنه مطلعش السما قبل ما يتطمن عليهم. ربهم كلم نفسه وقال: (كنت وحدي في قلب لُميَّه أم الكون، ومكانش فيه مكان أقف فيه ولا أقعد، مكنتش لسه أسست مدينتي ولا عرشي ولا خلقت السما: مكان الآلهة والأرباب اللي كان لساه حلم، كنت طاير من غير حركة كأني ساكن في العدم). شوفي باقى الحكاية:

- ربهم ساب الأرض وركب ضهر المباركة وطلع فوق، زَيِّن الفضا بالشمس والنجوم والقمر، وفصل النيل السماوي (المطر) وسره عن الأرض وجعله فوق عقابًا لهم، قصد عرشه واستقر فيه، وكان اللي عايز يرضيه يطلع له.

تنفس بهدوء. المحتاج يروح له يازويده؛ رب الوجود...

أخبرني أن حكايته هذه تكملة حكاية سارة لكن من قلبه هو!

في حكاية ستي ما نسيت أن أسأل سارة عنه؛ السوأة التي كانت سببًا في نفي آدم من عدن. قال زاد:

- حسب كلام ستك، لما انخلق آدم من الطين كان جسمه كاسيه شعر زي النخلة. يمشي في الجنة فاتح رجليه والنور بيلالي من بينهم. مكانش شايف البلبل اللي بين فخاده. ولما اتعلم الأسامي مكنش يعرف اسم حكاية دخول البلبل شق القمر. ولما مد إيديه للشجرة انطفا نوره فشاف بُلبُله. خاف وجري؛ كأنه خايف من نفسه، خاف من البلبل، وراح يداريه بورق الشجر. طبعا ستك بتقول إنه خباه بعد فوات الأوان فانطرد من الفردوس، من الحضرة الإلهية وانتفى للدنيا. يازويدة، اللي بين فخاد ابن آدم وتحت سرة بنت حوا نور مش ضلمه وأجمل مافي الوجود، أجمل ما فى الإنسان هو وعقله!

نظر في عيني، ولم يزد. استكفيت في هذه الساعة من الكلام الشاق الذي استوعبت منه قليلًا. أصدق زادًا رغم أنه يتركني معلقة بين

الشغف وعدمه كمن يستقطب. راحت روحي إليه.
استمهلني بينما ينظر إلى قلبي بعينيه:
- اطلعي فوق، إلمسي قلبك في الليل، ووشك يم الغيطان، غمضي عينك وروحي حد السما ولُميَّه، اسمعي صوت الوجود؛ حف الريح بين الشجر، رفة جناح عصفور، هسهسة الليل، صوت الزهرة بتفتح لِمَس الندى قلبها، خشخشة الورق الناشف، حمحمة فرس عطشان، لهفة قوس رباب سهران، كهكهة البردان، تخبيط البراني في الحواصل الفاضيه، صوت الهوا جوا المطور الخاليه، الناقة تفرح بوليدها، والمكروب يئن في ضناه، دقة قلبك ونفَسِك وهم بيتعرفوا على المخلوقات، اسمعي هويد الليل هتبرق روحك وتطير، في الليل اسمعي هتعرفي. صمتٌ ونظرة من قلب شواف:
وهتعرفي العِشق.
وقع قلبي بين ضلوعي وارتعش. همست:
العشق. همس:
العشق يازويدة!
تبسم وحط يسراه على عينه يشير بيمينه يفتح لي الطريق.
- وَصلني يازاد.
صاحبني ولم يتردد، لم يقل أخاف أهلك أو الناس.
مشينا، أمسك بأصابعي، هفت روحي وما شلت عيني عنه، ينظر لي بشوق وحنان. شافتنا سارة وتبَسمت.
في الصباح، غسلت أمي ثوبي وثوبها وطلبت مني أن أنشرهما على سطح الدار. شافني، أهل علي من بين العشب؛ سنابل الكافور وشجرة التوت التي ينتصف ظلها سطحي دارينا. نظرت في عينيه، ربت على خدي وأمسك بيدي، لمس شفتي بشفتيه. جريت على السلم. قابلتني:
- إيه، مالِك؟. حكيت لها.

ضحكت، ومالت:

- مِسكِت ودعه نفخِت فيها جريت منها، خبت عينها وجَتْ تلقفها حبيبها خطفها، كان عصفور بيحب السمسم، جوا القمح ساب صوصوته، طِلعِت تنشُر لقط السمسم، جَتْ تنْدَه له، خد مَشْبَكها على منقاره وجوا شَبَكها ساب أغنية. بس.

- بس إيه؟ هو إيه دا ياسارة؟.

- العشق.

- العشق!

- آ..هو بعينه.

زاد، المعشوق العارف واسع الروح، يضيءجسدي فينفتح. لا يتركني أعدو خلف الليل، يشبكني في خيوط النور ويطلقني في حقول الدهشة.

-١٩-

أخبرني زاد بقصته مع البلوغ. احتلم وهو في السادسة عشرة من عمره وقت صلاة الفجر. لم يذهب للجامع، وقف في الشونة من كوتها الشرقية ينتظر. مر الفوج الأول والثاني ولم تظهر من ينتظرها. عيل صبره، ظهر الفوج الثالث، تأمل ولم يجد مبتغاه. خلع ثوبه وعلقه على شجرة الجميز، غطس في النهر واغتسل، ثم ارتداه على جلده وصر اللباس في القميص. في طريق عودته رأى الجامع بعيدًا كولادة الساعات الأولى للخليقة. وضع الصرَّةَ تحت رأسه ونام. مرت أمه على مرقده. ربتت على رأسه، رأت ذكره منتصبًا. رددت من القرآن الكريم آية من سورة الفلق: ﴿ **من شر غاسق اذا وقب** ﴾.

صحا من نومه والشمس تنقر وجهه، كلما سقط منها شعاع من رازونة قاعته القريبة من السماء. قرأ: نشأت إلهة الحب على محارة، وكان حبيبها يأكل المحار كل صباح ليشتد أيره. اشتم الحقول ومنديلها فانتصب، تذكر خوفه من عذاب الآخرة، ناوشته شهوة الإيمان. هز رأسه: متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارًا.

اختلطت عليه طبيعته؛ فساءل نفسه: فينك يابن برد(*).

(*) بشار بن برد بن يرجوخ؛ ولد في البصرة ضريرًا أواخر القرن الأول الهجري؛ لأب وأم مملوكين لبني عقيل، بينما يعود نسبه إلى عائلة حاكمة من الفرس. اختلف في عقيدته واتهم بالكفر والزندقة. توفي في القرن الثاني الهجري حين بلغ التسعين من عمره، بعدما جلده المهدي بالسوط لاتهامه بالزندقة.

أنا والله أشتهي سحر عينيك   وأخشى مصارع العشاق

أعجبته فكرة أنه في تلك السن يعشق.

قال: ﴿ **زُيِّن للناس حب الشهوات** ﴾[٢٦].

حدث أباه الذي لم ينجبه؛ كما يسمعه خالطًا الفصحى بالعامية:

- رأيتها وأنا خارج من النهر، ولما شافتني عريانًا وقع منديلها وهربت تتعثر في كسوفها، زعقو عليها البنات: (من هنا يا مسرة). عايز نتجوز مسرة.

- هي في الاحداشر ويمكن لسه ما حاضتش.

طيب وفيها إيه لما تحيض في حضني.

- ومن قال انها لابد وأن تحيض.

- كل النسوان تحيض.

- مش دايمًا.

- بترفض شوقي لها!

- شوية وقت.

- انت قلت: قفل باب المطعم يمنع السرقة، وقفل باب المنكح يسهل الزنا.

- مش من حقك فضّ الختم إلا بحقه. وحقه الموافقة والإشهار.

- هو انا قلت نسرقها، نخطفها أو نهينها؟ انا عايز نتجوزها.

- مش جايز أبوها يرفض زواجها قبل ما تتم تعليمها (وكأن التعليم فقط هو العائق وليس انتسابي لعائلة كبيرة من الرفاعية)، وبعدين أنا مش عارف هتقعد ولا تسافر.

- تسافر فين؟.

- هم في زيارة، عايشين في البندر.

- مسرَّة لي.

في الصباح؛ انتظرها. لم تمر مع باقي الفتيات في طريقهن إلى النهر. في هذا اليوم؛ زينت مسرة شعرها بالأشرطة. ارتدت تنورة بلون السماء

وقميصًا كالحليب؛ نهدت حلمتاها من جيوبه كحبتي عنب في بكوره، لمست أمها وجنتيها بيديها توردتا، ربتت على ظهرها: لا تتأخري.

في طريق الشونة تذكرت أفراحي. راودتني أحلام السنابل ورائحة الحقول. سرت أكتشف النهر والجميزة، تراءى لي وقد خلع ثوبه وعلقه على فرعها. رآني، أتاني عائمًا من خلف شجرة الصفصاف؛ وقد حمل ثوبه فوق رأسه بيد، وبالأخرى يزيح أفرعًا غاطسة تحول دون وصوله البر. وهو يغادر الماء وضع جلبابه على جسده؛ فانزلق مع بضع قطرات منه، وانتصب واقفًا أمامي؛ وقد التصق ثوبه ببدنه، أَنعظَ، فبدا ذَكَرُه واضحًا. لمحت في جسده اهتياجًا. كان وعاؤه فارغًا وامتلأ. وصف لي مشاعره في تلك اللحظة، لم يكن يمكنه تجاهل جسده وقد انتصبت شجرته؛ فبدأ في التقاط التفاصيل، لم يكن معنيًّا فقط بتلبية شوقه إلي؛ لكنه كان مولعًا بوجودي؛ الثمرة والعش والورقة. لم يلمسني وتماسك إكرامًا للمحبة ولسارة. كانت المسافة بيننا واسعة. تقوقع وجلس يرتعش، سمعت صوت أسنانه. همس كمن يحلم:

- زويده!

سرى صوته كرائحة الكافور؛ لطيفًا منعشًا؛ فانتشى جسدي، احتميت بصوت أمي: (خللي بالك من نفسك).

عاود الهمس: زويدة!

ما زلت لا أعرفه، ولم أغفر له خروجه عاريًا من النهر. ناداني: زويدة! ازدادت المسافة اتساعًا؛ فقد انفرطت دقات قلبي على صدى صوته داخلي، وملأت ما بيننا: اسمي زاد.

اهتز جسدي. أوشكت أن أسأله: كيف يكون اسمك طعامًا وشرابًا؟ لكنني أمسكت؛ وانا أتحرق ليعرفني معنى اسم زويدة الذي راقني وقعه دون أن أعيه. اقترب وترك بجوار تنورتي بعضًا من خيوط اللبلاب؛ سوارًا، قرطًا وخاتمًا، ورقة كتب فيها كلامًا عن الحب؛ ما

زلت أحفظه. في موسم التلاقي؛ يطل العرجون على السنبلة؛ يبتهج الملكوت ويزهر. يقف على حافة القصيد يفتح القلب ويطل رقراقًا، يتلاقح بغيمة حبلى بالشغف.

في اليوم التالي حلمت به. كان يمسك بيده صولجانًا يشبه المنقوش في كتب المدرسة، ويرتدي نقبة طويلة لها ذيل ثور. الأخضر يعم السماء والأزرق يسير على الأرض. تروح الكائنات وتجيء في اتجاهين خلاف بعضهما. الغراب يتسلق سلمًا يفضي إلى الجميزة، بينما يجمع فرس النهر التين من الشجرة في سلة. سارة على حافة النهر تغمر ثوبي في الماء على غير عادتها، وعلى مقربة يغسلون حنطة عروس. خلع زاد نقبته وذيل الثور؛ في ثوبه الأبيض الفضفاض يرتديه على جلده كعادته قبل طلوع الشمس؛ باسمًا ويده على قلبه؛ ينقل بصره بيني وبين سارة. لم يلمسني ولم يوجه لي كلامًا. قبل رأس سارة، وترك رأسه تنام على جيدها؛ ينظر لي بعينه. هتفتُ به؛ فلم يطلع صوتي. تردد صوتي بداخلي: أنا زويدة يازاد، لن أغصبك تقول مسرة؛ مع أن سارة تحب اسمي.

ابتسمَت وأومأت له، وضعَت يده على قلبي ووضعت يدها فوقها. قلت وصوتي يرتج في أعماقي: حبة قمح محبوسة ما بين السما والأرض، نِدا المشتاق يفتح بيبان العشق، ويندي المسافة ما بين الغِمد والسنبلة.

لا أعرف من أين أتيت بهذه الجملة الكبيرة، ولا كيف نطقت حروفها بطلاقة دون جفجفة؛ وكأن أحدًا حفظني إياها قبل النوم؛ أنا التي لم تذاكر درس السنبلة والمراودة من قبل. وحتى اليوم كلما تذكرت هذا الحلم أجن. لمست سارة قلبي، قبلتنا، تركت الماء وتركتنا. صحوت وأنا عازمة على الذهاب إليه، رجوتها أن تدعني أذهب:

- انتو مسافرين النهارده.

بكيت وأعدت الرجاء:

- باقي تلات شهور على الأجازة الكبيرة، عايزه اشوفه يا أمي.

جلست في ركن قاعتها رأسها بين يديها. تبكي حين تعجز.

رميت رأسي في حجرها وبكيت. مالت برأسها وتركتها على رأسي؛ كما فعل زاد معها في المنام. انتفض جسدي ولم يهدأ. تجسد لي زاد على قمة الحلم؛ على سلم باب النهار، هزتني:

- فوقي يامسرة ، فوقي.

- زاد مِستَني ياسارة، بصي فوق هتشوفيه.

فزعت واقفة؛ وهي لا تدري ماذا تفعل. أشارت له أن ينصرف؛ فقفز على سطح دارهم. قالت:

- شويه وتردي، متخليش الوقت يسرقك وإلا قتلونا انا وانت.

مسحت وجهي في ثوبها، مسدت شعري بكفيها، قرصت وجنتيَّ برفق، ودفعتني بخفة خارج القاعة.

-٢٠-

حزنت لاختفاء خالي المؤقت ونحيب سارة وخوفها عليه. خيره الرفاعية بين الامتثال والطاعة أو الموت؛ فأرسلته أمي إلي أقارب ستي أمينة في البحيرة، عرفوا بمخبئه، هجموا عليه، وحملوه عنوة إلي بيتنا في المدينة. صار البكاء صديقي حتى وأنا ألهو. جاء زاد، قذف أرجوحتي في الهواء؛ أرجوحتي التي صنعتها لي أمي من سلَبة (حبل) مررتها فوق جذع شجرة وربطت طرفيها في لوح خشبي لأجلس عليه. أبكي. التقفني زاد على قلبه ولمس شفتي بفمه، أجلسني ثانية. هف بثوبه حولي، ابتسم لي وذهب. رآه بابا:

- وكمان في حنكها يا شر... انت وهي!

صرخ زاد:

- العشق مش خطيه ولا القبَل، لما سألوا ابن حنبل[٢٧] عن الضم والتقبيل هل فيه من بأس؟ قال إذا جلَّ العَزاء فواجبٌ؛ لأنك قد أحييت عبدًا من الناس.

تفل بابا في وجهينا، لطم وجهي، وزج بزاد في مسقى أمام الدار، وأجل الحساب. كنت في الرابعة عشرة.

في عطلة نصف العام؛ جلبني إلى أمي. كانت الزوادة جاهزة: أقماع السكر، زجاجات الشربات، أخذها وعاد إلى المدينة ليرتب لعقد قران أخته من خالي. ردًّا على الظلم؛ زوجتني أمي من زاد في المساء. لم يكن

زواجًا طي الكتمان؛ فقد شهده خمسة أشخاص: أمي والزاهد، خالي الكبير والحاج حسن، أحد الأجرية بحقل جدي خلف ليصب لنا الشاي.

بعد أسبوع عاد بابا وعلم بزواجنا؛ فقد أشيع نبأ الزواج وانتشر. علمت به العزبة صغيرها وكبيرها. لكَم وجه أمي حتى غامت عيناها، هشم ساقها بعرق خشب، وفضح ثلاثة من زوجوني من دون ولي. مُنع الشيخ الزاهد من اعتلاء المنبر، مُنع من لبس العمامة أو شاله الأبيض أو أية ملحفة، يمشي حاسر الرأس في وجود أبي وأعمامي؛ فباع الملح؛ يذهب إلى المركز يملأ جوالاً منه؛ لافحًا إياه يضعه على ظهر حماره، يسير ساعة حتى يصل القرية، يتنقل بحماره وخرجين على ظهره؛ امتلأ أحدهما بالترمس والآخر بالملح. عاش في جلباب وحيد من طول مالازم جسده صار كجلده. أما الأجري؛ فقد شُبِح إلى جوار زاد على نخلة قريبة؛ وقد افتدى روحه بتعهده بترك العزبة إلى الأبد؛ هو وسائر عائلته. حُرق قطن خالي في بالاته قبل تسويقه، سُبت بناته وشج رأس ابنه الكبير، وتُرك ينازع الموت. لم يوجه اللوم للحاج حسن. وقف حارسان من الرفاعية على بابي دارنا. حُبِست أنا في مخزن التبن حتى تنتهي روحي. خمسة عشر يومًا أتنفس الظلم وغبار الدريس؛ يستبد بي العطش فأبكي. سارة في جبيرتها لا ترى أمامها مقيدة في قاعتها لا تسقط عنها عين ستي؛ تتشفى فينا. مرحاض صغير بجوار المخزن تحرسه ستي حتى أقضي حاجتي؛ أفضي دمعي وأتخفف من الهوان؛ نتبادله أنا وسارة التي تقع كلما خطت. أراها من الشباك السلك لقاعة الدريس؛ أبكي حتى يغلبني النوم وأنا أتطلع منه.

هرب زاد واقتحم حاصل دارنا أفرغه من الخزين وأخرج البراني والزلع؛ لينقلها الأولاد إلى سرب النسوان. رآهم بابا وهو خارج من صلاة الفجر. أمسك بهم الخفر دون مقاومة تذكر لأنهم كانوا حريصين على

الغنيمة؛ فلم يتركوها ويركضوا. حبسوا في مخزن القطن؛ فأحرق زاد شونة طارق الرفاعي كبير الواطية وزوج بنت حليمة ليشعل الصراع بين الرفاعية. رأوا طيفًا يذهب باتجاه النخلة. أمسكوا به، وحبسوه فى مربض الإبل؛ فكه الغراب، وأطلقا سراح الأولاد، والإبل وساقوها جميعهم باتجاه النهر تتناحر فيما بينها وتركب رقاب بعضها البعض؛ حتى أغرق بعضها بعضًا. لماذا لم يركض عكس اتجاه النخلة؛ هل هو الخوف من الحرية أم الاستسلام للأسر. ربما رأى في قيده فرصة لفعل مالم يستطعه حرًّا.

لحق به عمي وبابا ضرباه وشبحاه؛ ثم سافرا. هرب ثانية، أفرغ والأولاد تليس الطحين على أرض الحاصل، سكبوا زلعتي العسل فوقه، أفرغوا براني الجبن واللحم ودعكوه فى العسل والدقيق. هربوا دون أن ينتبه لهم أحد. عيروا أمي بي وسبونا أنا وهي وزادًا. هددوها بحبسي لا تراني طيلة عمرها، وكذلك إخوتي البنين. خيروها بين ذلك أو سلخ لحمي بالفرقلة في الجرن لحرق قلبها هي وزاد عقابًا لي لتسببي في فضيحتهم وخسارة خزينهم. بكت وانكبت جاثية تقبل أقدامهم؛ ليلة طويلة تتوسل ولم يرق لها قلب. عند الفجر ملأت ستي صفيحة الوضوء وبعين حدأة وجهت كلامها لأمي:

- خلاص، خلصينا انت وربيها. صرخت أمي:

- سيبوها لي، نكويها بالنار، بس سيبونا، نحب على رجليكم.

بكت سارة، وكنت أهذي وجسدي ينتفض. قالت ستي:

- البابور والع أهوه، سخني إبرة البابور لغاية متحمر واكويها.

صمتت أمي. نظرتُ في وجهها الشاحب كالموتى.

نظرت إلي وأخذتني في صدرها. وجهت كلامها لأبي:

- يرضيك تحرق بنتك؟

نظر إلي ستي وعمي ولم ينطق:

- طلقني!

وضعت ستي صفيحة الوضوء جانبًا:

- طلاق؟ فاكره ابوكي يستجري يوافق؟ طلقة في قلبك منك للمخفية بنتك. قلتِ إيه؟ تكويها ولا تنخفي عنك بقية عمرك، يقعدوها من المدرسة يجوزوها، يشغلوها.. أبوها وعمامها وهم حرين يعملوا فيها ما بدا لهم. وبعدين مالك ملهوفة عليها كدا، ييجي إيه الكي في الطهارة، سيدنا إبراهيم اتختن وهو عنده تسعة وتسعين، وستنا سارة كانت تسعين!

تقدمت نحو أمي في ثبات وحضور لا مثيل لهما؛ في موقف الكبرياء معًا. احتضنت ثوبها. قلت وأنا أكلل المشهد بالهدوء:

- أنا موافقة يا أمي، لسعه تفوت ولا حد يموت، إكويني بالنار.

وهي ترتعش، وضعت إبرة الوابور تسخن. همت بالاقتراب مني فابتعدت عنها بخجل وهي تبكي، كلما اقتربت مني ابتعدت عنها؛ فيزيد بكاؤها.

صرخت فينا ستي زاجرة.

اقتربت أمي مني وهي تنتحب؛ حائرة أين تضع إبرة الوابور؛ أي عضو في جسدي ستسمه بالنار.

اختلفوا:

- على وراكها الاتنين.

- على دراعينها من فوق زي التختين.

- على ضهر إيدها.

- على حلمة ودنها.

لم ينطق بابا، بينما أنا وسارة نبكي.

قالت ستي:

- حد منكو يناولها لي كتفو إيديها الاتنين ورا ضهرها وهاتوها لي. وانت يامعدله سخني الإبرة تاني. صرخَت سارة:

- ياجبارة ربنا ينتقم منكم، إلهي ما تفرحو ولا تربحو.

وضعوني أمام ستي؛ ظهري لها وعينا أمي لي. عرتني وأمسكت بطرف ثوبي في يديها. اقتربت أمي تنتفض، وسمتني بإبرة الوابور على فخذي، وضغطت ستي على الإبرة بطرف ثوبي في كل مرة.

سحبت سارة الإبرة، وهمت أن تكويها بها؛ فقذفها عمي بحذائه.

توضأت، وذهبوا هم لصلاة الفجر.

حملتني، ولا أعرف من منا كانت تحمل الأخرى. أغلقت قاعتها علينا بالمفتاح والترباس.

في الصباح همستُ؛ وهي تساعدني في ارتداء ملابسي:

- تعالي نمشي من هنا يا سارة.

عانقتني وقبلتني حتى بلل الدمع طوقينا:

قولي لخالك يشتري لك نول. حطي همك فيه وفي المذاكرة؛ بإيدك يقل حزنك. خليكي عاشقه ترعى غياب حبيبها، تشوفه في اللون؛ في النول، تضفره حكايات جوا السَّدا واللِحمه، العاشقه خيط وشجرة، وان كان الرجل رحيل، وغيابه صوت الخيل وسفر المراكب، استنيه وقصري المسافة بينكم بافتكاره. وهنعمل لك وصفة تمحي الدق (الكي) من على وراكك.

استمرت في الكلام الحنون لا تنتظر استجابة. كان الفراق جرحًا، والسفر سجنًا. فارقتهما. لم يصرف حنيني عنهما نول ولا استذكار. أخبرني خالي أنهم هددوا زادًا بخطفي من أمي وتزويجي من طارق زيدان الرفاعي ذاته وليس أحد أبنائه، هددوه بدفن أمه المسنة حية، خصي أبيه، وقطع رجليه ليبول جالسًا كما النساء؛ فوقف كالمشبوح على

النخلة مستسلمًا، أرغموه على طلاقي، أنطقوه كلمة طالق للمرة الأولى.

مر عام كنت فيه حبيسة الحرمانين؛ سارة وزاد. جننت في الأسر بالحنين والغربة. عشت بالحلم، وكأني أحمل قاتلي على عنقي وأمضي، أعبر مانعًا تلو آخر.

غاضت البهجة وأفلتت من العمر الغض حلقة.

-٢١-

عدت إلى أمي بعد عام من شبح زاد وطلاقي منه، وحبسي خمسة عشر يومًا في مخزن الدريس، ثم الكي بالنار؛ قبل أن أبدل ثياب وحزن عام من الفراق. وضعني أبي في يد أمي. دون كلمة سافر. نظرت في عينيها، فلمحت دمعًا، سحبتها من يدها ودخلنا قاعتها، سألتها:

- زاد ياسارة؟.

بكت ولم تزد. سألتها أن أذهب إليه؛ فلم ترفض.

- زمانه بيتمنى تشربو شاي سوا.

عبأت القوالح في شاشها الأسود وبعضًا من العيش الساخن:

- إن سألك عابر قولي رايحه لستي أمينة.

خبأت القوالح فوق خُنِّ البط المثقوب، مأواه الذي يبيت فيه؛ يبيض ويرقد على بيضه حتى يفرّخ. لففت الوابور الساكت في شاشها. ذهبت إليه في الشونة. ما أن رآني، قال بتردد وحذر:

- أبوكِ وستك أمروهم شبحوني، ولما خدوا بالهم إن دا موسم التدكير(تلقيح النخل) خافوا الطالع يفكني، ربطوني في الجميزة وعينوا لي غفير، هددو اللي هيناولني لقمة ولا شربة أُميه هيشبحوه جاري. زادي رغيف يجيبه لي الغراب ابن زعرب من الباتعة، خطفوا الغراب وحبسوه، الولاد فكوه.

أحطت رقبته بكفيَّ؛ احتضنته. نبضه يرفع يدي ويهبط بها يهدهدني. التقت عيوننا، اهتزت شجرة وجري الماء. غشيتني رجفة؛ في عناق لم يتم. سحبنا جسدينا، همست على قلبه بشوق: عام مر كنتَ في وريدي زهرة لا تحتاج نورًا ولا سقيا.

التقاني بحضن ووجدان لايعرف الفراق. تدفق: ضميني على قلبك. ارتجفت؛ فقبلني في زاوية فمي. باح بحلم الشاعر:

لما غبتِ عني زرعتك جوا روحي واستنيت الندى.

بسط كفيه حول جيدي كالآلهة، وددت لو جاريته، قاطعني: حلمت بكِ توت وتين وورد، ياطلة عينيكِ وِرد يازويدة.

اقتربت وتركت جسدي يستدفئ بنبضه ورأسي ينقر قلبه كعصفور. روحك هي بيتي، عباياتي، لونك القمحي، لمسة منك تفك قيدي، ندهتك حرية يا زويدة.

يتهدج صوته، أردت له أن يهدأ ويتنفس قلت: تشرب شاي؟.

احتضنت الوابور قبله. حاول أن يخلصه مني، تمسكت به:

- كفايه لعب سيبي.
- لا. عايزه ألعب، عشنا مع بعض أسبوع واحد ساعتين في اليوم مع بعض والباقي في دارنا خايفه ستي تاخد بالها.

نفس عميق ودمع حار يأبى.

- خلاص يازويدة أبوكي طلقنا.
- طلقنا طلقنا أنا لك والعزبة عارفه انه طلاق غصب وجبر.
- من حقه لأنه الولي.
- سمعت الحاج حسن بيقول في مذهب من الأربعة الخال ولي.
- في مذهب ابوكِ لا ولاية للخال.
- نتجوز تاني.
- خلينا نسمع رأي الحاج حسن يخرجنا من ورطة الرفاعية.

كان علي قريبًا؛ فأرسله زاد ينادي أمي وخالي. جاء حسن:
- البنت أحق بنفسها من وليها، يعني من حقها تقول رأيها، لها في نفسها حق، كما لوليها حق، لكن حقها مقدم على حق وليها،
بالفُم المليان من حقه، فلو أراد أن يزوجها كفوًا وامتنعت، لا تجبر، ولو رغبت تتزوج كفوًا فامتنع الولي اللي هو ابوها يُجبر، فإن صمم على الرفض يزوجهما القاضي، ودا تأكيد على حقها في تزويج نفسها. دي الفتوى اللي حافظها زي كفي ومتأكد منها زي منا متأكد ان عيالي اللي من صلبي مجوش، دا قولي وقصاده رقبتي والحق حبيب الله.
كنت خائفة وكذلك زاد، خالي وسارة. قبلتني:
- جَوزهم تاني ياحاج. دُهشنا، خاصة خالي وهو ينظر إلى رجلها المكسورة.
نظرت في وجهي وابتسمت:
- ماحيلتيش غيرها، ولو فيها موتي هنديها للي رايداه.
أصر حسن أننا زوجان لم يقع بينهما طلاق. وضع زاد كفه في كف الحاج، قرأ علينا النص ثانية وأجبنا، قرأنا الفاتحة وآمنا. كتمت سارة زغرودة.

رأيته مهزومًا، بعدما اشتم مرارة لحظة بذلت نبضي لتجاوزها. ذهبوا. احتضنت الوابور، يحاول أن يخلصه مني ونشتعل كلما حاول أحدنا الاستحواذ عليه، يلمسني أقبله، ألمسه يضمني، في ليلة تشبه أول العطر بين آدم وحواء. كلما اقترب مني ركضت نحو النهر، وضعت قدمي في الماء، ووضعت الوابور على حافة الجسر. ملأت كفي عطرًا وأينع الزهر في عينه. اختلينا، غسلت حنطتي في نهره واشتبكنا فأندى طحيني. يخطف الوابور مني فأتسلق جسده؛ يهتز بشموخ كشجرة سرو. ليلة كنت فيها غيمة مفرطة الامتلاء بالعشق. لم تولد أسطورتنا فجأة؛ فقد ظلت تجوب الليل وتستقر على جسدينا وكان الشوق

حضنًا، والوابور يشعلنا. حلق بي: يالفتِة ندى يا نوارة القمح يا روح الورد يا سما يطُل منها الوجود.

وشوشت عنقه: تقدر تعد كم غزال ينتفض حالًا على سهول الكِتف يازاد ، وكم عصفور ينقر القلب! التقفني بين ذراعيه.

على نور الوابور قرأنا قصة زرياب [٢٨]، غنى فذبت. أضع أصبعي على تفاحته؛ لتنتقل الرنات عبر ذراعي إلى قلبي؛ أردد خلفه بعين مغمضة: النسيم والموسيقا وروحانا؛ وقفت على حافة النهر أمد يدي بالخبز أنثره في الفضاء؛ يمسك بخصري يميل بي نحو الماء يدغدغ جبهتي رذاذه فأنتشي. أسندنا ظهرينا لنخلته، واستدعينا زويدة نخلتي. عن قريب نخلط التمرين نخلتي بنخلتك ونعمل فرح؛ همس فوق قلبي.

في موسم التلاقي أطل العرجون على السنبلة فأزهر الكون، فهمت. فرش ثوبه وقميصه، مدد جسدي يتأملني كزارع يرعى حبة تنفلق، ثم تنقسم ويخرج منها الأخضر يجدل عليه الأغاني. قربت وجهه وسرت بسبابتي على ملامحه، أخذت نصيبي من عينيه، بكي. همست بين شفتيه:

☩ شِمَالُهُ تَحْتَ رَأْسِي

وَيَمِينُهُ تعَانِقنِي☩[٢٩]

☩ حَبِيبِي مَدَّ يَدَهُ مِنَ الْكوَّةِ

فأَنَّتْ عليه أَحْشَائِي☩

☩ حَبِيبِي لِي وَأَنَا لَهُ ☩[٣٠].

يتسكع القمر في عليائه، يتلألأ نوره على جسدي، يرفرف اليمام فوق نهدي. توقظ نشوتي العصافير تزدحم ورودي بأغنيات الحقول؛ بطقس الماء أول الحياة. تنتصب الأشجار في عين الوجود كأعمدة السقف، تتنزه بمبالاة جذورها في الأعلى وأغصانها تحتضن الأرض: تطعمها حليبها وتكتشف القمح كأجمل عطايا السماء.

كان جسدنا مكان حضور اثنين محبين. شف فرأى كل منهما الآخر وهو يجتازه ويدخله. هيأتنا اللحظة لتجاوز تفاصيل محيطنا فسبحنا. في سعينا كلينا للآخر؛ كنا نتهجى أجمل خيرات الوجود؛ نشوة حققت ذاتينا فرُفِعنا إلى الفردوس. قضى زاد ليلة في عالمي؛ فركع بين ثيابنا الملقاة على الأرض وصلى؛ وأنا مازلت أحلم. لذة ترفعني للسماء ولا تعيدني إلى الأرض. كان لقاؤنا نزعة إلى البقاء. يتابعني بعينيه والوجود. كل لحظة تولدت بين جلدي وأمواج الحب نشوة. ارتقى بنا العشق مداراته المزهرة؛ بدونه كان لقاؤنا كالموت والظلام. يرى خلف دموعي سر الحياة المختبئ. بانفصال جسدينا نضيع كمن غادر قبل أن يستقر. لحظات انفصالنا على أعتاب الحديقة كالثمار الساقطة في فضاء العزلة. سعينا للجمال. كان صعبًا علينا كلينا التخلي عن فكرة أن الله يسكن فينا تلك اللحظة. ينظر زاد إلى قلبي، وأنظر في عينيه والسماء زرقاء والعشب أخضر. تمنينا أن يكون كل منا في الآخر؛ نجمة وكلمة فريدة. أوغل الجذر في الوردة، ارتجفت الشجرة، سقط الياقوت على حواف الندى فانتشينا. احتضنني، باح على صدري:

- اللي حصل بينا، يخضر الأراضي البور ويحيي الهالك.

سحبني لأعلى ورأسي على قلبه يفتنه. تذكرت لوم سارة لي لحظة أن بان اشتهائي للطعام. وضعت يدي على قلبه:

- كل دا حب، زودناها؟. لثم كفي وأراحها على صدره.

- الزائد أخو الناقص؛ يعني في الحب لا عد ولا ميزان، ومن طلب الزيادة وقع في النقصان.

أخذتني عيناه:

- انت وسارة كلامكم يشبه بعضه، تعرف انها قالت لي: المحبة ميل لا هي بالشبر ولا بالكيل، والمعشقة عفة.

أخذ كفي بين يديه وروحي بينهما:

- العفيف يروح لمحبوبه بكيانه كله، من غير ما يشوف شريكه شيء أو وِقيعه أو صيده أو فاكهة تتاكل، يشوف معشوقه حر وكريم مش شيء يقضي حاجه، الولهان المحصن ماليه الحب، مش ناقصه، يروح للمغرم به بشوق ومحبة بصفا وهيبه.
- قالوا العفة حرمان من الحب؟.
- العفة تِرعى الغرام، لو العفة كبت يخرب معناها ومعناه، ومعنى الجواز نفسه. الحي الحقيقي يرفض مس الجسد من غير عشق. العَقد مش ضمان للطهارة اللي لخبطوها مع العفه ومش هيقيد الميل ولا يمنعه، الناس متقدرش تصون شهوتها إلا بالهيام وإنسانيته. الكبت نقص، انك تسألي عن العفة ومعناها وتغضبي لو خالف المعنى قلبك، اعتراضك على اللي يخالف طبيعتك هو الحياة. السؤال والاعتراض يساعدو النفس تغلب الشهوة في النور. والعفيف يعرف حريته لما يتعَشَّق في حبيبه مش في الرغبه العامْيَه.

مشينا على حافة النهر؛ والقمر بالكاد غادر المحاق يحيط خصري، رأسي على جسده كمسك الليل. في تلك الليلة ملأتني رائحة الليمون والكافور والسمك يلتمع في الظلام. كان جسد زاد مسكنًا سيارًا. في الليل - وعلى صوت النبتات تولد؛ والعناق الأبدي بين المخلوقات- سرنا؛ لا نتحدث كيلا ننبه الضباع، وزاد بين حين وآخر يشعل النار في غصن جاف ويسير به مسافة، ثم يفركه تحت قدمه، حين نكون في مأمن من الضواري. لو سمع عواءها يشعل عودًا آخر يحمله بيد، ويحيطني بالحرة. نتكئ على العشب نغمر السنابل فى الماء. في الطريق؛ لم يلمني على خجلي في البداية، لكنه حدثني عن علي والباتعة؛ أقرب زوجين لروحه:
- الفجر نعِس أنا وعلي في سكك العزبة نتسامر ونفتكر يوم البلوغ وبلنا وكسوفنا لما وقف بلبل كل واحد فينا، علي حط إيده بين رجليه يخبي

اللي ميتخباش. انحنيت بسرعة نلهي أمي، نحب على إيدها وفضلت متني لغاية ما اديتها ضهري ورحت الجامع. الطبيعة متكسفش لكنهم بيخافوا منها. وبأسى:

- قالو الباتعه بنت غجر وأي واحد يلاعبها تديه روحها، الباتعة عفيفة، لا يمكن يمسها غير حبيبها، زي امها، اللي تقلع هدومها كلها ساعة النوم، وتكِن في حضن جوزها كما خلقها ربنا، حتى لما بقى عنين وراضية بُه.

استدعيت لحظاتنا معًا، خجلت من خلع ثوبي؛ فلم يبادر بخلع ثوبه إكرامًا لي؛ حتى استجابت روحي وتأهب جسدي.

الليل دامس؛ فلم ير وجنتي وقد التهبتا. عانقته، وقبلني فامتلأ التوت، يربت كفي بين كفيه وينفخ فيهما، ثم يلمس بهما قلبه.

ينحت طريقه لروحي، ينير شموسي، يصقل الأشياء فتولد من جديد، يعلقها كأحجية على فروع الدهشة، ومضى.

وهكذا هي أفعال الطبيعة؛ سريعة الحضور سريعة الغياب! كان هذا آخر لقاء لنا كزوجين؛ فقد علموا بزواجنا الثاني. لطم أبي وجه الزاهد ورمى حماره بملحه وترمسه في النهر، حل عنوق أم زاد، ضفائرها المستعارة التي تطيل بها شعرها الخفيف القصير وتجمعه. عراها، أشعل النار في دارهم. شبح زاد على نخلة تطل على الجرن، يحرسه طارق الرفاعي وبعض رجاله، جاء الأطفال في أقدام الأمهات يبكون، جلدوه حتى سالت دماؤه، هزت سارة رأسها باكية مشجعة له على الفراق. وقفت في الشباك الغربي لشونته أطل برأسي وأخفيها، أبكي وأمزق وجهي مع كل ضربة فرقلة تنزل على جسده. خرجت إلى الجرن أركض نحوه؛ أريهم روحي المعلقة به. جذبتني أمي لأبتعد؛ فأبيت، صرخت باسمه على مسمع ومرأى منهم جميعًا، يسمعهم يسبونني يرد لهم السباب معصوب العينين. يزيدون في طغيانهم، ويزداد عجزي

وتتفجر تعاستي. هددوه بشبحي إلى جواره وجلدي بالفرقلة. للمرة الثانية ينطقونه كلمة طالق. قالها كمن يبصق. اسمعوها ولن تريحكم لأنها لا تعني لنا شيئًا. صرخت حقًّا يازاد؟ وهل نوهب الحياة مرتين؟.

جروني حتى البيت؛ يمرغون روحي في التراب. لم يحملوني، لم يأمرهم أبي بحملي كما حملوا المبروكة. رقدت سارة في جبيرتها وحزنها. أغلق الورم عينيها؛ فعجزنا عن الوداع، سافرت.

-٢٢-

سـارة! وحيـدة أنـا كـريح تائهـة في يـوم مـوحـش؛ بـعيـدة عـن صخب أنفاسك، وهديل روحك؛ المتماسكة كالماء؛ معطاءة كجُمَّارة؛ يسري العـشق في جـذورك، يفيض عليك بهاء وجـلالًا؛ الشـاهـقة بعيـدًا عن القبح والحمقى. تحمدينه كونه وهبك أربعة من الطلع وكربلة واحدة. نخلة. تشيرين لي ولإخوتي بأنوثة الشجر وذكورته؛ فنحِن لوجودك.

في ليلة أحسست حركة غير عـادية في بيتنا؛ فالوقت ليس عطلة منتصف العـام الـدراسي أو نهايته، ولـم يمر سـوى بضعة شهـور من عام العقاب الثاني للزواج الثاني، وأبي لا يصيح فينا ولا يتعجلنا؛ بل يفيض دمعه وينساب نظرات حانية نحونا. ارتبكت مشاعري نحوه. اهتز قلبي بعنف، دخلت المرحاض أكثر من مرة؛ لأول مرة لم ينطق أحد بحرف ونحن نستعد للسفر، لم يزجرونا دون سبب كما تعودوا. كنت أرتجف؛ أحسست ببرودة ووحشة تملأني. ما الذي تبدل، وقد أقسم أنني لـن أرى سـارة ولا تـراب سكة دارنـا قبل سنتين، ولسوف أنسى زادًا شئت أم أبيت، ولسوف يقتله لو لزم الأمر؛ وإن ساعدتني سارة سوف يرميها لأبويها وقد يقتلها. استدعيت حال سارة آخر مرة؛ وهي تتألم. تذكرت حديثًا هامسًا بين أبي وستي وإشارات لم أفهمها في حينها، يتردد الحوار داخلي لا يتوقف:

- هي هتفضل تزرب لنا، لازم تخليها تاخده، مصيبه لتجيب لك بنت تانيه، يابني عقربتين على الحيط ولا بنتين في البيت!

- انا رايحه دارنا عشان ترتاحو انتو الاتنين.

- وماله، وقبل ما تروحي برضه هتاخديه.

لمحت في يدي ستي شريطي دواء حباتهما صغيرة؛ تومئ لأبي أن يعطيهما لسارة ولو عنوة.

احتبس صوتي، شربت الماء، جريت على المرحاض ثانية.

لحقت بي عمتي تمسك برأسي وأنا أتقيأ، دفعتها بعيدًا.

ناداني خالي؛ وقد أقام معنا بعد زواجه من عمتي، سحبني من يدي وأغلق علينا الحجرة بالمفتاح؛ يؤهلني بدمعه لاستقبال مرض سارة العضال؛ وربما فراقها. بكى: كنت في زيارتها، لقيتها راقدة في فراشها منذ أن ضربها أبوكِ لأنها زوجتك من زاد ثانية، رجلها لم تجبر من الكسر بعد، ضعفت وأصابها المرض. تسربت الحروف بمشقة ما بين شهيقه ودمعه.

لم تستدع لها طبيبًا؛ مات الجنين في أحشائها. خشيت أن يعرف الطبيب بإرغامها على تعاطي حبوب منع الحمل وهي حبلى. كانت ستي تذيب الحبوب المطحونة في المشروب، وتخدعها عمتي الكبرى لتشربه، كما أخبر عم رزق سيدي خلف وأخوالي، بعدما رآها ورمى من يدها كوبًا أوهمته أنه للكتاكيت، لكنها أخطأت وجاءت به لسارة. لا يريدون لها أن تنجب ثانية، يخشون أن تنجب لهم مسرة أخرى. مرت ثلاثة أيام ناولتها ستي وعمتي فيها شريطين من حبوب منع الحمل. استدعى سيدي خلف طبيبًا بعد أن هدد ستي بإفشاء فعلتها!

قال الطبيب: أصابها تسمم.

أشاعت ستي:

الظالمة الكافرة أوقعت جنينها بعود برسيم[٣١]. كالآثمات، هيِئوا لها النعش.

-٢٣-

الجنازة حاشدة؛ اصطف الحزن من باب دارنا وحتى الجبانة، وزحَم المُعزونَ المَمرَّ بين الحقول الخضر. كانت سارة نخلة القرية وعطاياها، وهْبَتها ونورها الذي يتمرغ في طلة باذخة الجمال. فراقها نار؛ رجال يجهشون بالبكاء؛ رتل من سيارات المعزين يتقاطر بينه سيارة وحيدة للجيش. وجوه لكل الأعمار تروح وتجيء في زخم لم يعتده الشباب والشيوخ ولا قريتنا؛ أطفال زاد، أبناء ونساء ورجال السرب؛ الرفاعية والأحباش، ستنا؛ لاجئو الجبانة. كل من أمرتني أن أناديه خالي أو عمي بكوا لعمرهم كله. ما أن رأى أبي جيرانها من النساء والفتيات يتجمعن في السواد على بابي الليل والنهار؛ يصرخن ويلطمن؛ يبكينها بحرقة كآخر أبنائهن، ذهب إلى المرحاض حاملًا بيده حُقًّا به سم الفأر. هرول أعمامي وعماتي خلفه. كان قد أقامه على فمه ودخل جوفه بعض منه. قالت أمه: (الحي ابقى من الميت ياوله).

سقوه ماء بملح فلم يتقيأ. في صدفة كبيرة صنع له عم رزق ترياقًا؛ أمسك بعود من عِرق الذهب يحكه في قاع المحارة، يقلب به خليطًا من اللبن والبيض المخفوق؛ أسقطه في جوفه عنوة؛ بعد أن أمسك شقيقه بشدقيه، واصل التقيؤ حتى أغشي عليه. ارتمت عمتي الكبرى التي ساعدت ستي- وسقت سارة الحبوب- في روبة أمام الدار، صبغت

وجهها بالنيلة؛ تندب وتنوح؛ تلطم وتدق الأرض بكعبيها: (ياخراب بيتك ياخويا).

للبكاء طعم المرارة الصافية؛ الوحدة وارتعاش الروح.

ماتت أمي. سافرت سارة؛ لأول مرة هي التي تذهب وتتركني. فقدت أصابعي لمسة الهدهد وهديل القمرية، وانقطع تعلق الروح بالبدن. كنت تائهة بين نواح النساء وعويل الرجال وصراخ الأطفال. علا صوت القرآن كإشارة إلى الموت. انسل رتل السيارات واحدة تلو أخرى، وجوه الرجال شموس مظلمة تصطف متجاورة بنظام، انطلق صوت محبيها مشروخًا بالألم؛ موجوعًا بالفراق؛ مهزومًا بالفقد؛ في رتابة تهز قلبي: (لا إله إلا الله وما دايم غير الله).

كميل طبيعي وأصيل[٣٢] لأهل قريتنا- كأسلافهم- غنوا في جنازة أمي، همهم البعض اعتراضًا، ردعهم أحبتها حرصًا على جمال مشهدها.

كأني كنت أسابق السنين قبل أن تنضب، ولم ألحق بها. بات الدمع قنديل ليل المنقطع؛ قطعني الموت من أمي.

-٢٤-

بدل موت سارة مصير مسرة؛ فصارت مفردًا؛ كالتائه في صحراء؛ يقطعونه عمن يرغب فيه، ويصلونه بمن يعثر عليه. بهتت الحياة وتلون الوجود بألوان مغايرة لما عهدته بوجودها.

عاد خالد؛ أصغر أبناء الرفاعي؛ أكبر أبناء حليمة من زيارة جدته في فيلتها بالقاهرة، وكنا لم نزل نعيش في بيت أسرتي.

صادفت ليلة أوبته سقوط القمر من النافذة وتقاسمنا ليلة صيفية ندية. حملني ودار بي؛ أتعلق بأنفاسه وكفيه؛ أدس رقبتي بين جيده وكتفه ليكف؛ فهو توًّا عائد من سفر. أراحني من علٍ، نظر في عيني فغمر الشوق روحي. وضع إصبعيه خلف أذني يدغدغ ما تبقى مني. تخفف من ملابسه وبقي في سرواله فقط، جسده يغري بلحظة حميمية لكنه بارد. وضع رأسه على الوسادة قريبًا من وجهي، أفلتت مني زفرة تلقاها بعنقه وغمر وجهه في شعري ونام. أصابه الدفء بالعطش فطلب ماء أخذ رشفة وانتبه لكونه في حضني يرقد كطفل. نظر في عيني مستغربًا، همست: ماذا!

ابتسم برقة وخبث، احتضن كفي ولمس شفتي بأنامله، لمستهم بشفتي ووضعتهم إلى جواره. تنفس بالقرب من جيدي ونقر كتفي بأصبعيه:

- انتِ امرأة رائعة. أيقظيني الساعة الرابعة.

سهرتُ بجواره كمن يحرص على ألا يُفوت السحور دون شربة ماء. وكنت قد آنست بضوء القمر في انتظار صحوته. رحت وجئت بين الشرفة وحجرة البنات؛ أُطل من النافذة كمن يطوفُ مودعًا. الهواء رطب يلفه السكون وحفيف أوراق الشجر. تبحث يده عن جسدي الغائب وقد فقد دفئه بالانتظار. استويت جالسة أراقب صدره يعلو ويهبط كعاشق مجهَد. يتقلب؛ فيلمحني ساهرة. يبتسم ويواصل النوم. لم يتسلق تلك الباذخة بالشوق، لم يند العشب، ولم يُسمع في الظلمة صهيل، ولا صوت المطر والناي. لا لهيب ولا جنة؛ كنت كالوعد العصي عن الوفاء؛ أن أكون امرأته الوحيدة.

وقفت أمام المرآة لأول مرة عارية كما ولدتني أمي. أتأمل جسدي بكافة تفاصيله؛ لأعرف لماذا تطاردني عيون الرجال أينما ذهبت. لماذا الآن أبحث عن سبب؟ اقتربت من المرآة. رأيت جسدًا لا يشبه جسد الإغريقيات المكتنزات لروبنز(٣٣)؛ فما الذي يشد الآخرين إليه. أفتش فيه عما عساه يثيرهم؛ ظهر مكتنز ببذخ، نهدين فائضين فلا أجد؛ فلماذا ينظرون إلى جسدي. أنا إذ أمشي لا يتأود جانباي، ولا يكاد خصري ينخزل، لا يشبه ردفاي الموج ولا كثبان الرمل، وجسدي لا يقرب لعشتار(٣٤)؛ ليس لينًا يترجرج كالدهون، كلما مِلت كنساء الصابئة؛ فما الذي يجعل الرجال يحدقون في؟. لست من النحيفات تطيح بهن هبة ريح خفيفة كنساء شاجال(٣٥). لا أفتن إذا أقبلت ولا أقتل إذا أدبرت؛ فلماذا يفتش فيه الآخرون؟ ماهذا الجسد وماذا يشبه؟. أدور حول جسدي، هل يشبه جسد مصرية قديمة قدته الشمس والنهر فأنبتاه كالحنطة؛ هل يجعلهم هذا يرون جسدي بفيض شهوة؟. ربما.

أَنْعَظْتُ وابتلّ سروالي، أوقفت رغبتي فيه بنقاش داخلي وعقلت نهمًا أعمى؛ تذكرت أنه ذات مساء رسم لي شاربًا على إحدى صوري؛ فكتبت تحتها جملة صغتها فور أن رأيتها: طبعًا! فالأنثى صاحبة العقل؛ كرجل يصبغ وجهه ويلون شفتيه، ولا يتذكر رجولته إلا في محافل النساء.

كتب اسمي ودوَّنَ بجواره أنني قليلة الجاذبية، وكتب اسم عشيقته (أما أنتِ؛ اللطف والليُونَة؛ ضحوكة باسمة ترقصين وتسمعين الموسيقا بصخب). يعود إلى سيرتي؛ فيصفني بالميتة. بوفرة أحب الحياة هادئة وأقدس الأبناء.

لماذا يراها جميلة؟ تناوله قهوته والسيجارة في فمها وتقبله، كما تقبل الكهربائي حين يأتي ليصلح المصباح؟ لأنها تقبل الرجال وتستقبلهم بسراويل قصيرة وقمصان تلتصق بجسدها؛ فيراها منطلقة؟ قصيرة قليلة القد؟. جسدانا متقاربان؛ فما هو الشيء الذي يصنع الفارق؟ ربما القامة؛ فهم يعشقون القصيرات ليحكموا عليهن قبضة المتعة؛ ربما لأن أمها أوصته بها خيرًا وهي تجلس أمام غرفتهم؛ تهش عنهما أحفادها ليهنآ. انتبهت إلى أنني أطارد نفسي بالأسئلة الغبية؛ لا أدري لماذا تذكرت وأنا أقف أمام المرآة أن أمي قالت- ولم أكن أعرف ما العلاقة أو الصلة حتى وقت قريب- المرأة السمينة كرائحة الضأن والنحيفة كرائحة السمك، وخيرتني مبكرًا بين الرائحتين؛ فاخترت السمك. اليوم قد أفهم؛ ربما لأن الضأن مرتبط في ذاكرتي برائحة التيس، وربما لأنها في الفراش ساخنة تنخر وتئن مثلهم؛ بينما لا أفعل، وربما لأنها كما أسمعني- ذات ليلة- بيتًا وحيدًا يحفظه للفرزدق[٣٦]؛

وقد اندهشت ليلة بطولها وهو يخرج لي لسانه:
(وَلثمتها فتَنَفستْ كَتنفُّسِ الظبْيِ البَهيرِ).

بحثت في تاج العروس عن (بَهير) وجدت معناه الذي انقطع نفسه. أقسمت أنني لن أفعل، لن يرى ميلي أبدًا. هل كان يقصدها وهو يحتويني؟. جسدكِ في الحر لطيف؛ ليس ساخنًا يطرد الماء سريعًا، لكنك في الشتاء! ينظر في عيني ويصمت. بابتسامة مائلة: ما أن تلمسني حتى تسري في شمس الضحى! قضيت عمري معه دقائق في الفراش لم أكمل يومًا؛ سنوات حرب أسفرت عن شهور قليلة من السلام. أيقنت أنه يعشقها؛ فتغيرت. كلما تحسس جسدي ليمسك باللذة أتسلل خارجة منه؛ لا ينفتح جسدي وروحي للجنس إلا بالمحبة. هل يعرف؟.

غادرت مرآتي وفراشي بعد الرابعة، فسقط الهوى. القمر أنيس، الشجرة وصوت قمرية تهدل، غراب ينعب، كروان وبلبل ربما فرَّ من محمية أو من حبس. شجرة طيبة تستقبل زوارها؛ حرة وهاربة وأسيرة على فروعها؛ كأنها ابتهالات متنوعة على أخضرها للسماء. استويت واقفة، أبيت أن أوقظه. للحظات استسلمت لرزاز الماء يتسلل ويغمرني، أغمضت عيني واستدعيت النور وعطري. كان اللحن ناعمًا؛ خفضت الصوت ليتناغم مع رائحتي. على موسيقا زوربا استرخيت، رددت مع كازانتزاكيس: يا بني؛ إن الإله الرحيم- كما ترى- لا تستطيع طبقات السماء السبع وطبقات الأرض السبع أن تسعه، لكن قلب الإنسان يسعه! إذن؛ احذر- يا بني- من أن تجرح ذات يوم قلب إنسان. استسلم جسدي للحظة مائية غامضة. غُصت بكاملي في حوض الاستحمام، أسندت رأسي على حافته بمنشفة فغفوت. استنفد الطقس المائي والموسيقا الوقت من الرابعة حتى أهل الصبح. استسلمت لنوم متقطع، سمعت همساته في التلفون يستكمل ليلته مع ظل، فكثير من المعروفين بفحولتهم محبون للاستمناء. كمن لا

يعنيه الأمر؛ وضعت الوسادة على رأسي؛ أفصل بين سحر الغموض وجنونه. تمردت بقوة مكافئة تمامًا لقمعه لي وقد خذلني.

جاء معتذرًا يربت على خدي. أبعدته كامرأة لا تحترق بضياء رجل يراها فراشة تتفتت وما أن يلمسها تُبعَث وترتوي. فتحت لي بابًا للرزق، ولولا حبي لعيالي ما عدت إلى هنا.

أغلقت حجرتي دونه وكنت أغذي المصباح لأحبط خططه الليلية. بضع عبارات متفرقات كاستهلال تركتها بجوار وسادته وتمنيت أن يقرأها ويدرك ما فيها. خلطت العطور وهذا في العشق خطيئة؛ أنت حديقة تحلق في الضباب فيدخلها الغرباء. الانتباه الرصين جنبني الاعتياد والتراخي الذي يطلق عنان نزواته، لكنها كانت أقوى من كل محاولاتي. انتظرته في ليلة مقمرة؛ على المائدة شوكته، ملعقته وسكينه و كوبه، مفرش مطرز وفوط السفرة الأنيقة، وردة واحدة في زهرية رشيقة تطل على أربعة مقاعد، فيروز ومقطوعة شجن مصرية قديمة، نافذة تعلق بها الياسمين والريحان، قطيطة لها ساعة تنتظر أصابها الضجر، قفزت داخل طبق الحساء الوحيد فلمع البرق في سقف الغرفة، الهواء شظايا تشرب بقايا روح علقت بنصل سكين، عينان تتلهفان؛ تسترقان السمع لوقع أقدام تصعد، تفاحتان تدحرجتا؛ واحدة تلو أخرى. سقطت الحروف كأنفاس تلهث خلف نافذتي. أمد ذراعي ألتقط الوقت.

لم يقرأ؟ ربما، وربما لم يفهم.

بلهجة قاطعة: لستُ جاريتك. وعيناه تلتمعان: فليكن الفراق موثقًا إذن. لم أجادله؛ فقط أعطيته ظهري. أفكار غريبة غزت رأسي؛ كأنه يهين عقلي، كرامتي، ويستصغر وجودي. يكرس لعجزي؛ الاستسلام لنزواته، ويمتدح انتظاري له كأني شيئ.

ليست الغيرة ملاذي! لا أترك حبيبًا بسبب نزوة، بل لأنه ببساطة لم يعد لي حبيبًا، فالثقوب في صدري تستعصي على الرتق. لا أنظر خلفي. لا أجتر طعامي في مرعى تحرسه الضباع، بينما صغاري تنتظر الفطور كل صباح.

حدثت نفسي لأول مرة برضًا يشبه اكتمال اليأس: عصفور على الكتف، لم يلتقط الحَب من نقرة تعلو الترقوة، لم يشرب ولم يعد!

لا بأس. فى الخريف تَسقُط السعوف القديمة ليرتقي الخصب؛ ففي آباطها الوليدة براعم جديدة.

-٢٥-

كيف تحتمل رئتان هشتان كل هذا الضجيج! جاء آخر حمل لي في ذكر، وانتويت أن أسميه زادًا. كان الألم أسفل ظهري يشبه دق الإزميل في سن الجبل. النقود قليلة، فالاستقطاعات من مرتبي ضخمة لتغيبي أثناء أوجاع الحمل. ندرة المال لم تدع لي مجالًا للاختيار؛ فقط مستشفى التأمين الصحي على أطراف المدينة فيها الستائر وسخة والمناضد عش للنمل. لا أصرخ ككل العابرات إلى غرفة الولادة. ترك الأرض والمسكن بطيوره في عهدة جيراننا، راح لجدته حليمة في فيلتها. وحيدة تشعر بالسعادة؛ فبعد قليل سوف أكون اثنين يؤنسان غرفتي. كلما باغتتني خبطة أسفل ظهري يزداد يقيني أنني لا محالة سأنجب ذكرًا؛ بالغ القوة معافًى ومكتملًا. حقيبة الملابس ليس بها شيء يذكر؛ فلم يتبق سوى مبلغ صغير يشتري رداء وحيدًا لوليدي. أنفقت مرتبي في زيارة الطبيب للمتابعة في الشهر الأخير. شكرت الله أن حملي مر على خير؛ فلم أحتج لمتابعة طويلة. ضاع المرتب في تجهيزات ما بعد الولادة؛ كرتونة بيض وأجرة الشقة وفرخة مجمدة في الثلاجة؛ تكاليف الولادة من مطهرات ومضادات حيوية وقطن وشاش، أجرة التاكسي، طعام لأبنائي ومصروفاتهم، ديون بائع السجائر وأنا لا أدخن. لا أحب الصراخ ولا أكتم البكاء في وحدتي. لم أناد أحدًا ولم تباشرني ممرضة أو طبيب لأكثر من ثلاث ساعات. كان هذا يوم سعدي؛ فقد امتلأت

الأسرة بحوامل في آلام المخاض. ضحكت حتى شرقت؛ تنسال دموعي رغمًا عني؛ أضحك من بطونهن المدلاة وأيديهن أسفلها؛ كأنهن يحملن جرارًا - يسندنها خشية أن تنكسر- كقرابين على وشك بذلها للآلهة. سريري مجاور لأم تعاني الآلام؛ لا تتوقف عن السباب الفاحش:

- ياولاد الكلب مش بكيفي، حماتي بنت الو.. عايزه واد.

تتلوى في السرير. تواصل الدعاء على حماتها:

- يارب ييجي برص شبهك ياحماتي، يا دكتور ياخ..، أمه بعد كل بت تنخسه:

- هي هتجيب لك الواد امتى ياعين امك؟ يارب خد بنت الو...

تسكت. تنظر حولها تتأكد أننا جميعًا ننتظر الحكاية:

- امه الـل..ة بتقول لـه: ياخايب شد حيلك، مش لازم تبسطها، خش فيها طوالي وارمي بذرتك قبل متسيل نارها وتقتل الدكوره وميتبقاش في ماعونها غير البنات، الرجل المِتِع ميبسطش المَرَه وهو جواها، لازم يِجوَّعها دايمًا، يا شر.... ياحماتي جوعتيني وما شفت برضه غير البنات.

يعلو الضحك؛ فيزداد سبابها تعقبه بصراخ. مع السباب الأخير؛ انفجر كيس الماء؛ فأغرقني وتشقق أسفل بطني وانفتح. انقبض الرحم فشقت الرأس طريقها ووقَفَت. شعرت بشيء ثقيل يقبض على مثانتي ورغبت في التبول. استمرت في سبابها. لم يعد بي مكان للضحك؛ فقد ملأني البكاء. سريري في المدخل. دخل الطبيب رفع الملاءة وثوبي. تغير وجهه، قال: ولا نفس.

صرخ الطبيب الترولِلي بسرعة. رفعوني مرابعة من ثوبي، ثم سلتوني منه وألبسوني قميصًا مفتوح الظهر لونه أخضر بائس؛ له رائحة الصابون المختلط بالديتول، لامس ظهري مشمع الترولِلي. لم أبسط جسدي؛ فقد شعرت بالقرف. صلبوا رجلي من عند الكعبين، أدخلوا كلًّا منها في خيَّة دخل بينهما الطبيب، وقفت الممرضة على اليسار.

جأرت بالألم واستنهضت أنفاسي. نفختُ مرتين، وعقب الثالثة انزلق ما يشبه سمكة سخية. ولد!

طلبت الممرضة إكرامية؛ فنهرها الطبيب. عصبَت عيني. لم يأت خلاصك بعد. أبعدت الغُمى لئلا يبدلوا ولدي. رأيت الطبيب يلف شاشًا على ساعده حتى المرفق؛ أدخله في جسدي كخطاف لسحب الحبل. الألم فوق احتمالي؛ فسقفي ساقط وجدراني تتهدم؛ أحشائي مجروحة وداخلي مهترئ وأصرخ طلباً للرحمة. قالت الممرضة: أشهد أن لا إله إلا الله.

نطق الطبيب بالحمد، وتهللت من حولي وجوه انتزعني بِشْرها من الموت. كان ذكرًا كما أخبروني. نسيت أن أسألهم هل هو معافى. وحيدة كنت، وليس لدي إكراميات. تركوا وليدي دون ملابس؛ فقط ملاءة سرير وبطانية تشاركنا فيها؛ ملمسها برد طوبة. أعطوني مخدرًا وتركوني. حين استفقت قليلًا، لمسته فوجدته باردًا. برمت قميص الولادة المفتوح من خلف على جسدي؛ سرت في الممر البارد الطويل؛ أحمله ملفوفًا في البطانية؛ أرتعش وأتخبط في الأبواب؛ فتنفتح ويصرخ المستيقظون بالألم، لا أحد التفت إلي. لم يغادرني المخدر. أتخبط في الحوائط كبندول بين جنبات الساعة، أصرخ ليجيرني أحدهم: إنجدوني، إبني بيموت: معدومي الضمير سابوه عريان.

اختنقت بالبكاء: ألأني لم أدفع إكرامية تتركونه عريانًا؟.

صرخت ولا مغيث. كنت أرغب في التبول؛ ولا أحد في الممر يسندني. حرت كيف أدخل الحمام بوليدي والبطانية ووجع يخترق جسدي. بُلت واقفة رغمًا عني؛ فابتل قميصي وسال الملح على جرحي. عدت للعنبر مرة أخرى. جلست على طرف السرير حاملة ابني؛ لا أرغب في إنامته بجواري ولا أستطيع النوم على جنبي، أريده فوق قلبي. حاولت رفع ساقي واحدة تلو أخرى على السرير؛ فانشق الجرح وسال الدم

ساخنًا على فخذي. لم أعبأ؛ رغم الألم واصلت رفع ساقي اليسرى. أخيرًا نجحت؛ غير أن اليمنى أبت؛ وكأنها عُقدت في الأرض بوتد. في وضعي هذا نمت على ظهري؛ بعد أن أنمته على صدري، لم يلمس فمه ثديي. بكيت وصرخت؛ فانتبهوا لي. أسرعت إحداهن؛ فرفعت ساقي بيد وبالأخرى تحمل ملابس لطفلي. هدومه في الحقيبة. فتحتها، لا يوجد شيء.

ألبسنه غيارًا كهبة؛ وكل منهن تحمد الله، وتظاهرن بالنوم.

كان الألم فوق احتمالي؛ أشعر بالخواء والدمار كمدينة ساقطة على سقوفها. لم أشرب أو آكل شيئًا. دخلت تحت الغطاء. لا أدرى إن كنت قد نمت أم أغشي علي، أم أنها تبعات المخدر. رأيت- لا أدري؛ إن كان حلمًا أو كابوسًا- أني أحدث زادًا؛ وليدي. ثديي بالقرب منه متدل كثمرة حجرية تنفصل رويدًا رويدًا بحملها حتى سقطت. جسدي شجرة تمتلئ بالموت. أسير في الضباب لا أنيس ولا نور. يؤول جسدك يابني للموت بمسرة؛ فأنت ما لبثت تولد؛ رأيتك تمر ببحيرة الذاكرة لتقضي حياتك دون نسيان؛ يحسب القدر عمرك بخمسة من زهور اللوتس وربما خمسين؛ رأيتك وأنت صاعد. ألقيت على جسدي نبتة تشبهك؛ فوضعت الحية صغارها في طريقك؛ وأنت تنزل البئر كيلا تغرق. الأخضر يصَّاعد يُنبت جسدك في التراب؛ فيِّ. أتجول وحيدة في الطرقات التي سرنا فيها معًا؛ تدخل روحك في جسدي؛ فألدك ثانية. اخترت النخلة التي أحببت وصلب عليها زاد؛ لتختارني دون العابرات أمًّا لك. حفظت اسمك من التلف. وضعته في قماط من الكتان لتزورني في مثل هذا اليوم. أسميتك؛ لن أهدئ حزني عليك؛ فأنا لا أخاف الموت وسوف نلتقي وسنبقى معًا؛ وربما كففت عن البكاء. حملت معك ذكريات ليلة كنا فيها واحدًا؛ انقسم إلى واحد ثم لاشيء. سنعود كما كنا؛ نولد مرة أخرى وسوف يصنعون من جسدينا أرضًا جديدة،

سماء ونهرًا؛ فثمة جمال سيدركه الآخرون عبرنا، وسوف يصالحنا الله، وسوف يمنع الإكراميات ولن يسرقوا ثيابك. ونحن في انتظار حلول آخر نتأمل الحياة. مددت يدي أربت على رأسك؛ فسقطت مني في البئر، ياولدي، ياضناي يازادي!

أعطيت تلفونه للمرضة لتخبره. فرشت الحقيبة بورود قديمة التقطتها من الطرقات أمام الأبواب. كدت أضحك خلسة؛ لأنهم يأتون لمرضى التأمين بالورود. نثرت علي وليدي بقايا زجاجة عطر ووشاحًا أبيض وحيدًا أمتلكه. كثير من الدمع؛ ملأت الحقيبة بصوتي ليؤنسه، قبلت كفيه وقدميه. وضعت يدي على جبهته؛ لمست وجنتيه؛ لثمت فمه الذي لم يلمس ثدييَّ، شددتهما حتى كادا أن ينقطعا؛ هل أدفنهما معك لتمتص منهما ما ادخرته لك؟ لم أصدق أن اندماجي وانقسامي صار إلى لا شيء. اتحدنا كعاشقين وانفصلنا أيضًا، وسنبقى متحدين. أعرف أنك نائم، وسوف تصحو؛ فالملائكة لا تموت، وأنت تحلم سوف تتذكر رائحة لبن أمك ودفء ثدييها، وسوف تعود، وسأنتظرك؛ ياحبيبي. أخذه مني، وقبل أن ينيمه في الحقيبة الصندوق؛ انزلق منه كسمكة من بين يدي صائد خائب. في القبر وضعته بيدي في حِضن أمي، أخذ الرجال أباه عنوة. وبينما تمسكت أنا بالتراب، تركوني وأوصوا النساء بي خيرًا. انسللن واحدة تلو أخرى بعد أن اعتقدن أني قد جننت. بكيت وقضيت يومًا بجواره؛ لا أحد يستطيع إبعادي عنه. لم يمنعني سوى نزول الليل. خفت أن أبكيه في ظلمته؛ فيخاف ويرفض اللبن. افترقنا. سمعتهم يقولون أصابتها الحمى وربنا يستر عليها. نفاس تعيس؛ نمت ليلة دفن ابني في فراش أمي. مات أخي في سن الحُلُم. بعد وفاة أمي ببضع سنوات تجدد الفقد. يغضب مني؛ فيعاقبني بالخروج إلى الشرفة عاريًا في الجو شديد البرودة. ركضت خلفه ألبسه قميصًا. لحجرتي نافذة يقفز منها إلى شرفة طويلة يلعب كالأوز مع إخوته ويتصايحون، وكان

الباب الزجاجي مفتوحًا. دخل إلى كفي وأغلقه؛ فانبجس الدم حتى طاولة الطعام. كانت سارة تضحك في القبو. العصب مقطوع وأصابع يدي في طريقها للشلل. قص الحادث شراييني من عند المعصم. جلست العرافة مشدودة إلى كفي؛ وأثر جرحي يغلق الإشارات ويمنع انسياب العمر. في حجرة العمليات استعرت قميصًا من جارتي صاحبة اليمام؛ فقد سحبت القطط ثيابي ونامت فيها. لماذا انتحرتِ؟ ؛ رفعتُ رسغي المقطوع اعتراضًا فسقط. رفعَته الممرضة وأنامَته إلى جواري. لدينا أمهر طبيب؛ قالتها وخرجت.

نظر في عيني: أنا أفضل من يصل العصب، كيف انقطع الوتر، لماذا انتحرتِ؟.

لم أنتحر؛ أنا أجبن من أن أغادر، وتساقط الخجل مني في شرفة مبللة بالطفولة.

أعادوني إلى بيتي في سيارة إسعاف حملوني إليها أهذي.

حاصرتني أوجاع الفقد وكوابيسها تطحنني: آلام الولادة والأدوية المخدرة، ذكريات رسغي المقطوع وشقيقي المقتول عقب يوم دراسي بسيارة زوجة مساعد وزير الداخلية، دون قصاص. من فوق المحفة؛ رأيت سيارات غبور جنرال موتورز مصر، وأبا عبد الله شحاتة يقف أسفل بيتي؛ الميكانيكي يلتهم المشابك؛ وأنا أنشر الغسيل. الزجاج منثور تلتقطه الممرضة واحدة فواحدة لتملأ القارورة بالألوان؛ يخترقها الضوء؛ فأرى سقف كنيسة كنت قد زرتها مع زاد في مترو حلوان. أقدم الكنائس الباقية فى مصر. دخلت مسجد عمرو بن العاص وخرجت، نظرت في معبد بن عزرا اليهودي من الخارج. عدت إلى كنيسة القديس مينا المعلقة على برجين قديمين لحصن بابليون. جلست بالقرب من مكان تحتمي فيه مريم بطفلها، وهيرودس حاكم فلسطين يقتل الأطفال. ربَتُّ على خلوة راهبة عاشت في المكان داخل

سرداب صخري. أوصلني المترو إلى سجن طرة، رفرفت ياقات المنامات التي حبست بداخلها أوراق الكلينيكس مكتوبًا عليها؛ فيض من الحنان يذوب مني إليك. يريدون الحرية ويضربون للتريض والقراءة وزيادة مرات الالتئام، الياقات كما الطعام؛ مشاع يفضها المسئول عن الحياة العامة، سخر مني، طارت الياقات المتسخة مكتوبًا بداخلها؛ (ناس في خرا وناس في شم ورد). سمعت بكائي من نافذة المعصرة وحتى باب اللوق ذهابًا وإيابًا. خرجنا من قاعة الامتحان، جلسنا في لجنة السجن ننتظر الزملاء. رميت رأسي في الأرض؛ أبحث عن شيء؛ فانهمر شعري كخيل تركض كشلال. ياللجمال ولمسني. استدفأت كما لو أننا لم نفترق. كان نبيلًا؛ فقبلت كتفه وسيارة السجن والحراس ينتظرون. يا زاد؛ أنا زويدة حين تخرج من السجن تذكر أني في انتظارك. عرفت فيما بعد أن زادًا اعتقل، وفوجئت به قريبًا مني؛ فهو الآن في السجن. كان قد سقط من ذاكرتي أنه جاء إلى المدينة للتعليم. آلمني الفقد وفتتني حلم البراءة. لم أستفق من الهذيان إلا بعد يومين؛ وكانت جارتي صاحبة اليمام وشيخها يعتنيان بأولادي فترة الولادة والدفن.

ظلا يرعيان نفاسي الموحش. أسبوعان مرا، ومر الموت على بابهما كما الباعة الجائلين لتتسع وحدتي.

غيبوبة تدق الباب المجاور. جسد يسقط طويلًا خلف المتاريس يفتح الهذيان. طفل يائس يضحك خلف الليل والعناكب. جارتي تصرخ؛ (الحاج وقع الحقوني، الطيب تقيل جدًّا)، والمارة ينادون سيارة الإسعاف. ملاءات حمراء بطيور سود تنفث أنفاسًا كريهة في الردهة الواسعة. كنا أربع نساء وبعض الرجال. لم نستطع حمل الروح الغاضبة. وأنا ألملم خوفي بَدأت في البكاء، بسطْت ملاءة بيضاء على ساقيه؛ سقط عليها وجهاهما الباسمان يوم زفافهما. كانا يتخاصمان كل يوم ويضحكان عند دخول الليل، أو يبشان صباحًا ويختصمان

بضع سويعات تدفع الضجر. تخلو غرف بيتهما الواسع من رائحة الأطفال؛ فجسده يخذله. الحبال تنشر الملابس الكبيرة فقط وهي تبتسم في وجهي تزهو بجلبابيهما ناصعي البياض بالطول نفسه. تشبك كم جلبابها في كم جلبابه؛ فيبدوان كصاحبين يطلان على الحديقة. كثيرًا؛ ينفتح الباب وأسمعها تنادي القطط، ثم تسب شيخها الذي يناغي كطفل. الونس ينير الممر؛ وهي تضع صندوق القمامة أمام الباب. حين تسمع أقدام الباعة يصعدون، تضع الخمار الأبيض؛ فيتورد وجهها فيه. ألمحها من نافذتي، أضحك وأشير لها وأنا اختبئ: أنت في بيتك لماذا الخمار، تشير بإصبعها من خلف ظهره المسنود إلى النافذة؛ فأفهم أنه يغار عليها من الباعة المارين أمام بابها المغلق. فى الحياة بويضة ونطفة وعُش وأطفال، نغار؛ تغار خوفًا من تبدد الألفة ونقض العيش، يغار مخافة انثيال قصائد أخرى على جسدها لا تحمل بصمته الجينية. في الصباح تضع الحَب على ظهر التكييف ويفتح الشيخ التلفاز والراديو في آن واحد على الصخب والحنين. تنهره بعصبية تسيل خجلي، أختبئ من زعيقها له في آخر غرفة تطل على الشارع البعيد. يغلق الطفل الطويل جدًّا أحدهما ويترك الآخر يصرخ. تضحك وتنعته بالعيل. تفتح الجريدة وتلصق وجهها بزجاج النافذة؛ تراقب العصافير واليمام والكروان، والمارة، ثم تنقل بصرها بين الأرض والسماء. لا بأس من فتح المصراع بين حين وآخر؛ لترى من يهرول على السلالم أو يتلصص، بينما ترجرج حياتها خارج خضاضة الملل. تقذف بلفافة للقطط. تناديه ليطلا متجاورين كطفلين عابثين يراقبان نكاح بعضها في العراء. يضحكان من نكات الشيخ البذيئة التي يسمعها للكافة.

التوت قدمي؛ وأنا أركض حاملة يده أعلى جسده المسجى على المِحَفَّة؛ أطرافه طويلة جدًّا تكاد أن تكنس السلالم والشارع؛ ترفع كل واحدة

منا أحد أطرافه، بينما يحمله رجال الإسعاف. عدت من المستشفى، وضعتُ الحَب على ظهر التكييف كما كانت تفعل، لم يأت اليمام. جلس الحُب القرفصاء في انتظار الراحلين ليلًا، لم تتناكح القطط أسفل نافذتهما، توقف المارة عن الصعود. ظل خمارها الأبيض يرفرف باسمًا على الشجرة التي نتشارك فيئها وابتهالات عصافيرها. كانت هذه جارتي؛ نافذتى القريبة جدًّا. ماتت أمها التي كانت تبتسم في وجهي كأنها سارة، تشجعني على الاستذكار وهي ترعى ابنها ليلًا تعد له الطعام والشاي. دق عمى مسمارًا في النافذة الوسيط بيني وبينهم لئلا يرتعش قلبي وأنا في العاشرة؛ فانطفأت بهجتي. رحلت صاحبة اليمام بعد زوجها بأيام وبعد أمها بعام. رحلت من اعتنت بأبنائي حين سافرت سارة، وأنا في حمى الولادة في المستشفى، وحين وضعت زادًا في حضنها.

-٢٦-

قرية جديدة في الصحراء؛ كانت هي منفاي الاختياري هربًا من حليمة وستي اللتين لا تعرفان غير صناعة الذكور والاستحواذ عليهم. وأنا لا سند لي. استدعت ستي طارق زيدان الرفاعي زوج ابنة حليمة، وأقنعته أن يصرف النظر عن زواجي منه انتقامًا من زاد وأمي؛ حسب اتفاقهما السابق قبل موت أمي. اتفقا على أن يسعى لدى حليمة لتزويجي من أحد أحفادها. تزوجت خالدًا الرفاعي؛ حفيد حليمة؛ بعد أن طلقوني من زاد وموت سارة. تزوجنا بالستر في بيت أسرتي بالمدينة؛ فقد برطلت ستي حليمة هانم؛ لكي توافق على زواجي. سمعتهما حين زارتها حليمة في دارنا، وكنت في قاعة سارة أسأل جدرانها إن كانت لم تزل تذكرني وتذكرها:

- هنكتب لك ست قراريط بيع وشرا.
- ست قراريط بس؟ دي سودا وابننا باشا وزي اللبن الحليب.
- خلاص هنخليهم تمَن قراريط، ومحدش هيطلب منكو شوار.
- شوار ليه ان شاء الله، دي متجوزة مرتين قبل كدا.
- ولو انه شرع الله يعني، لكن مش مهم.
- مش مهم طبعًا، كفاية انها هتبقى السودا الوحيده في عيلتي.
- سودا والواد رايدها، وعينه هتنط من وشه لما بيشوفها!

- حمار، حواليه برنسيسات يتمنو تراب رجليه، يالله، أهي تشتغل وتكبر معاشها، ورحمة أبويا مهيطول مني مليم احمر.

تزوجنا. هجرت العراك مع أهلي، انقطعت عنهم إلا قليلًا؛ حين يمرض بابا؛ فأعوده. وتكون فرصة لالتقاط بعض أخبار قريتنا وما يفعله بها صراع الأشقاء؛ مما لم أنسه ولم يحن أوان استدعائه بعد.

حصلنا على قطعة أرض في مشروع الشباب، واستقررنا بعيدًا عن عزبة أولاد محمد، وقصري حليمة في القاهرة وإيتاي البارود؛ لأقطع ما بيني وبينهم من قرابة ومودة. قرية جديدة تعني ألا خدمات ولا نجدة. نحتوها في صحراء مناخها قاري؛ قائظ نهارًا؛ بارد ليلًا يأكل العظم. أتوجه في الصباح الباكر إلى جسر القرية لجلب بعض الأطفال ليساعدونا في زراعة أو حصاد زروعنا؛ مما يقبل به الرمل وشح الماء.

بدأت في إعداد مسكن يتكون من غرفة واحدة ليس بها فتحة تهوية، وردهة صغيرة بنافذة مرتفعة كزنزانة؛ مكان للطبخ ليس به بوتاجاز ولا ثلاجة، مكان لقضاء الحاجة ليس به صنبور، حوش واسع من الرمل يحيط بالمسكن وبنا.

كان الناموس بحجم الذباب يهتاج ليلًا؛ فتتدرن أجسادنا من الرأس حتى الأصابع. ومن سوء حظي أن أحد أبنائي ما يكاد يلدغ حتى يتداعى جسده. أجرب وصفات تهدئة الحكة وبعض الأقراص التي أنجح في إخفائها من أبيه. تتنزه في بيتي ومحيطي فصيلة من القوارض الليلية الصحراوية؛ أكثر أفرادها إيلافًا الجربوع. أصله يربوع؛ بأرجل خلفية قوية، يقفز لمسافة ثلاثة أمتار، حين أطارده على صوت صراخ أطفالي وهلعهم. ينشط ليلًا بحثًا عن الطعام، لا يشرب الماء. أطارد صغارًا بطول ثلاثة عشر سنتيمترًا، وألهث خلف كبار بطول خمسة وعشرين سنتيمترًا. يأخذ لون وجه الصحراء البني الباهت كلون الغزال. كثيرًا لا أراه، يفاجئني وتغيم الحياة. كان علي أن أدبر أمري وأتعامل مع الفأر

والناموس وجلب المياه وتوفير العيش. فرن القرية ينتج خبزًا يقترون في خميرته؛ فما أن يتعرض للهواء حتى يصير كرقائق الجبس.

مددت جسدي فوق السرير؛ فقفزوا فوقي يدغدغونني بأصابعهم:

- إحكي حدوته، إحكى حدوته، قولي لي حكاية ياماما.

- تعالي ياماما نزرع شجرة عيش! اندهشت؛ فذكرني:

- شجرة العيش اللي في الحدوته.

- بشرط انا اقول شويه وانتو شويه.

صفقوا بكفوفهم كأنما يصفقون في قلبي:

- كان فيه رجل عجوز فقير عايش في بلد حر جدًّا، مع ابنه وولد بيساعده وكلب بيحرسهم، الرجل ضاعت فلوسه كلها، وزهق من الدنيا.

انفجرت ضاحكة، وأنا أستمع لإبداعه. أكمل:

- فقدو الأمل، فرجعو يعيشو في بيت مهجور في الصحرا.

صمت؛ فساعدته في التذكر:

- في صندوق العيش كانو بيحطو اربع ترغفة كبار جدًّا جدًّا؛ كل واحد منهم له رغيف يكفيه شهر بحاله، يادوب لقمتين كل يوم، لغاية أما موسم المطر يخلص، ويعرفو يزرعو.

- في ليلة كان صوت البرق عالي قوي ي ي، وكانو قاعدين حوالين ترابيزة الأكل، بيفكرو إزاي هم غلابه كدا وتعبانين ومساكين، وكان الكلب نايم مدروخ على رجل الرجل العجوز.

- البرق ملوش صوت، قبل المطر ييجي البرق، بعده الرعد وهو اللي صوته عالي قوي إسمه الجلجلة، سمعو صوت الريح والرعد والمطر، الباب خبط، فتحو، لقيو شحات لابس بدلة وكرافته وعايز ياكل. محدش كان عارف إن الشحات دا هو الرب اللي نزل من السما يتطمن على أحوال الناس.

- العجوز قال للولد إدي له رغيفي. الولد سمع الكلام وادى الشحات رغيف الرجل العجوز وهو زعلان جدًّا.

- استمر المطر والريح والرعد والحزن في البيت الفقير.

- رجع الشحات تاني طالب رغيف.

- يووه بقى دا شحات غريب قوي ي ي.

- العجوز قال للولد إدي الشحات رغيفك، انت شاب قوي وزي ابني، الولد سمع الكلام وادى الشحات رغيفه وهو حزين قوي.

- مر أسبوع والبيت الفقير حزين، رجع الشحات طالب عيش، بص العجوز لابنه، بصوت غلبان قال للولد، إدي الشحات رغيف إبني، سمع الكلام.

- مر أسبوع، رجع الشحات عايز عيش، إدو له رغيف الكلب.

- حتى الكلب؟ دا شحات طماع قوي ي ي.

- كمان أسبوع فات، وكانت أيامه طويلة عليهم وهم من غير عيش، لكن كان عندهم أمل ان المطر يقف ويعرفو يزرعو أرضهم، وياكلو أي حاجه من اللي هيطلع منها لغاية حصاد القمح، شكرو الشحات اللي علمهم ازاي يعيشو من غير عيش.

- رجع الشحات على صوتهم وهم بيشكروه، وعلى نور الشمس وهي بتغيب، رجع لجلاله وهيبته زي شمس النهار.

- وقف المطر. فتح الرب كفوفه وفيها بذور قمح كبيرة جدًّا.

- طلعو كلهم فوق الجبل وزرعو بذور القمح الكبيرة جدًّا.

- فجأة نزلت من السما مطره كتيره ودافيه.

- شويه ووقف المطر.

- غريبه قوي ي، وقف المطر نزل المطر هي السما حنفية؟

سادت فوضى من الضحك والدغدغة. قلنا في صوت واحد:

- فكرناك نسيت الحنفية.

وضع كفيه تحت إبطيه؛ علامة الاعتراض والانسحاب، قبلته وهدهدته واعتذرنا. أكمل:

- أسبوع فات وطلع من الأرض نبته كبرت. وطلع منها فرع.
- وكل فرع يطلع منه فرع وفي وقت قليل بقت شجرة.
- كبيرة قوي ي ي، فروعها كتيره قوي ي ي.
- أول فرع طلع منه أربع ترغفة كبار جدًّا، أكلو وفرحو وشكرو الرب.
- لأنه اداهم شجرة وعلمهم يزرعو عيشهم.
- حلوة قوي ي ي، طبعًا عارفين إن دي حدوتة زماااان قوي.

قالوا في صوت واحد(فاهمين.. فاهمين.. طبعًا..طبعًا)، قالوها ساخرين مني وذكروني بالعيش الحجري.

وضعت لهم طعام العشاء، شبعوا وناموا.

وحدي معهم، يحنون لمسكن المدينة وطعامها. لا أنجح سوى في طمأنتهم.. يومًا ما سنعود. من حسن حظي؛ أن سقطت من وجداني أيامي مع زاد، وحياتي في المدينة.

في المفازة لا ذكريات ولا ظلال قديمة؛ ليس سوى أمنيات الماء واسترواح السكينة.

-٢٧-

لم يمر شهران وفاجأتنا حليمة بزيارة ومعها الرفاعي. ساوما خالدًا لبيع مشروع أرضنا؛ لنصطف في قبيلتهم.

ياهانم لا يمكننا بيع الأرض قبل سداد أقساطها، انحنى خالد وقبل يدها.رد عليه الرفاعي: يابني أنا أبيعها ولا تسألني كيف.

لم أعلق. خرجتُ إلى الفناء؛ فتركني، ولم يسألني رأيي.

قبل أن تغادرنا تركت وصاياها: اعقليها وتعالي إيتاي، اشتغلي وعيشي، الاستحواذ على ابننا لن يحدث، وسوف ترين. بكيت ولم أنم.

تذكرت طقوس سارة وأنا أحمم أبنائي؛ أملأ إناء كبيرًا بالماء أضعه في الشمس منذ ظهورها؛ فيصير دافئًا أو ساخنًا على حسب ما تعطينا من طاقتها. يغطسون في الإناء يرطبون أجسادهم صيفًا؛ فيبتهجون.

مضى شهر آخر بمشقة دون خبز طازج ولا فرن للخبيز ولا صنبور. في الصباح الباكر؛ أصطحب بعض الأولاد إلى مزرعتنا. أتركهم في جانب يحصدون أو يقومون بتنقية الحشائش، وفي الجانب الآخر أقوم بنقل مواسير الري. ثلاث عشرة ماسورة من الحديد طول كل منها ستة أمتار؛ نتبادل نقلها أنا وخالد حتى يتم سقي كل الأرض، أصفها خلف بعضها البعض وأتمم على الجوانات وألفها حتى تستقر تمامًا في فم سابقتها. أختبر فونية الرش والبشبوري المثبت في بعض المواسير؛ والتي كثيرًا ما سرقها الأعراب؛ فأضطر إلى حملها للبيت أو

دفنها في الرمل. نتوه كثيرًا عن مكانها؛ لأننا لا نستطيع وضع علامة؛ فالبدو أذكياء فيما يتعلق بالسطو. أخبرني البدو أن الرفاعي وحليمة هما اللذان حرضوهم على سرقة البشابير. مشقة الري ليست بطولة؛ إنما معاناة لم تسفر عن حصاد لأسرة صغيرة مزروعة في بيت فقير في الصحراء؛ كنا فقط نهدهد الرمل.

حمل لي أخي شيئين حلًّا لمعاناتي؛ خرطومًا أصِله بالصنبور العمومي، ومكنة وابور بماسورة ليكون لي فرن يعمل بالجاز. حين عدت من سفري وجدت خالدًا قد باعه وفاء لدين. أوصلت الخرطوم واحتفلنا بوصول المياه. لم يعش الخرطوم طويلًا؛ فقد كانت السيارات تمر عليه وملأته ثقوبًا. قمت بعمل ضمادة لكل ثقب، وصار الخرطوم بعشرة أربطة؛ لم يفلح في إيصال الماء؛ فكان عذاب وصله أكبر من هجره. اشتريت غيره ودفنته في الأرض، انبجس الماء منه. صرفت النظر عنه. وكانت محاولات تضميده مبهجة؛ يتبارى أطفالي في مناولتي الأشرطة، وأسماه الصغير الخرطوم (اللي عنده واوا)؛ يجري يغمس الشريط في إناء العسل الذي نداوي به الجروح.

تفاجئنا حليمة كالقدر كلما نسيناها، رأتنا ونحن نضمد الخرطوم، ميزت همسها. تعذبين نفسك تعالي معنا والقصر به ما تحتاجين. لم يقبل عليها الأطفال ولم يرحبوا بها، فاعتقدت أنني مصدر نفورهم. اختلت بحفيدها في السيارة التي سدت الطريق على سيارات العمل، فسمعت اعتراضًا، وردًّا غليظًا منها. بقيت معنا ليلة لم يخبرني خالد متى ستغادر.

أحزنني الخرطوم وفشلي معه؛ على ما له من ذكرى لم تبارحني قط، عن طفل لم تعلمه أمه، كيف يقبل ويشرب الماء، وأين يضع الوردة؛ بين طيات الحلم أو في جيوب الحزن!

اتسعت الهوة بيني وبين بابا. رأى شقيقي الأكبر وهو يجرب الرجولة يومًا. لأول مرة يجلس في الجلْه في صحبة نورة، طفلة خجولة تشبه سارة نوعًا ما.

جلسا في ظلال البدر قريبًا من النهر. كان بابا عائدًا من بحري؛ من زيارة عمتي الكبيرة، وانتهز شقيقي وقت الزيارة الذي يعلم أنه يطول. انعطافة صغيرة ما بين مجلسهما ودارنا، فيري المُنعطِف الجَلْه بضياه وظلاله. أخذ شقيقي راحته واحتضن نورة وقبلها، وكان أن رأى بابا ظليهما ولم يغضب. اقترب فاشتم رائحة الدخان. روح الدار حالاً، قالها بابا بغضب متواضع، وانسلت نورة ذابلة وحدها في الليل. أرني أصابعك، افرد يديك اقترب؛ أوامر بابا المتلاحقة. اشتم شعره وملابسه وأطراف أصابعه. هجم على جيوبه، فرك السجائر بقدمه، ولطمه عمي على وجهه. تكاتف مع بابا في شد وثاقه بخرطوم ثم ربطه في مكنة الرى. تناوبا على ضربه بخرطوم آخر ترك علامات على جسده لم تبرأ روحه من سياطها حتى اليوم. تحطم قلبه الصغير؛ فقد علمت نورة بما جرى لحبيبها، وكان ذلك نذيرًا بطوفان الكراهية. بكى في حضن خالي كطفل سكن الدخان جسده وعاش بعلاته. كنا رضعًا عمدوهم يوم الحصاد بحليب الصبار.

-٢٨-

وسيم ذو بشرة بيضاء كجدته حليمة. تحول، وصار لا يهتم لملبسه، ويزيد مظهره بؤسًا؛ ذلك الإهمال الذي يلازمه، حالما تخلو الساحة من النساء. كنت صادقة أشفق عليه لقلة حيلته، وأتمنى لو أحل في جسده؛ أهبه قليلًا من التماسك لنصمد في اختبار البقاء؛ فلا وجود لنا مع حليمة التي تعنفنا في كل زيارة لها. تزجرني وتتهمني بأني جعلت ابنهم- الباشا ابن الباشا- فلاحًا. تصفه بأنه أخيب عيالها، وكأنه مجبر على المُر؛ انا.

تزوجت خالدًا لأنجب أبناء غير داكني البشرة؛ خاصة لو جئن إناثًا، ولأن الزواج جبر في أغلب الأحوال فقد أردته مليحًا بعض الشيء. هل اخترت خالدًا؟. ربما؛ ساومت ستي. إن أرادت الخلاص مني، فلتزوجني من رجل أبيض.

أتقنت احتمال المشقة؛ فصرت مزارعَة قويَّة تبتهج للماء والإنبات. لم نستطع بناء مظلة من القش؛ لأن الرياح ستخلعها في لمحة. كان الأنسب بناء من الطوب؛ وكان ممنوعًا علينا؛ فكنا نستظل بشجيرات علف الفيل التي نستخدمها سياجًا ضد الرياح؛ أوراقها الكثيفة تزيد الجو سخونة ورطوبة، لكنه حر دون شمس على أية حال. في الشمس هيهات أن يطيق المحتر الصغير غطاء رأس؛ ولو كان جميلًا أصنعه يفيض باللعب. كنت أخشى على طفلتي إن أصابها لفح الشمس؛

فتغمق بشرتها وتغيَّر بلونها. ظل هاجس اللون يطاردني في الشمس كأكثر ما يطارد المرء في الليل كابوس.

انتبهت إلى تلميحات حليمة، وقررت مواجهتها. قالت لخالد:

- ربنا خلق الناس سود وأمرهم يتطهرو، شويه استحمو فابيضو، وسابو للباقي شوية اميَّه، غسلو بطون إيديهم ورجليهم بس، وجايز الميه اللي سابوها البيض مكانتش كفايه أو مبتنضفش، أو إن السود مبيحبوش يستحمو.

ضحكة عالية أكثر دويًّا من وضاعتها:

- ياحاجه، كل القصور زمان كان فيها عبيد سود وبيض، وكانو بيسمو العبد الابيض غلام رومي، أقولك يعني إيه غلام رومي وأقولك كمان الجواري البيض في القصور كان بيتعمل فيهم إيه وكانو بيعملو إيه؟ وبعدين يعني انت عارفه بياضك دا جي منين؟ جدرك مفيهوش بياض ياحاجه. وكمان اللي قلتيه دا معناه حاجه واحده بس، إن البيض حرامية وطماعين، دا لو كلامك صح. والمثل بيقول: المسك بالنفحه واللبن بالسطل، والجير بالقنطار والفلفل بالوقية، ولا معداش عليكِ الكلام؟

تمنيت أن يفهما المثل وإشارة الجذر. ردا بغيظ وعصبية:

- حليمة هانم، مش الحاجه.

ضحكت بسخرية أثارت خالدًا، وانفجرت:

- ياحاجه دا انت حفيدة اللي ميعرفو ولا شافو في حياتهم غير الرمل، ودول في الأصل لا هم باشوات ولا هوانم.

قبل أن أسترسل؛ أشار لي خالد بطريقة سيئة أن أبتعد.

خرجتُ إلى الفناء. سمعتها:

- طلقها طلقها، يابني بفلوسك حتّى ضروسك، بفلوسك بنت السلطان عروسك. عارفاك خايب وبتحبها، بتحبها ياخالد؟

لم ينطق بكلمة. لم يعترض؛ حتى إنه لم يرفض عرضها.
أعددت حقيبة السفر. كدنا نضل، كمن غفا طريقه، لم يستدل عليه وقد غادر قصاصو الأثر الحياة؛ كمن سقط في لجة ويئسَ الصيادون، بعد أن خبأ البحر دروب اللؤلؤ وأغلق المحارات.
زرنا المتحف المصري، شافوا ملوكًا وملكات داكني البشرة، شرحت على الخريطة لماذا لون البشرة يختلف. عرفوا حابي، طيبة ومنف. ونحن نستعد للعودة إلى الصحراء؛ كان لزامًا أن أحكي حدوتة:
- عايزين تعرفو إيه؟
- ليه الناس في مصر وفي المتحف سمر؟
- هم مش كلهم سمر.
- طب ليه السمر لونهم كدا؟
- كل الناس في الدنيا أصلهم اسمر، من أكتر من مليون سنة.
- يااه مليون سنة، دا كتير قوي ي ي؟ ولسه عايشين؟.
- آ، شفت بقى! فيه بلاد شمسها بتطلع طول السنة، ودول لون جلدهم أسمر، وبلاد تانيه بتطلع شمسها شهور ويمكن أسابيع أو أيام قليلة، ودول لون جلدهم أبيض أو فاتح، أصفر أو بني.
- إزاي دا بيحصل؟
- تعالو نزور خال ماما في كوم حماده في البحيرة، تعرفو ولاده، وتشوفو النيل الجميل من عنده، وأرضه اللي بتطلع زرع حلو مختلف عن زرعنا.
- الله. حلو قوي ي ي.
- على شرط نركب الجاموسة!
زرنا آخر ذرية سيدي خلف. شافوا زرعه، وفي الزريبة؛ شافوا عجلة جاموس لا ترى الشمس؛ فظل لونهاورديًا، ورأوا أمها التي تسرح في الغيط فاسمر جلدها، اندهشوا:

- الاتنين دول أم وبنتها؟
- أم وبنتها.
- ازاي؟
- الكبيرة بتسرح في الغيط في الشمس، والصغيرة دايمًا جوا الزريبة مبتشوفش الشمس.
- يعني الشمس هي اللي بتعمل اللون؟
- صحيح، ولو جلد الحيوان أو الإنسان لونه فاتح واتعرض للشمس باستمرار يتحرق ويموت، لأن الشمس زي مهي حلوة، أشعتها الحامية وحشة، وعشان الجلد ميتحرقش ويموت، الجسم بيبعت له صبغة تغمقه وتحميه من أشعة الشمس، عشان كدا الناس في البلاد اللي شمسها بتطلع طول السنة لونهم أسمر أو بني، وفي البلاد اللي الشمس فيها بتغيب أو بتطلع قليل لون جلدهم أبيض أو فاتح أو أصفر، على حسب لون الصبغة اللي بيبعتها الجسم للجلد.

-٢٩-

جاءتني عزيزة مع بعض عمال الزراعة؛ طفلة في الثالثة عشرة. رقيقة تميل لأن تكون شقراء؛ يتهدل شعرها أسفل شالها المربوط بإهمال شلالًا من الأصفر المجدول. أحببتها وخالد كابنتنا، باتت شريكًا لنا ولأطفالنا في كل شيء. تقضي باقي اليوم تساعدني وتجلب الماء.

عدنا من سفر. أقبل خالد علينا مهللًا؛ مادًّا ذراعيه لاحتضان أبنائه دفعة واحدة، وكانت عزيزة موجودة فقبلتها. نهدها نافر ورائحة الأنثى تفوح منها:

- ماشاء الله عروسة حلوة ربنا يحفظك يابنتي. وهو ينظر لها:

- دي شاطره جدًّا كانت بتيجي كل يوم تحضر لي لقمة وتنزل معايا الأرض، وساعات اسيبها وارجع الاقي البيت نضيف ويتقعد فيه، انت عارفه جوزك وسخ. لم أعلق في وجودها.

في اليوم التالي؛ وأنا أخرج ملابس نظيفة؛ وجدت صرة قمصاني وسراويلي مفتوحة وبها القليل مما تركته. واجهته:

- عجبوا البت عزيزة قلت لها خديهم.

- إيه عرف عزيزة بمكانهم، ويعجبوها ازاي وهم بتوع واحدة متجوزة؟.

- هو انت يعني كنت حطيتهم على جتتك!

- بتعاقبني؟ وبعدين هي قمصاني ولبستي هتفيد أهلها بإيه؟.

- يوووه، البت إشتغلت أسبوع من غير أجرة قلت أراضيها.
- على بركة الله، مبروكين عليها.

جاءت عزيزة إلى خالد أثناء سفري؛ وحين رأتها حليمة استملحتها. شجعتها وأوصتها بعدم ترك خالد وحده حتى في وجودي. لم تخف عزيزة عني حوارهما. هي من أوحت لها بأخذ قمصاني وسراويلي، ورشتها بقليل من المال، والرث من الملابس. ذهبت لأبيها تأمره أن يدعها تعمل لدينا وتبيت. رفض الرجل بحزم فغلت يدها عنهم.

في يوم شتوي رمادي بكت عزيزة:

- معندناش غطا!

نظرت لأغطية جلبتها بعد عراك وليلة قارسة البرودة:

- دا غطا ولادي والليل هنا تلج، وأنا اديتك لحاف بملاياته.

حملت بعضًا من الطعام الجاف. ذهبت لأرى إن كانت صادقة. استقبلني أبوها؛ يمشي مكومًا يداري ثوبه الممزق، وصحنًا به قليل من المش وقطع البصل.

معلقون كثياب تركت أصحابها يومًا اشتدت فيه الرياح، ذهبوا إلى الأسواق عرايا يلتمسون الخبز..

- ازيك ياحاج، عندك بنت زي الفل واخواتها يسرو القلب.
- الله يسترك ياست. ولم يزد.

لمحت لحافين ملطخين بالدماء.

دون أن اسأل أجاب:

- الهانم بعتتهم مع السواق، احنا مش هنتغطو بالدم ياست، دا فال سوْ، احنا نتغطو بهرابيد بس ميكونش فيها دم حد، صحاب الدم أولى به. معلش اللحافين ميلزموناش.
- خلاص رجعهم لصاحبتهم.
- شتمتني، وقالت انت تطول دي لحفة الباشا الكبير.

- وانا مش هاخدهم، إرميهم، نجدوهم تاني، إغسلوهم وافرشوهم في الأرض.

في الصباح فككت المرتبة، وأخذت نصف ما بها من قطن. جاءت عزيزة؛ فجمعت كل الملابس التي لا نستفيد بها، والملاءات الممزقة إلى بعض وصنعنا أنا وهي لحافًا كبيرًا. خبطنا القطن بالعصا كما يفعل المنجد. قفز الأطفال يدقون معنا القطن ويوزعونه بأيديهم الصغيرة داخل اللحاف وابتهجنا. خطناه وغرزناه؛ كان رائعًا وكل مربع منه بلون. حمَّلتها مع اللحاف بعضًا من طعامنا، ذهبت راضية وعيناها محتارتان بين الضحك والبكاء.

-٣٠-

اشتريت بوتاجازًا بفرن. كنت أحمل الأنبوبة لأقرب مستودع على بعد عشرات الكيلومترات لملئها. أنتظر طويلًا حتى تمر سيارة تحملني؛ فصار البوتاجاز عبئًا ومضيعة، اجتنبته بعد شهرين من المعاناة. أضحك كلما وقع نظري عليه؛ كشاهد على إحدى خيباتي. جلبت فرنًا يعمل بالكهرباء، محلي الصنع، سعره زهيد، فرحت به جدًّا؛ فقد أعفاني مؤونة حمل الأنبوبة أو البحث عن وقود.

يفقد خالد قداحته أو تبقى فارغة وشاهدًا على غياب إحدى الخدمات في قرية ناشئة؛ ليس بها إلا مجرد دكان صغير لا يملأ القداحات على هامش نشاطه، وحين تفرغ علبة الثقاب لا يشتري خالد غيرها، أنا من يشتري.

دخْل صغار المزارعين من الزراعة قليل وهو دائم الاستدانة من البقال. لا أعرف في حينها لكني أسير خلف حدسي. يكره وجه الدائن الذي حتمًا سيطالبه بما عليه إن ذهب إليه لشراء الثقاب؛ فلا يذهب. يشغل الفرن الكهربي لإشعال السيجارة ويتكاسل عن إغلاق بابه؛ وإن اشتعلت يرميني بابتسامة لها حفيف لا يطفئ، ولا تجد لها صدى في روحي.

- كل مرة أفتح باب الفرن لابد أن أقفله؟ طبعًا لا. قال ضاحكًا.

يدخل الجربوع الفرن يتكاثر ويأكل العوازل؛ فيصبح صاعقًا بدل أن يكون فرنًا. وكما اجتنبت الغاز صرفت النظر عن الكهرباء؛ فهي تغيب أيامًا؛ لأن الكبار يرشون المسئولين عن محطات الكهرباء؛ فيقطعونها عنا ليفوزوا هم بالماء، فالرِشوة خبز ساخن وشهي. آنست لغيابهما؛ الغاز والكهرباء. وكذلك الجاز بعد أن باع خالد عدة الوابور ومواسيره، ولم أبن فرنًا.

جلبت صاج فرن من المركز. وبعض الطفلة والمكسور من طوب الحكومة، وتسول قليل من دمس الفول والرماد؛ عملت معجنة وشيدت فرنًا.

أعجبنى ما صنعت، رددت ترنيمة سارة: (كريم بنى واتعجب البنًّا دي طوبه من دهب والمعجنه حنَّه). نقشت علي الفرن -مما علمتني- كفًّا لدرء الحسد ونخلة لمباركة العيش.

كانوا يمدوننا بتموين شهري؛ أهم مكوناته الطحين. وفي يوم بهيج صار عندي فرن، وخميرة صنع يدي من الطحين والماء والملح أتركها يومًا لتنشط، وإن نجحت تغنيني عن شرائها من المركز أو استدانتها من جارة. تذكرت وأنا أعاني في استنبات الخميرة حوارًا دار بيني وبين ستنا:

- في يوم من شهر بؤونة يوم اتناشر منه، اسمه يوم النقطة، في اليوم دا العجين ميحتاجش خميرة لأنها بتنزل من السما.

- خميرة من السما!

- كل ست تجهز طحينها وتستنى النقطه، وكل مرة تعجن تقطع حتة من العجين تشيلها، لاجل تخمر بيها لغاية ميعاد النقطة في السنة اللي بعدها.

- وايه اللي بيخمر العجين من غير خميرة؟.

- في يوم عيد النقطه، الملاك بيسقَّط في النيل نقطة أُميَّه مخمرة فيزيد ويفيض، كل ست تعجن خميرتها ليلة العيد وتضيفها لعجينها، لو العجين فار تبقى إشارة إن النيل هيكون وافي، وتعجن وتخمر عيشها طول السنه.

أين مني هذا الملاك، فاض النهر بدموعه فاختمر العيش! بكت إيزيس حزنًا على أوزوريس، وهي تجمع جسده المفرقة أشلاؤه على جميع الأقاليم.

لم يتبق لاكتمال فرحتي سوى الوقود: كومة قش: هذا ما تصورته كافيًا.

أول رغيف نضج تركته للهدهد والعصفور، الغراب والقمرية. التالي كان رغيفًا شهيًّا؛ قسمته بين أطفالي. التهموه بلا غموس. كنت أخبز بما يكفي من الوقود. رأتني جارتي وهي تنزل بعضًا من الحطب من فوق سطح مسكنها:

- شكلك خلصتي الوقيد يامصراوية. وقذفت لي بعضًا منه.

- انا أم محمود، جوزي دبلون واحنا أول عيلة سكنت هنا.

- ربنا يكرمك ويديم خيرك، عشتي ياأمُ محمود، أنا مسرة بكالوريوس وجوزي كمان.

بحطبها أكملت خبيزي؛ اكتمل اختمار العيش وصار له رائحة الحنطة الصافية. حُلت مشكلة العيش على وجه طيب وإن كان شاقًّا. لا ينقصني سوى الحطب. توسلت لخالد: لو سمحت هات لي كم فرع شجر للخبيز، واعمل منهم تعريشة ترحمني من الشمس، يكفيني نار الفرن، عضمي باش.

لم يأتني بوقود؛ فحملت طحيني، وذهبت لأم محمود أخبز عندها. عجنت كل منا طحينها، وبدأت أم محمود أهازيجها:

- يا عجيني لوف لوف كما لافت الصحبه ع المعروف، والنعجه ع الخروف ضحكَت، وقالت (كملي يامصراوية):
- يا عجيني لوف لوف كما لافت الحنه ع الكفوف.
- يا عجيني اخمر وفور صحابك من غير فطور.
- يا عجيني خد شطارتي، واعلا قبل عجين جارتي.
- يجعل محمد كيالك والصلاة على النبي.
- يجعل ملحك سكرك من كَل منك شبع ومن شافك قنع.
- ياعجين الإسلام كلشن فيك يظهر ويبان من عفشه ومن نفيشه ومن كل شيء يخلط الخاطر والنفيسه.
- زيد في لقانك ياعجيني كما زدت في فدانك ياعجيني.
- النبي فايت علي وانا عجيني بين إيديا، قال لي إتشاهدي ياوليه، قلت أشهد إن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله.

غطينا العجين. تذكرت سارة وطقوس عيشها. عدت لأعد لأولادي وأبيهم الغداء. رجعت إلي أم محمود. اختمر العجين.

قرَّصَت عجينها على طبلية صغيرة، وجلست إلى أخرى أوسع منها. هكذا قسمت العمل بيننا؛ هي تبُط الرغيف؛ وأنا أجلس إلى الفرن أواليه لينضج.

هممت بإلقامه الوقود. صرخت:

- يا تجرفي[٣٧] الفرن يا تهجريه.

نظرت لها بغضب، كونها تأمرني وتزجرني في ذات الوقت:

- ياختي افردي وشك وقابلي الفرن بفرحه، ياختي سمي ونبهي سكانه ليزعلو منك، ودول زعلهم مؤذي، قولي ورايا.
- ياعجين اشرب شرابك ما عذاب إلا عذابك.

نظرتُ في جوف الفرن ووضعت يدي تحت إبطي.

ضحكت بصوت عال، قالت (لاحول ولا قوة إلا بالله).

رددت ماقالت، واستعذت وسميت باسم الله الرحمن الرحيم.
جرفت الفرن بقحف نخل[٣٨]. ناولتها التراب فرمدت به تحت حمارها. رفعت نقابها، فوجئت بوجه مكتنز وعينين مكتحلتين بغزارة؛ وكأنها أخذت إثمِد الجبال كلها زينة. وجهها جميل وطيب كالذي في قريتنا. خلعت قميصها الفوقاني؛ فبانت ذراعان بضتان لا أثر فيهما للعناء. قميصها أحمر بحليات من الدانتيلا البيضاء وزنار أصفر يحيطها. شردت وأنا أمام النار. تذكرت كومة اللانجيري التي صررتها ووضعتها في قعر الخزانة؛ لأنني قضيت سنوات أعيش مع ذكور يخشى عليهم من الفتنة. اليوم أسكن في مكان ضيق يفاجئنا الناس فيه بوقوفهم في منتصفه دون نداء ولا حمحمة؛ فقد عودهم خالد ذلك؛ وإن اعترضت يرد بابتسامة يتصور أنها تذيب قلبي: لايجرأون على النظر إليكِ وأنتِ في مقام أختهم أو أمهم.

عدت من شرودي على صوتها أعلى من دخان الفرن:

- الأسمنت بيخزن الشمس في الحيطان ويبخها فينا.

احمر لحم أم محمود. بصدق عذرتها وأشفقت عليها. كيف تحتمل الحرارة وبطنها يتدلى حتى يكاد يلامس النار؛ كيف وهو يصنع حاجزًا بينها والأشياء جميعًا! ضحكت داخلي؛ ربما عن جهل؛ بحق وبدون سخرية لا أدري كيف تستمتع بزوجها، بالحياة مع كل هذه العوائق. استعذت بالله، وبضحكة من قلب صادق قلت: ربنا يحفظك يا أم محمود ويديم أفَراحكم.

باشرنا الخبيز في الغرفة منخفضة السقف. كنا فيها نُطبخ لا نخبِز، وكان حالي حرفيًا جسدًا مسلوقًا يشر منه العرق كالماء يجري حول سلسلة الظهر، مقعدة ملتصقة في الثوب الملتصق بكرسي من طين مثبت في الأرض كمقب، وجهًا ملتهبًا تخرج منه النار وركبتين تفكك جلدهما ولحمهما وتفتت عظمهما بالسخونة. تحملت لأنجز ما أنا

بشأنه. أتممت خبيز أرغفتها. قامت تنشر عيشها في مكان هاوٍ، وحين عادت وجدتني قد قرصت عجيني. توقعت أن نستبدل المواقع، لكنها جلست إلى الطبلية؛ فجلست أمام الفرن. أنضجت عيشي. حاولت إثنائي عن الخروج مباشرة من أمام النار:

- يابنت الناس هتستهوي، مش كويس عليكِ.

- خليها على الله خايفه ولادي ينامو جعانين، اتمسي بالخير.

وضعت غربال الخبيز فوق صحن العجين على رأسي. أعاني أوجاع العظم والرأس. تأملت ما حدث من أم محمود، كيلا أبكي. حقًا؛ طلاقة الروح وفصاحة الجسد علامتان للشاهق إنسانيًّا.

المسافة من بيتها إلي بيتي لا تستغرق بضع دقائق؛ جعلها الظلام كالمسافة بين حِضن سارة وقاعة ستي. لا تكلف أم محمود نفسها مشقة بذل الجود والمحبة؛ فتبالغ في تثمين حالها. تحتمي فيما رزقهما الله هي وزوجها من خير وتبجيل، وترى أنه من علامات الاصطفاء والتميز؛ فلا تهتم بالعدل شأنها شأن الآخرين.

-٣١-

نسيت في هذا اليوم أن أترك إناء الماء في الشمس ليدفأ. لم يكن باستطاعتي احتمال جسدي ساخنًا؛ أشعر أن وجهي مشتعل يبخ النار. دخلت إلى المرحاض؛ سكبت الماء البارد عليه فانطفأ. تناولنا العشاء، ونام الأطفال. خرجت لأجلس على مصطبة يمين السلم الحجري، طرحت عليها بساطًا من القماش حاكته لي سارة قبل سفرها. متعتي الوحيدة صحبة راديو صغير أدسه في كيس داخل جوال الطحين؛ حتى لا يبيعه خالد وفاء لدين أو يخربه. كان الجو منعشًا؛ النجوم كثرًا والقمر بالكاد غادر المحاق. تحسبت للناموس؛ فدهنت جسدي ووجهي بالليمون، استفدت من مهارات البقاء واستنبات الخميرة. وضعت بجواري مصيدة؛ نصفي زجاجة من البلاستيك لأمتهما ببعضهما بالعجين؛ السفلي يحتوي على الخميرة، الماء والسكر، والعلوي فوهة الزجاجة كمكيدة للناموس.

- قاعده في الضلمة زي العفاريت، تعالي نامي انت مبتتهديش؟

- انت متعرفش هدة الخبيز أصلًا، فسيبني انا مبسوطه هنا.

فتح باب البيت الخشب وأغلق الباب السلك؛ فانسل خيط نور. جلس إلى جواري، ومد يده يدلك رقبتي ويفك شعري. أبعدت يده فعاود. نهرته:

- يا بت انا حبيبك، مش تحترمي نفسك.

مد يده يدلك ظهري ورقبتي ويلمس جانب وجهي بأصابعه. يدغدغ جنبي. أدخل يده في قميصي؛ فك أزراره بعصبية.

- بالذمة فيه ست محترمه تلبس قميص بزراير بالليل.

- ميفرقش ليل من نهار، وانت عارف لو روحي رايحه مفيش.

لم يعلق. على خيط النور المعلق بيننا رأيت في عينيه تراجعًا وهجومًا! حملني على عجل على الرغم من أن قامتي تعيق اختطافي.

- فعلًا النسوان القصيرة نعمه.

- فعلًا وانا معاك، يالا بقى شوف لك واحدة قصيرة.

- انا عجباني الطويلة ولو انها بعرورة ...

لا يغادر لسان البادية أصحاب الأرواح القاحلة. ينفلت لسانهم رغمًا عنهم بكلمة بعرور أو بعرورة؛ صفة شائعة للجمل الحقود الذي يخزن غضبه. في ليل الصحراء يسمع رجع أقدام حيوانات ذوات الخف وذوات الظلف؛ البعر. كلمة تُطلق على فضلات الماشية. تنعت الشخص المتعجل يتصرف بغير روية بالبعرور، وتطلقه القبيلة على صغير الجمل..

هذا مادار في خاطري وأنا على مشارف لحظة حميمية مع حفيد حليمة. استلقينا أسفل النافذة العالية وجسدي يؤلمني؛ كل عظامي في حالة استنفار وعصية على الاستجابة للمتعة. تجاوبت روحي على صوت غطيط الأطفال، نقيق الضفادع، احتكاك الجربوع بسطح الحوائط، صياح الدجاج حين يهاجمه الفأر، ضحكات رجال هجروا مخادعهم يحكون عن طلعاتهم الجوية والأرضية مع النساء؛ كل هذا كان خلفية متعة تتردد في الإشباع. لم يكن الجنس مع جسد مهدود وروح تتضور التقدير سهلًا؛ تتراجع الرغبة إلى حيز ضيق جدًّا يُملأ

فقط؛ حرصًا على استمرار الحياة واستقبال صباح لا يحتمل المزيد من تقطيب الجبين، وبداية غير متفائلة ليوم قد يكون كئيبًا.

لم أكن لأستجيب له دون مشاعر؛ لا ألمسه، ولا أدعه يلمسني دون محبة. لم يحدث؛ لأنه عين العدم؛ عزلة قاسية كوحيدة في ليل خال من الرجاء. أومن أن كل ما تقبله المهجة انتماء. أستجيب بإنسانية؛ في تلك اللحظات أنا عفوية صادقة واثقة في اللحظة؛ منفتحة على جسده وروحه. كنت مسالمة أبذل رضائي لأفوز بحياة مستقرة. ولم أكن امرأة تستجيب في الفراش ويومها مملوءة جنباته بالكدر؛ فحين تحتدم الموجدة لا يستطيع معي حيلة؛ ولو انقضى عمري في حرمان.

كنا رائعين. تدفقت الحياة كما لو أننا نعيشها لأول مرة، دقائق كفكفت تعبًا وبردت روحًا فاقت حرارتها الغليان.

نمت راضية واستقبلت الصباح بضحكات أطفالي. يبخل خالد بجهده وتجود حليمة بالكَدَر، وبين هذا وذاك أمتثل للحياة بوعي؛ أكسب الأيام وأحتمل.

يمر الوقت فتبرد أحزاننا، نستقبل آلامنا الباذخة بهدوء، ونتلقى معضلاتنا بمزيد من الفهم. في آخر مرة لي أمام الفرن، حيث لا ظل ولا مظلة؛ كانت الشمس حارقة؛ فحجزت الأطفال داخل البيت. أنهيت الخبيز وهممت بالوقوف؛ فلم أستطع، بخوف لمست ركبتي فوجدتهما متورمتين ساخنتين.

لدي وابور بأشرطة؛ لا أشعله إلا للضرورة؛ حتى لا يحتل الدخان فضاء الغرفة فتنعدم تهويتها ويسعل أطفالي. هاجمتني ذكري غرفتي التي دُقت فيها المسامير؛ فتدهور الهواء فيها.

لم أسخن الماء. كأمية وضعته باردًا على جسدي المشتعل؛ فازدادت ركبتاي ورمًا واحمرارًا وصارت حركتي صعبة. واليت الصعود إلى

سطح المسكن؛ حيث وضعت ثلاثًا من خلايا النحل الخشبية تظلها شجرة توت، أتحرى ميعاد سروح النحل لجمع الرحيق مع أول خيط للشمس؛ أستتر بالتوت وسياج من سعف النخيل المجدول ثبته خلف الخلايا لحمايتها من تيارات الهواء، بثوب أبيض قطني أخفي جسدي كله، أغطي ركبتي إلا قليلًا وأستسلم للسعات النحل، ثم أدلكهما بزيت الشافية. أهبط السلم، وأحرق المُر ليبرد دخانه مشاعري، أدهن جبهتي بقليل من زيته لأحظى بالتحمل، باللامبالاة، وفهم الحياة؛ كطقوس العبادة؛ كوصية طبيب لنبي قديم وهو على النير؛ فأكف عن انتظار روعة الجسد، والبرء من العلة وتشف روحي.

وأنا أتلقى لسعاته يوميًّا؛ أتامل كيف يعيش نحل العسل. يستخدم لغة إشارة معقدة للغاية، ليعرف طريقه عبر مسارات من الخلية إلى الزهور تشاركها جامعات الرحيق مع السارحات الأخريات بالرقص الاهتزازي. فاز مكتشف هذا الرقص، كارل فون فريش بجائزة نوبل في الطب. ونحن نعبئ موتور الرش ببعض المبيدات- لحماية محصولنا من الآفات- أفكر، وأفشل تمامًا في معرفة حجم ما تتلقاه البيئة في العالم من مبيدات؛ رغم علمي تقريبًا بحجم ما تنتجه المصانع حول العالم. تضعف المبيدات ذاكرة السارحات جامعات الرحيق؛ فلا تتعرف على مساراتها بين الخلية والزهور. يدين كبار محتكري إنتاج الذرة والتبغ في العالم استخدام المبيدات؛ لخفضها جودة المنتج وتقليل نسبة تلقيح نباتاتها، فماذا عن الإشعاعات؛ الأسلحة الكيماوية، ماذا عن النحل! تعيش في الخلية الواحدة ستون ألف نحلة؛ تزور الواحدة منها ألفي زهرة في اليوم؛ عالم أنثوي بالكامل يقوم بتأبير ثلث محاصيل العالم، ويعولنا. تخزن الملكة المني بعد نزهة واحدة للفضاء المزهر. تلقح الذكور التي لا تحمل آلات لسع بيوض الملكة مرة واحدة في حياتها،

وتموت فور التلقيح؛ ذكور لا وظيفة لها سوى إنتاج المني. تفوز الملكة في عرسها الوحيد بمني أكثر من عشرة ذكور؛ لضمان التنوع الوراثي. فلماذا يفنى هذا العالم الأنثوي! أرتعب من فكرة أينشتاين عن كوكبنا فيما لو فني النحل؛ فلن نعيش أكثر من أربع سنوات بعد فنائه. تفنى الأنوثة فيفنى العالم. وأنا كيف أسير في الصحراء وليس لي دواء سوى الطب الشعبي، ولسع النحل!

تخرج سارة آلات لسع الزنابير من جسدي، تلفني بالطين لتهدأ آلامي. تندي الطين بالماء كلما جف، فأتوق لبل عروقي بشربة محمولة على يديها.

في المفازة لا شيء يعدل الماء صدقًا، والسراب ليس خطيئته. تلهب شمس الصيف الرمال، تُخرج البخار من جوف الأرض ساخنًا، يصير الضوء مبهرًا، تبدو الأرض كبحيرة واسعة عميقة؛ كالسراب، ونحلم بالرواء.

أرسل لي أبي عمال البريمة بالمواسير مع طعامهم، وشاي وسكر ودخان، جسوا التربة لعمق متر؛ فاصطدموا بصخرة. غيروا المكان، كل مرة يحفرون لعمق مختلف وتقف البريمة. حملوا عدتهم ورحلوا. فشلوا في احتفار بئر.

قالت أم محمود:

- ياختي وجوزك ليه مخدش رأي أبو محمود، إحنا جبنا المستنبي المبروك من مطروح، بيمسك عود صفصاف أخضر شبه كدا(رفعت الوسطى والسبابة ضمتهما ثم باعدت بينهما)، زي مبنقول عن رسولنا الكريم أنا واليتيم كهاتين في الجنة، بعدين يفتل نهاية الفرعين على بعض، يرفع واحد منهم شوية عن التاني لو مال فرع الصفصاف الفوقاني على الأرض يبقى فيه ميّه، ودلنا على مكان الحفر. وجيرانا

جابو مستنبي بيكشف بسلسلة حديد، يروح وييجي على الأرض، لو السلسلة لفت وفتلت على بعضها يبقى فيه عرق صخر أو عرق حديد، فيبعد عن المكان، ولو السلسلة ثبتت ومفتلتش يبقى فيه ميّه.

لم نعرف بالاستنباء عن الماء، ولم نعلم شيئًا عن قدرة الصفصاف ولا السلسلة ولا المستنبئ المبروك على اكتشاف البئر. فشلت محاولتنا فى الحصول على الماء من فنائنا الصخري.

واصلت جلبه محمولًا على كتفي؛ فمال عمودي وتزعزعت ركبتي. لم أشف من علة الماء؛ فقد غادرتني بعض حيويته.

-٣٢-

انفجرت عدة مرات خلال شهر واحد؛ حسبت أيامه بميعاد استلام الطحين.

ارتفعت حرارة طفلي جدًّا. تخلو القرية من طبيب. لا يترك لنا خالد قرصًا من أي دواء دون اختلاس. استنكف أن يذهب لـ (الدويجي)؛ كما يسميه؛ رجل يستجلب بعض الدواء؛ يطلب من الصيدلي أن يصف له أغراض استعماله ويدونها على كل علبة؛ فصار صيدلاني قريتنا.

لم يكن لدينا نقود وخالد لا يستدين مالًا من غريب؛ ولو كان طفله على شفا الموت؛ فقط يستدين لسداد دين. جربت كمادات الماء فلم تفلح. احتضنت ابني ودخلنا في كفن من البطاطين. تعرّق؛ فتدفق الماء من جسده وهوت الحرارة ثم ارتفعت ثانية. ألبسته جوربه القطني بعدما وضعت فيه نصف بصلة غير مقشورة تحسبًا لأن يكون سبب ارتفاع حرارته عدوى. بعد ساعة انخفضت الحرارة ثم ارتفعت. وضعت في باطن قدمه شاشًا مبللًا ببياض البيض وألبسته جوربه. انخفضت الحرارة بعدما يقرب من ثلث الساعة. ثلاث ساعات أقاوم ارتفاع الحرارة. فشل الماء في خفض حرارته العالية. تركت الماء؛ فوقت الابتلاء لا يُجدي الكِماد، ولا يأتي البل بالتعافي.

أنفق خالد الوقت في صحبة ونسينا. قال أنه لم يجد الدويجي:

- أنا وأروح في ستين داهية لكن ابنك!

- مش نزلتي حرارته، ليه الزعيق والصوت العالي بقى.

دخل الشتاء. فجأة أمطرت وانخفضت درجة الحرارة بقسوة وصفقت الريح، وأغلقت الباب حتى كاد كف طفلي أن يطير. أعطته حليمة لحافين تقيأ فيهما جدي قبل موته. بحثت عنهما؛ لأستبدل أغطيتهما بأخرى نظيفة حتى الصباح؛ فلم أجدهما. سألته. جدتي طلبتهم. وأنا أتميز غيظًا، أعطاني ظهره. الهانم طلبت حاجتها فما شأنك؟. تذكرت اللحافين في دار عزيزة.

قبل أوان الحَصْد لا تجود الأرض بمال، والبرد لا ينتظر حصادًا. تتكدس الأغطية في المدينة. يتسع الليل في الصحراء. تنام القطارات وأعجز عن السفر لجلب بعضها.

لملمت ما يمكن أن يكون غطاء. خطت أربع ملاءات؛ اثنتين لكل وجه، وفككت المرتبة. أخذت نصف ما تبقى من قطنها، صنعت لحافًا لأبنائي. في الصباح؛ تركتهم معه وسافرت، جلبت بطاطين كبيرة خفيفة كثيرة الدفء.

احترقت الدماء في عروقي؛ حين عدنا من الأرض؛ وكنت قد نسيت أن أجلب الماء. ذبحت طائرًا؛ وحتى يكف عن الرفرفة يكون خالد قد أتى لي بالماء لأغليه؛ وأنظفه ثم أسلقه. متعبة والدماء في يدي؛ انتظرت الماء ولم يأت. يستنكف أن يراه صحبه حاملًا الماء، لكنه قد يجلبه في غيابهم. وقف معهم عند مفترق. تيبس الذبيح كالميت؛ فعافته نفسي وضاع العشاء علينا. ألقيت به للقطط. لطمت وجهي وشققت ثوبي.

استمرت معاناتي من العيش؛ فمزاملة أم محمود تجعلني أنا والنار واللهب الطالع من شاروقة الفرن إلى وجهي أقرب، ونار المِحماة تأكل ركبتي:

- نفسي أدوق خبيز إيدك، جربيني وانا بَرق الرغيف. تململت:
- ما انا ياختي بجيب الحطب، هو فيه خبيز من غير وقيد.
- وهو فيه خبيز من غير تلقيم الفرن بالحطب والعجين.
- طيب، بذمتك انهو أغلي.
- الاتنين في غلاوة بعض ياأمُ محمود، الاتنين شغل ياختي.
- طول عمري بخبز لوحدي، وجوزي رافض مرَه تخش دارنا غيرك لأنه شايفك متربيه وبنت ناس.

كان هذا آخر حوار بيننا وآخر خبيز نتشارك فيه. كان خبيزًا؛ رسخ في وجداني. الفرن بيت للنار ينقي من الشوائب، يخبز ويقتل الجوع، هواؤه نار لافحة يصهر ويحرق؛ وقد يكون أتونًا للعدل يختزل بعضنا.

ثرت بجنون المحترق؛ بعدما تأكدت إعاقتي بسبب الخبيز في الخلاء وجلب الماء ونقل مواسير الري تحت الشمس الحارقة. والاني شقيقي بالدواء. كان خالد يختلسه مني لمداهنة البقال الذي كانت زوجته تشكو آلام العظام هي الأخرى. اختلس دوائي ليبرطل البقال كي يؤجل استحقاق ديونه. قضى على صبري ومقاومتي؛ في آخر صراخ بيننا:
- لا بترحم ولا تسيب رحمة ربنا تنزل، الأرض بإسمك وابويا بيصرف عليها وانا عندك زي العبد الأجير، ودوايا اخويا اللي بيجيبه لي وتستخسره في؟ مش كفاية ان اللي صابني بسببك.
- بسببي؟ مش قلتِ نبعد عن حليمة، وكنتِ بتتقهري لما اروح لها كل ما تطلبني، يا كدا يا تكتب كله باسم اخواتي. ثم داء الركب دا وراثة عندكم، الرفاعي قال مفيش شمس حامية وشقا يورم الركب، وإلا كان زمان عمال المعمار خلصو ياعنيَّه. سببته وأباه وجدته. فاض بي؛ فأمسكت بشريط الدواء نثرت ما به من أقراص، دفستها بمشط رجلي في الرمل وصببت الماء. لم يأبه لثورتي. وربما كان يقصد ما حدث.

يستعجل النهاية للفوز بالبيضاء كما وعدته جدته حليمة، ربما. جلس فوق الرمل يضحك، كمن يقطع الشجرة ويجلس في ظله يستروح.

فتحت الحقيبة وأغلقت صدري للمرة الأخيرة على قنوط. في الفجر والدجاج يقأقئ؛ أيقظت أولادي بخفة. قبل شروق الشمس كنت في طريقي إلى القطار. تذكرت سفراتي إلى أمي، غُمى البقرة وضرورته للحفاظ عليها، زادًا وغُمى الأمهات. لم تمر سيارة؛ ركبنا نصف نقل مع عمال الزراعة.

تكدسنا في المقعد المجاور للسائق. عند إحدى القناطر؛ مال السائق بشدة تفاديًا لسيارة؛ فغرزت السيارة في كومة رتش. حالفنا الحظ ولم نسقط في ترعة السلام. هدأت أطفالي، وناولتهم الحلوى. وصلنا إلى محطة قطار لا يتوقف سواه في إيتاي؛ أقصده لأننا نتعذب في سيارات الأجرة انتظارًا لاكتمال عدد الركاب. المقاعد ضيقة منخفضة، كأننا نجلس القرفصاء.

ركبنا القشاش. أدركناه بالكاد؛ ما أن دفعت بالكبيرين داخله حتى تحرك. علقت في الباب؛ حقيبتي في الهواء، وثالث أطفالي على كتفي يصرخ؛ والركاب يحاولون سحبنا والحقيبة. أدركني أحدهم: إياك أن تسقطي الحقيبة؛ وإلا هويتما تحت القطار؛ تمسكي بها جيدًا. لم أتذكر سوى صراخ وذهول مغيب لحظة موت. نجحوا أخيرًا في جذبنا وإدخالنا إلى العربة. ترك لي مجند مقعده، وقفز على الشبكة العليا ونام. أضحكونا وناولونا الماء، حملوا أطفالي. لم يبرح المشهد مخيلتي، ظل كابوسًا يلازمني؛ أفقد أحد أبنائي أو جزءًا من جسدي؛ قطعة من سراويلي مرسوم عليها اسمي ووجهي تعلق كالراية في مقدمة القطار. وكأن زادًا كان مختبئًا في موقف الموت؛ أسرد ما اختزنته، في أعماقي أكتب؛ كالمبتهل دون مهارة.

يازاد. لا فرح مبهج ولاحزن يُبكي، نهاري يتثاءب وليلي لا ينام، أشتية تختبئ في الأوردة، تتنفس ربيعًا عجوزًا؛ يتسلق الروح كالعليق؛ يغرس القلق في الماء. يا عمري المسجى على السحاب؛ يسكن العتمة؛ لا يأبه لرعشة العمر؛ كالصبح المعلق كعصفور؛ كدعاء الشجر؛ كحلم لم يمت؛ أستبدل الملح بالدمع؛ فتسَّاقط أفراحي في العدم. هل سنتنفس يومًا من وريد واحد ونتقاسم العقيق في المساء؟. الدموع، جرحان بالقلب، والشريان الواصل بينهما أزمنة من الغيم الأسود كالموت. مر على طلاقنا سنوات. ألم تشتق؛ ألست راغبًا في الوصال؟ أجبت على طرف ثوبي ببيتين، مزقته وحفظتهما في وسادتي:

لمْ نَجْفُ أفقَ جمالٍ أنتِ كوكبُهُ

سالينَ عنهُ، وَلم نهجُرْهُ قالينَا

إليكِ منَّا سَلامُ اللَّهِ ما بَقِيَتْ

صَبَابَةٌ بِكِ نُخْفِيهَا، فَتَخْفِينَا(٣٩)

غادرني زاد؛ فعرفت أنه ضاع مني هباء.

في قريتنا؛ تهزم الأعراف القوانين حتى الإنسانية منها. مجلس عرفي بين البدو والرفاعي بموجبه بيعت أرض لا يملكونها. وكما يتنفس النبات من الثغور؛ ينفذ اللصوص من ثغرات قوانيننا المسلية، وبحماقة النصوص تهدر الأصول.

باع الرفاعي أرضنا وطالبه خالد بثمنها. أخبرتني ستي باسمة: (أبوه قال له، إشتغل واعمل فلوسك، تمن الأرض منشال لك، والمثل بيقول: طالب المال بلا مال زي حامل الميه في الغربال، وانت مشتريتش الأرض). وأوفت حليمة بالعهد: (بفلوسك بنت السلطان عروسك). زوجته البيضاء بثمن الأرض.

صافرة القطار حزينة. احتل زاد الطريق والشجر وأسلاك التلغراف وكل فراغات الروح. سارة تهدهدني في موقف الغربة والرحيل، الهجير والسيل، تعودت الطرق أن تغلق أبوابها فيفتحها قلبك يا أمي. أين مني ظلالك تبرد قلبي، أين روحك تحملني فأطيب، أخرج كشرنقة من بياتها الحزين أبسط أجنحتي المغموسة في الانكسار.

مالم نقاوم؛ يبقى الفشل مرًّا ما لم يتهشم فينا، ونبتلعه لنتعافى.

-٣٣-

أعود إلى بيتي لا تفارقني كوابيس الموت والماء؛ تنوع على روحي وطأها المخيف. أسقط من جبل إلى بحر فيعيدني أبي؛ كتلميذ يفقد سلاحه أتهاوى.

أقفز من نهر إلى نهر تتجسد سارة كجسر بين النهرين(٤٠). تطاردني الذئاب وسيد غرابة مدفوعة نحو المالح، يسحبني الغريبان، يحبسونهما في الحاصل.

أقصد نبعًا ينشق من بين الصخور، أقترب منه فيجف، أبتعد عنه فيتفجر، أباعد بين قدمي لأحفظ توازني وتسير المياه تحتي، أنزلق وأهوي إلى سحيق. يسحب السرب جميزتنا العتيقة. يلف الغراب حباله حولها. يسقطونها بين الصخور. أتعلق، يسحبونها لأعلى، يلاحقهم الخفر، تفلت الجميزة ونسقط.

أرفع الماء إلى فمي؛ يتفتت. لا يمس البلل لساني، يصير أضعف ما بجسدي، يهاجمه الرفاعية كما يهاجمون الأبكم بفيض ثرثرة.

أبحث عن النهل كطائر ملأت فمه المياه، ينفجر في الفضاء. يحلق زاد؛ يعيدني غيمة يزرعونها بالملح والحنظل. يلملمني الزاهد في خُرْجِه على حماره ويسير؛ يلبسني على جلده.

كحصان خشبي ملأه الأحباش بالعطش يهاجم الماء؛ أتنقل في هيماء بين مشارب الإبل والينابيع الملحية بحثًا عن رواء. تحاصر حليمة صحرائي.

أسعى من واحة إلى أخرى، أصاب بغليل. يحيطني الماء من فوقي ومن تحتي؛ متجمّدًا كجليد صخري. سرق رفاعية الواطية مخزوني المخفيّ؛ نبشوا بضع لترات ثمينة من حفرة جعلتها لي ستنا. أفرغوا عيني وملأوها بالحصى.

أصرخ راكعة على قمة مائي المنهوب. يخبرونني أن سرقة الماء جريمة. يدفع طارق زيدان الرفاعي أربعين نبعًا ليفوز بجارية في العاشرة من عمرها، يطمر بئرًا نشرب منها ليبني لها قصرًا. تعيد لي الشاهدة حقي المسروق، يقتلونها كبومة معلقة على رأس ثعلب أفرغوا أحشاءه.

يخوض الأحباش والرفاعية النهر بأطواف خِيطت من خيم أهليهم المصنوعة من جلودهم، يسألونني ما الذي يتوجب علي دفعه لقاء ريٍّ؟.

أحمل جُفًّا من الندى، أنثره على قريتنا فتخضر، على سرب النسوان يصير واحة، على نهرنا أعيده على ظهري. أسافر في مفازة، أتسلق جبلًا، أصرخ أنا ربة النداوة يخرج الكلام من جسدي، أتجسد صخرة تصرخ في البرية تنوح فوقي أم عبد الله شحاتة، تدق على صفيحتها تبعد الغربان عن دم ابنها.

تلازمني غدتي الصنوبرية؛ عيني الثالثة ومركز روحي؛ كالميقاتيِّ المعطَّل. من خلف عيني تصلني بمعارفي وترتق أيامي، تقرب أحيائي من موتاي. تفرز هرمون النوم في الظلمة، تواجه عيني العتمة؛ فيصيبني النعاس. يتلكأ الليل؛ فيضطرب الدجى والنور. يتعثر صحوي ونومي، يفشل جسدي وينهار. أستغرق أعوامًا لأتواءم؛ وأنا أتنقل بين الآسن والفرات. تهبني الصنوبرية العطش، شهوة الطل، الموت.

يسرق الباني كفني، أخيط منه لباسًا لحنة فيحرقه، ملحفة مشتاقة للحبل يلبسها الدسوقي كوطواط، يناجيني فتوح في موتي مادًّا إلي يديه بشرابة ذرة. جلست ستي في الفحل تبكي المبروكة كمن غرق حقله.

أحلم بالنهر كسمكة، يأكلني القرش الفاشي يهمهم في فمي كالأبله. يغمرني البلال وأنا كل شيء، الماء أمي وأنا أميَّة. أنادي آلهة العذب والمالح، أتوسل لإله الضباب، أسقط كغيمة حجرية في العراء يدقون فوقي خيامهم ويبولون، يطعمونني ضحكات الضباع، يهذي شاهر أمام دار حنينة.

أشتري عينًا زلالًا في مكان خرب لا يصل إلى قعرها النور، أهبها لسرب النسوان، تنغمس الشمس في المغيب، يتحاشون الاقتراب من العين. الظلام محيط بعيني، تنعق بومة، تهتز السعوف، يتردد في الفضاء السعار المخيف، تبعث عتمة التنور السحيق على الوحشة، يقتربون زمرًا، لا ينزل أحدهم إلى العين، وحده ينزل الغراب.

راعية العين- ستي- تتلصص. تسحب من يسير وحده وتغرقه. أسبح في البئر مع نساء السرب، تجرني إلى الأعماق. يأتي واسع الروح يخرجني جثة من مغارة في بيت ستي؛ من قعر التنور الخالي من الطيب، ينفخ في فمي الحياة، يقبلني، يدقون في العين نخلة يشبحون عليها زادًا. لا أراه ولا يراني. ترسل لنا الباتعة الغراب بالعيش. يقتلون زُعرُب في الجبانة.

أسير بحذاء النهر تلاحقني صورتي على صفحته. أصنع دمًى من الطين تشبهني تمامًا؛ أقدامها أذيال حية. أجدل الأعشاب حبلًا أغمره في قاع النهر، أسحبه لأعلى، أهزه يمنة ويسارًا، يتناثر الطين على ضفتيه بشرًا صغارًا؛ أحباشًا ورفاعية منخفضين يلعقون الأرض. يبكي خنوم وستنا.

أقترب من حقل السلسبيل، أدخله فيختفي كأرض جدباء. أقترب من الضياع، أشَنج نفسي، أقلصها، وأقبضها؛ كما يشَنج الخياط الثوب؛ يثنيه ويقصره. يقطعون رجل زاد الخشبية الزائدة عن نصف قمر مظلم.

على خلاف ما تجري به الحياة؛ السيد في الجنوب وُهب ما يفتقر إليه الناس في الشمال. ينبع شرياني من خارج جسدي على غير مسار الأنابيب من القلب إلى الرئة، أراه أخضر. أبصره مقبرة.

أفقد مائي بالتعرق والتغوط والتبول. كسلحفاة الصحراء يهطل المطر، أدخره في مثانتي، يرشقها رفاعية المدينة لإفراغها في أجوافهم.

ينمو القصب على ضفة النهر، يحتضنه الماء والتربة والشمس تلفحه. تجففه وتشق سيقانه، تضربها الريح؛ فتشدو شقوق القصب بنشيد الناي؛ كأول ما ترنم به الوجود: حنونًا كنسمة، كزاد الرحمة؛ مخيفًا كظلام ليلة تعصف فيها ريحٌ صرصر؛ كالحرابة، كجنون قتل الإخوة.

يمتلئ النهر بالوحوش فأحفظ للماء مومياءه. يصنع الرفاعية والحبش حائطين في النهر عاليين قرب الأوار، يبحثون عن رجل وامرأة سقطا في الآجِن، يقسمان على الخونازية أنهما لم يلوثا الحياة.

كفأر جرابي؛ كالبدال الرشيد أخزن البذور في أرفف داخلي أعيش عليها عامًا. يسرق الرفاعي وحليمة رفوفي الزاخرة بالماء، يهبانني فناء من صخر. تصنع ستنا فزاعتها تمنع الحِدآن؛ واللصوص اللئيمة من سرقة رزقي. يقسم العمدة أنها من الفواسق الخمس، يقتلها. تبعد ستنا النسور الوضيعة عني؛ فتتغذي على بقايا فرائس العمدة. تحلق فوق الماء، تصل إليه قبلي؛ لتسرقه.

كالإبل والمها أخزن الدهن في سنامي، أفككه ليطعمني. تسم ستي ظهري بالنار. تغلق سارة الباب على قلبينا، ننتظر حبيبًا يمحو الدق عن روحي.

عطشى في مفازة. أتحول تارة إلى ناقة وتارة إلى مها(٤١). كالمها يتكدس الأكسجين في دمي يغذي مخي فأنجو. كالناقة أخزن الماء وأواصل الحياة. يرشق الرفاعية كليتي؛ تدفق بالحياة المنحسرة في أجسادهم،

يلهبون شراييني بالسياط. تنزف ليشربوا. يعتزلني الماء والهواء وتتعثر روحي.

أعيش، أحلم كالهاجة؛ «حقت[٤٢]» ربة البعث. أنبش نفقي، أختبئ خمسة فصول آمنة، أغلف نفسي بالمخاط لأحتفظ بالماء. تفجر نساء طارق زيدان الرفاعي سردابي.

ينحسر المطر. كضفدع الصحراء[٤٣] أحمل الماء في خياشيمي. أخزنه. أحفر ملجئي تحت الأرض. أنتظر الغيث. يأكلني الكبار؛ ثعابين وطيور وضفادع وتماسيح، والكلاب البرية. تشربني الضباع، تفرح ستي وتغرد. يلتصق وجهي بفرن أم محمود، تخبز النار على ركبتي.

كالتنين الشائك أحفظ الماء في شقوق بين أشواكي لأشرب، يقصها سيد الرمال الغازي لإرواء جنوده في الصحراء.

كطائر القَطَا أحفظ الماء بين ريشي. أبتعد أميالاً عن النهر لأنجو من العقاب. يستخدمون ريشي مظلات مطيرة في الهجير.

كعظاءة (سحلية) أخزن طعامي وشرابي في ذيلي. يطعمني سيد الثلج الغازي لجنوده المائية ويشربونني، من طوفها تخبرني ستنا عن خسوف القمر والدميرة.

أسألهم عن الكوثر يقولون الله، عن الجدب والقحط يقولون الله. عن النار وطمر القرى يقولون الله.

تتمكن الهاجرة من قريتنا وتصبح الحياة أكثر هدوءًا. توقف الكائنات سعيها اليومي للعيش. هل فشلت في التكيف والتواؤم والتبيؤ، هل ماتت؟. هل أبحر الماء؟

-٣٤-

أعـود من الـهاجـرة يسـاورني شـك بأحقيتي في الحياة، وجدارتي بها. أواصل الـغـياب؛ لأعـود إنسـانة. لـم أعـد للـصحـراء؛ فقد انتظم أكبر أطفالي في المدرسة لأول مرة. لم يعرف أحد ما ألم بي؛ عدا ما رآه كل من حليمة والرفاعي، وأذاعاه؛ تشفيًا. في زياراتي لبابا أثناء مرضه الأخير؛ ألحت علي حنة لأبوح. كتمت. فالصمت بوح؛ ولو في قلب حوت.

تأذت كبد بابا جراء ما دخل جوفه من سم ليلة سفر سارة، لم تقو كبده على التخلص؛ مما عبر جسده من نفايات؛ فامتلأت بطنه بها. قالوا: من مات مبطونًا مات شهيدًا. الصبر للرفاعية.

قضى مرضه حتى الموت في بيت شقيقه، ورفض بإصرار البقاء في الدار الكبيرة لأعوده وإخوتي دون حرج. كبير قبيلة. رائع هو؛ حتى في الموت يأخذ صف إخوته، لا ينصف أبناءه؛ فلم يزل القول للرئيسة. كنت بجواره أبلل قطعة قطن بالماء؛ أعتصرها على شفتيه، أبللهما وأسقيه. شقيقه نائم في الطابق العلوي، وكانت زوجته قد ذهبت لترتاح عند أهلها بعد رعايتها لأبي طيلة ثلاثة أشهر؛ أخبرنا الطبيب أنها ماتبقى من عمره.

أغلقَت كل الحجرات بالمفاتيح؛ فنمت مع صغاري على الأرض في المطبخ المجاور لحجرته؛ لأكون على مقربة منه إذا نادى. في منتصف الليل نادى الموتى؛ سارة وشقيقي وأشقاءه وجدي؛ فعرفت أنه الموت،

وأنه لن ينتظر طويلًا. طلبت من أحد العمال - ويعتبره أبي كابنه- أن ينظف جوفه بحقنة شرجية تخفف آلامه وترد له بعض وعيه؛ وليكون نظيفًا وقت غسله. طالت الغيبوبة هذه المرة. في الفجر تسلق الموت جسده. كنت وحدي معه، وكل ما ألهمت فعله أن تلوت عليه الشهادة؛ لم يرددها خلفي ولا أعرف إن كان قد سمعني؛ فقد فتح فمه وضم شفتيه دون حشرجة ولا معاناة. أسبلت جفنيه، شددت لحييه بعصابة عريضة من أسفل ذقنه وربطتها من أعلى رأسه، قيدت إصبعي رجليه الكبيرين إلى بعضهما بمزقة من ثوبي.

احتضنني خالي الكبير وبكى:

- كدا برضه يامسرة؟ متناديش علي يابنتي عشان نوجهه ونلقنه؟

كان عم جابر شقيق الحاج حسن- سمير بابا وكاتم أسراره- بالقرب. ساخرًا:

- وانت حافظ إيه تلقنهوله؟ دا انت يادوب بتقرا الفاتحه والتشهد بالعافية، وريحة النسوان والحشيش بتنضح من جتتك.

- مش باللي حافظه، باللي في القلب، بالسماحة، ربك بيقبل كلمتين صافيين ولو كانو تهته ومن لسان ريحته حشيش.

أحالني رد خالي إلى قول زاد (لله طرائق بعدد أنفاس الخلائق) [٤٤].

رفض الشقيق إقامة غسل أخيه في بيته؛ كيلا تطارد أسرته رائحة الموت، وتسكنهم. حملوه في الفجر إلى دارنا ملفوفًا في بطانية ككفن مؤقت. راحت الأواني وجاءت بالماء الساخن والبكاء. ارتفع صوت الرجال يكررون الصمدية[٤٥] حتى انتهى الغسل. لم أستبعد رؤية زاد بين المنتظرين جثمان والدي. لمحته ولم يرني؛ كان مأخوذًا كيوم الحضرة. وكالعادة فقدته؛ فقد عاد للمدينة دون لقاء. لم يعرف بتحرري، ولم أشأ أن يعرف صونًا له ولأسرته.

بعد الدفن؛ اتهموني بسرقة الحيازة. أبوكم ضيَّع مالنا، اغتربنا،

وائتمناه ليشتري لنا أرضًا، تشهد ستكم على ذلك؛ كان يشتري الأرض ويكتبها بأسمائنا جميعًا. حق الله ليس لكم أرض. أخبرونا بتكاليف الغُسل والكفن، الصوان والقارئ؛ فسددنا دين أبينا؛ وهو حق لنا مقصة من حيازة صافية له؛ لا لبس فيها. نظرت فيهم؛ آخرة خدمة الظلم ذل ياوالدي؛ أخ عاد مطرودًا من عمله لاتهامه بالسرقة والفساد، وخير بين السجن والجلد، أو العودة لبلده. وكان أبي أثناء سفركم راعيًا للأرض والعائد منها. كِدت أُقتل.

دفنوه بجوار سارة؛ وكنت قد رفضت. قال خالي: دعهم يدفنونه بجوارها؛ فقد كانت تحبه. هجرتني روحي لبرهة، أعادها بقوله، (أبو جوخه وأبو فَلّه فى القبر بيدلّى! والفله هي الكتان السميك الخشن). لم يكن بابا غنيًّا ولم تكن سارة فقيرة، لكن خالي الطيب يساوي بين مقامات الموتى.

كانت قريتنا لم تزل تدفن الرجال والنساء في قبر واحد؛ فجميعهم في عين الله عباده. وكان أبي آخر رجل يدفن مع النساء؛ فقد خصص الرفاعية مقابر للإناث، وأخرى للذكور.

بعد انتهاء العزاء؛ تذكرت طيف الشاهدة- في حجرة سارة ليلة رحيلها- تدس شيئاً لم أستبنه، وقد غيبني موقف الموت فلم أر ولم أتدبر. زارتني وأخبرتني أن لديها حجة الأرض ملكية والدي، ومن بينها حجة قطعة صغيرة اشترتها منه؛ قريبة من الماء وتروى بالراحة. وعدتني أن تعطينيها في الصباح.

عرفوا بزيارة الشاهدة لي. لم يصدقوا أن بحوزتها الحُجة. لم يصدقوا أن يأتمن أبي غجرية؛ فأساءوا إليه بقبيح القول. الحقيقة؛ لم يأتمنها؛ إنما فعلتها سارة. ذهب أحد أشقائه للشاهدة يهددها ويرشوها؛ فأبت. في الصباح كانت غارقة في دمها. في الليل قتله ابنها البانبي، وطلب اللجوء لسرب النسوان!

مر اثنا عشر يومًا على وفاة أبي؛ يممت فيها ستي وجهها صوب القبلة في انتظار عودة ابن آخر؛ كان الرفاعية يقبلون يده كولي. لم تعرف أن خادمته دست له السم بإيعاز من زوجته؛ لشكها فيهما؛ فمات ودفن هناك تنفيذًا لوصيته.

ماتت ستي عن مئة عام وأكثر بقرحة الفراش. رفض قبرها استقبال النساء؛ فكلما نزلوا بالميتة انهار القبر بالرجال، ولم يفلحوا في إنقاذ بعضهم.

بدأ صراع غير متكافئ بين أبناء العمومة من جيلي؛ استدعى زيارات متكررة لقريتنا؛ لم تسفر عن أداء الحقوق. لم أنس في مرة الذهاب للجبانة؛ لأسجل خطًّا وتاريخًا على جدران تضم سارة. تذكرت مسرة، وتمنيت لو حملت حائطها الذي يسكنه بكاء أمي إلى حيث ترقد لأجمع شملهما. لم أعرف فيم كان هذا البكاء؛ فقد كان كصراخ طفل تهدم آخر جدران بيته؛ يطارده المشهد في غدوه ورواحه.

لم يحررني موت أبي من الظلم؛ وكأنه تركه في جيوب بذلاته، جلابيبه، وأركان الدار. وكأن ستي حين ماتت، أودعت- في جدران دارنا- هواءها وترابها؛ حقدًا وهلاكًا.

تذكرت خالدًا والصحراء وفرارًا من الأسر لم ينجح. ظِل زاد يحاصرني؛ صوته وصورته. تنهمر الأسئلة؛ هل تحررت من قبيلتنا وقبيلة خالد لأحظى بزاد في خيالي فقط؟ هل اخترت؟. هل كان لزامًا تقديم كل هذه القرابين؛ حياتي؟ هل كان من ذلك بد لأحظى بحياة أخرى؟. رفعت هامتي للنور؛ فمازال الوقت مبكرًا والقصيدة لم تكتمل، ولم تزل أحداث جمعتنا وأعرفها تطاردني كظلي؛ فأحن للمثول بين يديه ولو بالحديث عنها.

-٣٥-

تخبئ ستي المسبحة الكهرمان تحت وسادتها؛ لتعرف طريقها لكيس السعوط ليلًا. في هذه الليلة علقت سارة مسبحتها الكهرمان التي تنير سحارة ملابسها أمام قاعتها المفتوحة؛ لتكون دليل المتعثر؛ إن قصد بابها. من فناء دارنا ننظر إلى قبة السماء التي خبأت القمر. بدأ القرص يضيع شيئًا فشيئًا في الظلام؛ من هذا المخيف الذي خطف القمر. وعلى حين تغلق الأمهات أبواب بيوتها العتيقة حتى لا يخطف السواد أبناءهن؛ ينقل البعض فراشه إلى صحن الدار غير المسقوف ويلتزمون الباحات، ويستقر بعضهم على أسطح البيوت لحمايتها. تشعل أمي لمبات الصفيح تعلقها على بابي الليل والنهار، وستي تبسمل وتحوقل وتملأ فراشها ثرثرة، بينما تغمر أمي بسيل من الأوامر والنواهي. خرجت خلسة دون أن تدريا.

تلتف حول القمر السحب البيضاء يملأها الندى؛ يعكس شعاع الشمس الذي يسقط عليه فتُرى السماء شديدة الضياء؛ فنراه بدرًا. تصطف الشمس مع الأرض، يسقط بينهما القمر، يدخل في ظل كوكبنا. يحجب عنه الضوء فلا يُرى نوره، ويكون الخسوف. في الجرن يشعل الشباب نارًا؛ على نورها تجمع ستنا الأطفال يصنعون محراثًا عظيمًا؛ يلفون ناف المحراث وسلاحه بالقطن؛ يزينونه بقطع زاهية من ملابسهم. يقف شابان كبقرتين على كل من جانبي الناف؛

وقد صنعت لهما ستنا لحيتين من القطن، وألبست كلًّا منهما زعبوطًا أبيض، يمسك كل منهما بكيس مملوء بالحبوب يقذفانها ويزدرعان ابتهالًا لعودة القمر. يقف شاب ثالث قامته ممشوقة لكنه احدودب؛ كان هذا هو روما القصاص-ابن زهيرة قصاصة الحمير والغنم- حبيب حنَّة؛ صديق زاد وعلي؛ ممسكًا بسلاح المحراث؛ وقد لبس لحية عظيمة وفروة بيضاء على رأسه يشق الأرض للبَذر؛ فيبدو ثلاثتهم كرجال الخير. وبينما هذا هو الحال في الجرن، يخرج الرجال إلى المسجد يدعون الله ألا يطيل غيبة القمر. تخرج العجائز والنساء- في موكب ستنا- ينفقن الظلمة في البكاء، ينُحن حتى يطل منيرًا. يفزع الجميع لنجدة القمر في أكبر مظاهرة تشهدها قريتنا.

على مقربة تناهى لي صوت زاد يسامر أبناءه. سمعت جملًا متفرقة جمعتها: الحرب بين ست وحورس كانت بين أتباع ديانتين أو صراعًا على الملك. سرق حورس خصيتي عمه. فقد رع إله الشمس إحدى عينيه، بحثوا عنها، وطال غيابها؛ فاتخذ لنفسه غيرها، تعود العين المستبعدة. تذرف الدمع، فيسلمها رع إلى تحوت إله الكتابة، يرفعها للسماء تضيء الليل، وكان هذا مولد القمر. في الحرب بينه وبين عمه ست فقد حورس عينه اليسرى؛ فانخسف القمر، فمنحه تحوت عين إله الشمس الغائبة.

أمسكت ستنا بيدي؛ وأنا أرتعد، وانتحت بي جانبًا مظلمًا بعيدًا. جذبتني لأسفل؛ فالتصقت بجسدها. تمنيت رؤية وجهها على نور مسبحة سارة:

- عايزه تعرفي مين بيخنق القمر؟.

لم أنطق، أمسكت بيدي بين يديها الكبيرتين كمجدافين؛ فرميت رأسي بين ركبتيها كشراع مهلهل. دثرتني بثوبها:

- كانو اربع اخوات بنتين وولدين، كل ولد اتجوز أخت. واحد منهم كان أبو الصقر حارس الضيا، فرد جناحينه على السما، وكانت عينيه واحده الشمس والتانيه القمر، عم الصقر قتل أخوه لأنو كان بيحب مراته وعايز يتجوزها. الصقر صمم ينتقم. حِمْيت الحرب بينهم، مسك دحيتين عمه بين إيديه زي الكماشة، وكل مَا يقرب يجيبه الأرض بنات الحور تخنقه، يسوَد وش القمر ويعرف الناس انه بيقتل غريمه، يصلو ويدعو انه يسيب عدوه اللي عايز يتجوز امه، يستجاب لهم، ويسيب القمر عمه لأنه خاف من بنات الحور.

- لكن العم قتل أخوه أبو القمر، ازاي يصلو عشان ينصرو الظالم ياستنا.

- لأن عمه في الشر ملوش مثيل، والقمر مكانش قادر عليه.

أمسكتني صفيحة وعصا. أخبط لإخافة بنات الحور.

ذهبت حَنِينَة إلى الجبانة؛ دليلها في الظلام نبضها يرشدها كالعميان. اشتمت رائحته، تلامسا ووضعا حجرًا أمام باب تربة فتحها البانبي على ميت سابق، وأهمل إغلاقها.

علت الصرخات والدق على الأواني؛ يفزعون بالصلوات:

- يارب إحنا عبيدك يارب، والأمر بإيدك يارب.

يلتقيان، يفزعان؛ تطاردهما الكلاب، ويقتل الخوف شوقهما.

- يلا يابنات الجنه سيبوا القمر يتهنى.

غادرا الطفولة بالكاد؛ وكأنما يكتشف كل منهما الآخر. يصرخ الصغار:

- يلا يا بنات الحور سيبوا القمر يدور.

تهتف البنات:

- فاطمة بنت النبي عملت رز بلبن

حلفت ما تدوقه إلا ان فتَّح القمر.

يغنون، يهتفون، ويصرخون حتى تنسال خيوط القمر واحدًا تلو الآخر؛ كالمحاق يواصل النمو؛ ونحن نرقبه في لهفة. يهل صغيرًا، ونشدو:

- يا قمرنا يا طبق يا نحاس

يا منور فوق بيوت الناس. يعلو صوت المصلين:

- العُدول العُدول. اللهم بارك لنا فيما أعطيت واصرف عنا شر ما قضيت.

ينزل القمر في الفُرَج التي بين المنازل، ونغني له:

- ع الحيطه ع الحيطه وقمرنا نوَّر ع الحيطه.

عيشهم حرث، يقصبون الأرض لتسويتها، يبتنونها لتقسيمها إلى أحواض. يصنعون الملاس كتلة من طين وقش، يركبها أحدهم ويجرها آخر لتنعيم الفحل لينساب الماء فيه؛ فلا يعلو ويغرق الزرع. عيشهم بذار وحصاد. والقمر نصف حياة يدافعون عنه؛ كحارس وأنيس لخيال الحقل والأرض.

تمكث ستنا في الجرن ستة أيام تصنع فزاعات الحقول. في ليلة خسوف القمر وسطوع الخوف؛ يأتي أبناؤها ليفكوا أسره، في أوبتهم لدورهم تحمل كلًّا منهم خيالًا يحرس غيطه؛ فزاعة تمسك- في إحدى يديها الممدوتين على النير- هراوة وبالأخرى منجلًا. عنق الفزاعة يبدو كقبو كنيسة؛ تغطي الرأس بالجوخ(لبدة) فتبدو كقبة مسجد؛ تجدل عليها بعضًا من أعواد القمح فتركض بين ذراعيها روح الحقول. تصنع ستي فزاعات الرفاعية؛ فرعي شجرة تربطهما كصليب، تلبسها كجلباب سيد غرابة، تحمل في طرف نيرها بومة مقتولة في دمها، وفي الأخرى غرابًا نافقًا؛ تبيض الحدآن في الجيب.

حنينة وشاهر يجريان في الغيطان ما أن يلمسهما النور؛ فراشهما الهلع؛ يفترقان ويلتقيان أمام النهر. كان أول لقاء لهما في الخسوف

الفائت؛ لا يترك شاهر وديعته في الجبانة؛ يذهب لها يطعمها ويسقيها ويصطحبها إلى عشتهم. ليلة خسوف القمر هي ليلتهما، تدق القرية صفائحها تهرول خلف الظلام وتصنع الأهالي جلبتها الخاصة. انتصبت شجرته بين عودي ياسمينها. أخذته إلى حقول العنب؛ اعتصر وشرب؛ سال جسداهما. انتفض فرعه وألقى بثماره. وديعة كبرت في سرب النسوان.

يقف زاد بعيدًا. يلمح بطرف عينه شاهرًا يهرول باتجاه الشرق، يهذي بكلمات قليلة يكررها بين صمت وآخر. وقبل أن يرمى بنفسه في الماء، قال:

- درْ درْ دَ سَّه بَن بْ بَن بْ حَنْ نِينَّه. داس البانبي دار حنينه.

ليس للجبانة باب؛ فيلتقون فيها ليلًا. يعرفون تاريخ الموت، وأي القبور يُحتمل المكث فيها. قد تكون واحدة أو أكثر على حسب انثيال الموتى، ثم ينتشرون في جنبات النهار لا يميزهم أحد، أو يهتم لشأنهم. أصابت أحدهم لوثة أو لثغة؛ التئام أو فراق؛ صفاء أو كدر؛ لا يهمون أحدًا كأنهم هوام.

بانت حلمتا حنينة منتصبتين من شُقة ثوبها المنفرجة؛ تنادي شاهرًا وتلمس حرها في يأس واهتياج. لم يدعهما البانبي يكتملان. سحب الكفن من تحتهما؛ وهما على أعتاب جنتهما، وطار به إلى دكان الخياط.

تصرخ امرأة وتهرول مسرعة من ناحية الجبانة؛ عارية كما ولدتها أمها. يسخر الأطفال: الولية الهبلة. يزعق أحدهم: واحد منكم يسترها. ترتدي الأمهات الثريات فوق الثوب ملسًا؛ ثوبًا فضفاضًا من الحرير منسوجًا على النول، مصبوغًا بالأسود علامة الوقار والحكمة، ويظل أبيض ككفن للثريات. هتفت امرأة ترتدي جلبابًا وحيدًا: واحدة منكم ترمي عليها مَلَسها.

ولأن تلك المناسك تتكرر مع كل خسوف؛ فقد أدركها أحدهم ورمى عليها جلبابه، لبسته وسارت إلى بيتها آمنة مرفوعة الرأس مشيعة بأمنيات الخِلفة.

نقل زاد عن زُعرب: يحدث كل خسوف، أرضها ناشفة وطمعانة في عيل، تملأ إبريقًا من البحر، في العادة تقف إحدى قريباتها ديدبانًا قدام التربة، في ركن تخلع ثوبها، تصب من البزبوز وتستحم بماء الإبريق، تلبس ثوبها وتحبُك طرحتها وتسيب الجبانة بهيبة. كان شاهر وحنينة في تربة المشتاقة وهي تصب من الإبريق، تجمدا كتمثالين. سحب البانبي الكفن من تحتهما. صرخا، طلعت من التربة مفزوعة تاركة الثوب خلفها، شافت حنينة وشاهرًا وصفتهما بأبناء الزانية. انكسر إبريقها، قال شاهر: (حتى في القبور يطلع لنا ناطور؟ أبريق انكسر وآدي بزبوزه، مش البزبوز دا بتاع برضه؟).

لمس زاد كفي؛ كأنه يعتذر، وغادر قبل اكتمال الحدث.

اصطف الذكور على جانبي النهر. امتلأت الأسطح بالعجائز وغرقت القرية في حكايات لاجئي الجبانة. نامت على سيرة يجوز وحرام. اشتقت لزاد وقد تركني منذ دقائق؛ هل هو الخوف؟. غمر القمر قريتنا بنوره وانسل من بين الخصاص؛ ناشرًا ظله على الحوائط كفطائر الرحمة.

يعشق زاد وسارة القمر، يعرفان بدورته في السماء، ويحزنان لفزع قريتنا. تقول سارة للمرأة شق القمر منه يفور الدم، ويسمي زاد الحيض والمرأة؛ القمرين. يؤكد: لدينا أقمار الأرض.

تبحث سارة عني، تشير لها ستنا باتجاهي. سرنا متجاورتين أمًّا وطفلة خرقاء. أوصلتني للدار، عادت للجسر تاركة الأسئلة تشتعل في صدري.

سمعت أمي شاهرًا يهذي، وانتبهت لهيئة حنينة. سحبتها من يدها إلى المرحاض؛ صبت عليها الماء وألبستها سروالًا وثوبًا؛ ثم سارت بها نحو الفرن؛ بسطت فوقه حرامًا، وضعت لها وسادة وأمالت رأسها؛

فأخذت وضع الجنين، دثرتها بلحافي؛ فنامت. سألتها عن حنينة؛ فلم ترد. عن شق قمرها تفركه، وثديها نافر؛ فلم تجب. عن بلبل شاهر لونه أحمر على غير لون بلبل الأولاد وهم يتعرون؛ فلم تلتفت.

سمعتها تبلغ عيدًا عن ميعاد ولادة الناقة، وعليه بإبلاغ رزق.

وكحدث لم أرَ مثله من قبل؛ تعلقت بثوبها لتتركني أذهب مع عم رزق. ضغطت يدي برفق، صحبتني إلى الناقة. وقفنا بعيدًا في ركن مظلم من الشونة. ما أن بدأت آلام المخاض؛ حتى نظرت إليَّ واضعة سبابتها أمام فمها؛ فالتزمت الصمت. مع بزوغ الرأس ونزول الدم؛ سحبتني بهدوء وخرجنا. رأت مني غضبًا صغيرًا؛ مالت على جسدي وتقابل وجهانا:

- سبتك تشوفي الجمال الصغيره بتيجي منين، خلاص، عيب نكسف الناقة.

اعترضت، واستمهلتها الوقت لأرى:

- الولادة زي الأكل، لو حد بحلق فيهم ممكن يقف ومينزلش.

- إزاي منبصش على اكلنا واحنا بناكل.

- على أكلك، إنما بيت الوِلد، جسم المخلوق كله وقت الولاده والعشار، وقت الشوق اللي مش مقضي..، كل ده مش أكلك، دا أكل غيرك، متبصيش.

وأعقبت بتساؤل حزين: فهمتِ؟. صمت.

ما هو الشوق غير المقضي؟، سؤال لم أثره ولم تجب عنه. كان هذا هو درس الطبيعة الأول. لا أنظر إلى جسد مشتاق أو مهتاج أو يتوجع، أو إلى اثنين في عناق أو يهدهد أحدهما الآخر. تعلمت الخجل وتبجيل الجسد.

صنعت أصنافًا جديدة من الطعام ودعتني قبل إخوتي لتذوقها، أعجبتني واشتهيت؛ نظرت لي بغضب حنون: قلت لك دوقي بس. دقت بس.

متبلعيش ريقك ومتفتحيش بقك لو شفتي ما تشتهيه. ولم تزد.

من يومها وأنا أشتهي في صمت ولا أنظر في إناء الآخرين. في الصباح استفاقت حنينة، لم تعد تلمس ثدييها ولا حِرها، تغدو وتروح في البيت كأنها صاحبته. أخذت طاجن الحليب من عيد شربته حتى كادت تلحسه. أنظر إلى الحليب بغيظ؛ وهو يسيل على جانبي فمها، ويبلل صدرها، تستقر رغوته فوق شفتها العليا وأرنبة أنفها. استعملت المرحاض، خرجت منه قبل أن ترفع لباسها. أخرجت وعاء الأرز من الفرن؛ تأخذ منه بكلتا يديها بالتناوب. حقدت عليها. أشد منها الوعاء، أهددها أنها لو لم تخلع ثوب أمي سأمزقه عليها، سوف أصف شق قمرها وثدييها للبنات؛ لو لم تكف عن الأكل بطمع، سأضربها على بطنها حتى أفرغها. علا صراخي في حضور سارة. أذكر جيدًا معنى كلامها: واضح أن كلامي عن الناقة راح في الهواء، وتذوقك الأكل قبل إخوتك لم يؤثر فيكِ. أستعيد اللحظة بحزن ياأمي. غطيتها بلحافي وتركتها تعبث، ألبستها ثوبك، خرجت من المرحاض قبل أن تسدل ثوبها وبانت مؤخرتها لم تنهرها، لمست حِرها لم تنهها. سال الحليب على صدرها، أكلت الأرز بكلتا يديها معًا ولم تخاصمها!

ارتبكت، نظرت نحوي بأخلاق الأمهات المحيرة؛ لأبنائهن قيد الفضيلة، وللغرباء التسامح والتغاضي عن نفس القول والفعل. رغم أني أحب أشياء صغيرة: الأسئلة تشير إلى السبل، السماء ينيرها القمر، الأخضر يملأ الحقول، الزهر ينبت بين الصخور، الحقيقة في الجبانة، عاشق يطير، بَر الجذور، عيني أمي وستنا. لم أرتكب خطيئة، لكنها سارة.

تسامح فى الشوق البخيل، الحلم الضنين، ولا تسامح خفيفة القلب والطوِية؟.

خاصمتني وما كنت لأحيا حتى الصباح.

-٣٦-

طفلان على الباب؛ اختلى بهما الفرح ذات صباح. روما القصاص؛ وهو - دلع رمضان كونه يشبه الخواجات- ذو بشرة خليط من الحليب والخمر، وشعر بني فاتح. وحنَّة ابنة خالة علي؛ تنتمي أمها للرفاعية بالمصاهرة، فهي أخت أم علي من الأم. ذهب بالقرب من بابها. حِنة؛ ناداها خرجت إليه بوجه عكره النوم على بطن خاوية ووسادة ليلها حجر. تواجها وقد وقف السلم متخفيًّا وراء الباب الخشبي المتهالك؛ وعيونهما الصغيرة ترفرف كالأمل. الدار ببابها ثقب كالقلب لاستبيان الطارق، أحاطاه بالأحمر بعود خشب تركه رجال التعداد. أجابت الألوان عن أسئلة كبيرة تجاوزت عمريهما. تشابك قلباهما الصغيران في اللعب، وتقاسما لقيمات ساخنة من وراء الأمهات. ذهب رمضان. دخلت فأرسلتها أمها لاستدانة غربال من الشاهدة أم البانبي.

دقت الباب العالي المثقوب بعين خشبية. لم تصل قامتها بعد إلى منتصف ارتفاعه. حين لم يجبها أحد، دقت مرة أخرى. اشتمت رائحة تبغ قوية ورد صَوت خشن يستمهل السائل؛ وهو يسعل:

- أصبر انا مش واقف ورا الباب.

لم ترد وعاودت الدق؛ فصرخ:

- يخرب بيت أبوك انت مركب وتد في إيدك.

كفت عن الخبط، عندما سمعت صوت أقدام تقترب من الباب.

فتح فطفقت منه رائحة كعرق الماعز. بدت هيئته غريبة وهو يحمل الفأس؛ كان على وشك الخروج بحثًا عن عمل. أول ما وقعت عيناه كان على ترمستيها الجالستين فوق ضلوعها. أنزل الفأس ووقف إلى جوارها يقيس طولها. لمس بين فخذيه وهرش، قال بصوت مرتعش:

- حِنَّه!

لم ترد عليه، سألها بعصبية:

- عايزه إيه يابت، ومالك لابسه توبك على اللحم ومن غير لباس، هي امك انهبلت يابت؟ هه، وريني كدا..

ابتعدت. سحب طوق جلبابها؛ فبانت سرتها وشق قمرها:

- شفتي، فيه بت تمشي في العزبة صرتها وخرمها باينين.

سحبت طوق ثوبها من يده، وصرخت:

- أمك فين يابا بانب؟ أمي بعتتني نستلف غربالكم.

- أمي بتخبز للبداروه ياختي، مأجرينها اليوم بطوله، وهتخبز عيشنا عندهم. استدارت لتغادر المكان، قال بصوت أقل عنفًا:

- استني ياختي نشوف الغربال يمكن يكون متعلق جار الفرن.

دخل وبقيت واقفة أمام الباب؛ فصرخ:

- انت عامله فيها عزيزة! إقفلي الباب يابت ألا الطيور تهج على بره، ادخلي ياختي واقفلي الباب وراكِ.

أغلقت الباب عليه ووقفت في الخارج. أعتمت المسافة بين الباب والشونة. أسرع مغتاظًا كمن لدغه زُنبور. فتح الباب وسحبها بقسوة إلى الداخل. نهق الحمار فسبه. حاول جادًّا أن يجد لها الغربال، وحين وجده حركه يمينًا ويسارًا كمن يحمل دفًّا، رفعه لأعلى، دق على خشبه كما يدق المداحون: الغربال يا حِنة. مدت يدها تأخذه، لكنه ناوشها به، ثم وضعه على رأسها وراح يهزه خفيفًا؛ يغربل الهواء فوقها. تململت وأفلتت رأسها من حصاره. أسقطه على صدرها ويده

تدق بخفة عليه. مالت تلتقفه. قبل أن يسقط سبقها وخطفه، علقه في المسمار، وحملها بين يديه، ثم رفعها عاليًا؛ فبدت كعرقة (خشبة) بين ساقي حائط. صرخت من الخوف؛ فوضع يده على فمها وأنزلها ببطء؛ وهو يحك رجليه بساقيها وصدرها، ثم استقر جسدها كله بين ساقيه، وصارت عينها في سرته، وأنفها مغروزًا في رائحة عشب عطن. قبض على جسدها النحيل بشدة؛ ويده تراوح بين فمها تغلقه وعينيها تغمضهما. أجهدها انعدام النور والهواء حتى كادت تفقد وعيها. خفض جسده واقفًا. فتح ساقيه ووضع وتده بين فخذيها وجلدها به؛ وهي على جسده كثوب بالٍ. دلك حلمتيها بعنف طحنهما والتهمهما، والتقم فمها كله بين فكيه. نخر وذهل ورهز وغمغم بكلام غير مفهوم. رفعها حتى بللتها شهوته؛ فأسقطها ببطء بين فخذيه؛ ولايزال ممسكًا برأسها بين كفيه. حكه بجسدها يتخلص مما بداخله ومسحه في ثوبها، استعدله تحت ثوبه، رفعها مرة أخرى لكن إلى صدره، احتضنها فاقدة الوعي وأنامها برفق على المصطبة. جاء بكوز ماء محلى بالسكر، سند ظهرها إلى صدره، ربت على خديها بخفة حتى فتحت عينيها. وضع طرف الكوز بين شفتيها وأماله حتى بللهما الماء، شربت فتقيأت، لطمها على فخذها. قبَّل رأسها:

(حِنه، إوعي حد يعرف ياختي، أمي وامك هيمسكو في شواشي بعض وفضيحتكو هتبقى بجلاجل في العزبة، خدي الغربال أهوه ولو امك سألتك غبتي ليه، قولي لها رجلي عترت في العتبة دُخت ووقعت، وابويا بانب جاب لي أُميّه بسُكر وزقاني، وغُلب لحَد مالقى لي الغربال).

سارت في سرب طويل؛ ترك الأطفال فيه غبار لهوهم. كان الغربال دفًّا يتأرجح في يدها؛ فتميل معه أينما مال. دخلت دارهم وقد غادرتها أمها تاركة كوب الشاي فوق المصطبة يحوم الذباب حول فوهته، علقت الغربال ونامت.

دق الباب. تقلبت تتوجع، ناداها روما لم ترد. جلس بجوارها لم تلتفت، جرها إلى الحلم كالأسير:

- ابويا بيلم السنابل فى الغيط.
- وابويا بيلم السمسم حوالين البيت.
- امى بتملا القنديل.
- وامى بتخبز عند ام خليل.
- تعالى نرسم.
- نرسم إيه؟
- هاتي بس السلم.
- وطلعت من جيبي الطباشير، ورسمنا قلب على باب البيت.
- بس انت مشيت.
- رحت لأمى اللي بتستلف زيت للقنديل.
- وأنا ناديت على أمى وهي بتخبز عيش لأم خليل.
- وأبويا وابوك لساهم فى الغيط.
- ولساها حيطان البيت مشقَقَّه.
- وكف ابويا بِتِشْلِب شقا.
- والسنابل والسمسم ...
- مالهم؟.
- هيخلوا عيشتنا ضيقه؟
- تعالي نجيب السلم.
- تعالى.. ليه؟
- نرسم بيت.. شجره وعصفور بيزقزق.
- انا عايزه بيتنا محندق.
- لا..لا.
- لا؟ ..ليه؟

- انا هرسم بيتنا واسع جدًّا.
- علشان عصفورنا يطير ويزقزق؟
- وعلى سطوح بيتنا ييجي اليمام ويعشش.
- وتبقى الشجره مركب.
- ونركب.
- نخلة طويلة.
- نخله طويله جدًّا جدًّا.
- وسقف السما هيقرب.
- ونجيب الغيمة.
- تطرح تمر.
- وتملا جيوبنا حَب.
- وندهن حيطة البيت.
- ونملا القنديل زيت.
- وامى تبطل تخبز لام خليل عيشها.
- عشان تاخد أُجرتها حَطَب ووقيد ورغيفين عيش.
- وتبطل تخبز عندها عيشنا.
- ويبقى عندنا حطب ووقيد.
- وشجره ونخله.
- ومركب.
- وبيتنا تملاه ريحة العيش.
- ونعيش.
- بتحبينى ياحنة؟
- ابويا مات وامى لسه مجتش!

تركها روما في الحلم غاضبًا.

عادت أمها، قبلت رأسها بحنان؛ فلم تفتح عينًا. أخذت الغربال؛

نسفت كيلة ذرة و كيلة قمح، وجهزتهما للطحين. استيقظت حِنة على ألم جسدها؛ خاصة حلمتيها؛ فراحت تحكهما بعنف وتتفل عليهما. لمحتها أمها، وفزعت إليها: مالك يا حِنة. أجهشت حِنة. عياطها لا يشبه بكاء الأطفال، كأن المسافة من دار الشاهدة حتى دارهم أضافت إليها أعوامًا من الثكل. استمرت في حك حلمتيها والتفل على فخذيها. استرابت أمها؛ فكشفت ثوبها تبحث عن شيء؛ وهي تشتم جسدها. لمحت على فخذها لطخة جافة من المني، ورائحة تبغ قوية تفوح من ثوبها وشعرها. اشتمت أنينًا موجعًا يمزق الروح؛ فتلاطم قلبها بين جنبيها. وضعت المحمَّ فوق الكانون وجهزت غيارًا لحِنة. وضعتها في الطست وصبت على جسدها الماء الدافئ. دلكتها بقوة؛ كأنها تدعك ثوبًا وسِخًا. باعدت ما بين ساقيها وحملقت، اطمأنت أن العذرية في أمان. وضعت في الماء قليلًا من مغلي الشيح والخبيزة الإفرنجي وشطفت جسدها. دعكت حلمتيها بحليب الصبار، كما تفعل الأمهات بأثدائهن لفطام الرضع. جففتها في ثوب أبيها وألبستها قميصًا ولباسًا وجلبابًا، ورقَتها. أجلستها قبالتها:

- إحكي لي يا حِنة قولي يانور عيني مالك، مال جسمك، مين مَسّ توبك؟.

بعد استعطافات وتدليل وتعنيف؛ قالت حِنة ماحدث وبالتفصيل، وأنهت بوحها بتهديد البانبي.

رمت أم حنة حملها على زاد. نقل لعلي اليسير منه. تركت الأيام تمر حتى يُنسى ما يتوجب نسيانه. أحرقت بعض الصفحات دون أن يقرأها غريب. مرت الأيام وبقيت حروف اشتعالها؛ تحتفظ بالنار أسفل رمادها حتى يأتي أوان إحمائها.

-٣٧-

مرت الأيام على أم حِنة كالنار. جمعتان وأرسلت حِنة عند خالتها أُم علي. دقت على باب الشاهدة أم البانبي.

- يسعد مساكي ياختي. حِنَّة بعافية وكنت عايزه الباتعه تساعدني في الخبيز، وكله سلف ودين.

نادت الشاهدة على ابنتها. جاءت الباتعة تمسك بيدها جلبابًا قديمًا. في البدء سبقتها إلى الأمام، ثم عادت تسير بحذائها تطمئن منها على حِنة. أتت بأنجر العجين، وضعت الطبلية وبجوارها صحني الردة والدقيق. ماهرة في بط الرغيف وسريعة ولاحقتها أم حِنة في التقاف العيش وقذفه في الفرن. تسامرتا وتضاحكتا؛ فلم تشعرا بالوقت. جاءت أم حِنة بصحن عسل وآخر ممتلئ بقشدة من جاموسة أم علي، صحن مخلل وعيش ساخن. شبعتا. وبينما ترفع الباتعة الصحون، دق الباب. فتحت أم حِنة، وتهلل وجهها:

- علي! إيه جابك ياوله بقى لي زمن ماشفتك! غمز لها بعينه.

تركها ودخل. لمح بقايا الأكل؛ فسحب يد الباتعة التي كانت تهم برفع الطبلية: كلي مع علي عيش وملح!

نظرت إليه بدلال! ياخالتي أم حِنة! تعالي كلي مع علي.

لم ترد عليها؛ نشرت العيش على الطبلية وغطته بجلباب أبيض تملأه الثقوب، وضعت بعض الأرغفة في الغربال، وغطتها بجلباب الباتعة

الذي خلعته بعد انتهاء الخبيز وتركته أعلى الفرن، صعدت للسطح. زاد علي، أكلت معه الباتعة وهمت برفع الطعام. جذب ضفيرتيها؛ فمال جسدها عليه. أمسك نهدها بعنف وعصره ووجهه يفيض غضبًا. شدت جسدها منه؛ حتى كادت تترك ثديها في قبضته. جذبها مرة أخرى، شلح جلبابها بقسوة؛ فأسرعت تسدله على فخذيها. كتف يديها خلف ظهرها، ووضع إصبعه الوسطى بين إليتيها وحركه بعنف. ندت عنها صرخة. أمسك رأسها بقوة، وضع سبابته في منتصفه، وجعله محور ارتكاز يلف جسدها حوله. واجهته ورفعت كفها تلطمه. أمسك بيدها ولواها خلف ظهرها. تألمت وبكت، خمشت وجهه بيدها الحرة؛ فدفعها حتى وقعت على وجهها بجوار عليقة الحمار. لم يدعها تنهض، خلع وتد الحمار، وهم بوضع رأسه بين فخذيها، رفست الوتد بعزم ما بها وضمت فخذيها بقوة. من وضع الجثو على ركبتيها متكئة بمرفقيها على الأرض؛ امتلأ فمها بالشوك. بصقت في التراب. همت بالنهوض، عصر ثدييها بقسوة؛ فتقوس جسدها بالألم. وقع عليها بعنف. أتاها من خلف؛ فأسال دمها. تذكر حنة، هم بقلبها لنيلها من قُبلها، تذكر تهديد خالته (هنفضحك).

لا يأكلون اللحم اشتهاء، لكنهم يبذلونه في صراع العار والموت. أهانها لبقية عمرها، رفعها عن الأرض، ناولها الماء حتى هدأت هدوء الذليل. وقفت لتأتي فعلًا لا تعرف ماهو. قالت: ياخالتي أم حِنة أنا ماشية.

سمعتها من بعيد: مدي يدك خذي غربالكم.

رفعت الغربال على رأسها فاكتمل الحريق. خرج علي، ركنت خلف الباب حتى غاب. نزلت أم حِنة من أعلى. سارت في السرب المعفر الطويل، وعادت بابنتها؛ وهي لم تدر بعد أنها فتحت بابًا أرادت أن توصده. منعت حنة من التجول في القرية أو اللعب مع الصغار في غير حضورها، أو على مقربة منها. صارتا كظلين؛ إن افترقا سارت عليهما الضباع.

ذهب علي إلى الخدمة العسكرية. بعد شهر ونصف عاد جائعًا. عطف على دار خالته. رأى حنة. لم يعد يلاطفها كأخته الصغيرة؛ بل صار منها مرتابًا. سألها عن خالته: عند أم بانب تساعدهم في الخبيز.

هرش رأسه ونظر إليها بسخرية؛ فنظرت نحوه ببراءة.

أدار وجهه مغادرًا. قابلته خالته؛ وفوق رأسها صحن العجين يعلوه الغربال تدفُق منه رائحة العيش، وضعته على المصطبة. قبلت جبينه؛ فقبل يدها:

- حمد الله على السلامة، مالك يا بني خاسس ووشك اسود؟:.

نظر إليها والدمع في عينيه، ثم غطى وجهه بكفيه:

- الجيش صعب قوي ياخاله، خصوصًا على الغلابه، احمدي ربنا ان ملكيش ابن، كان زمان قلبك مفطور عليه.

- كلامك خايب ياوله، انت ابني، وبعدين الجيش بيعمل رجاله.

- طيب ياخاله، انا واقع نوم وأكل.

- أكل! هو انا أكلي زي أكل امك، ولا في داري خير زيكم؟.

- أكلك يهنا لي ياخاله، ودارك ترد الروح أكليني يسعدك.

- عيني يابني العيش سخن وعندي خبيزه بايته، مخلل وقدرة فول مليانه. انا معنديش حاصل زيكم انما بركة ربنا حاصلة.

- عايز نتجوز الباتعه ياخاله.

وضعت خبزها جانبًا، هشت حنَّة باتجاه خُن البط: طلعي البط الصغير، حطيه في الغلق واطلعي به فوق، اطلقيه في الشمس، وخلي عينك عليه ياعين امك؛ لغاية أما نناديكي. نظرت لعلي:

- بتقول ايه يابني، الناس دي مانعرفوش لهم أصل، دول غجر ونَوَر، جابهم رجل غريب قالو عليه ابو العيال وجوز الوليه، اشترى لهم دار ولا شفنا طوله بعد كدا، بيروح فين بييجي إمتى، بيبات في دارهم ولّا لأ محدش يعرف، انت عارف ابوك وامك يعملو فيك ايه، بلاش دي،

عارف يعملو في شاهده وولادها إيه، دول يولعو فيهم، أهلك رفاعية يابني.

وكأنه لم يتكلم منذ شهر ونصف؛ انطلق كالنائحات:

- ياخاله انا غلبان وحالي على قدي. ابويا قاعد في الدار عاجز بيروح يشخ واحنا مسندينه، واخويا شفط الأرض كلها ولا بنشوفو منه ابيض ولا اسود، وانتِ عارفه امي باعتها له بعقد باطل من ورا ابويا، قال إيه ناصح وهيصون خير ابوه، خايفه ابويا يموت على خوانه وهي ماتقدرش تزرع ولا تقلع، خايفه يكون ابويا متجوز من وراها ومراته وعيالها يقشطونا، أمي ظالمه وكمان كَبَرت ياخاله، والظالم على افتراه قليل الحيله، ياخاله دي بتحتاس كل ما تيجي تجوز بنت من البنات تتحايل على اخويا يدفع شوار اخته، تشحت مال ابوها لاجل تجهزها، ولساها بتطبل له. وبعدين باتعه غلبانه، وانت عارفاها؛ وتكه وشهله ولهلوبة في شغل الدار والغيط، وإيدها خفيفة.

- من ناحية إيدها خفيفه فهي مأصله يعني، سلسالها كله. اما اخوها بقى انت عارفه فلاتي، غير كدا حرامي كفن.

- ياخاله انا زي اليتيم، إلهي يسترك خديني منابك وانصريني.

- عارفه إن أمك مفتريه وظالمه، خليها علي وعلى ربنا يابني.

راحت تتوسل لأختها وساطة لعلي. خلع جلبابه وبقي في اللباس والصديرى بعد أن فك أزراره. سمع خبطًا على الباب.

لم يتحرك، زاد الخبط ففزع. ينام في ماء منذ ذهابه للجيش، نهض فتعثر وفتح:

- باتعه، كنت بنحلم بيكي يابت، مين قالك اني رجعت؟.

- مش جايه لك، خالتي قالت لي نعدي نردِم مطرح الحمار ونغيَّر فرشة البط على بال إيدها المجروحه ما تطيب. لم تذكر أن زادًا أخبرها بعودته.

شدها فابتعدت تعزز وجودها؛ فالقرب لا ينقذ عِزة. وقفت ترتعش، جلس وأشار إلى المصطبة. قعدت:

- انا قلت لخالتى تجوزنا يابت.

جذبها إليه فابتعدت؛ كِبرًا تزيد الكلفة:

- انت نسيت اللي عملته فيا، بأنهي عين عايز تتجوزني!

همت بالمغادرة، أمسك بيدها فانتفضت بكرامة ودون استكانة:

- انا كلت ونفسي في الأكل تانيِ.

نظرت له بحدة:

- سامحيني، عرفت قيمتك، انت بت جدعة، سامحيني، انا مشوفتش زيك، هاتي الطبلية وباقي الخبيزة وصحن الفول وحتة جبنه ومخلل وعيش ناشف.

رمقته بفزع. تجاهلها. جاءت له بما طلب؛ أكل بشهية للمرة الثانية. انتهيا من الطعام؛ رفعت الطبلية وجلست تنتظر. مد يده من طوق جلبابها، راح وجاء بظهر يده على التينتين فامتلأتا، عصرهما بين أصابعه فارتخى جسدها، ومال يقاوم. شدها إلى جسده ولمس شفتيها فانفرجتا، تناول السفلى بحنان وشهية فانهارت. كانت عيناها على الباب؛ خوفًا أن تقتحم أم حنة. طمأنها. استرخى جسدها، ومالت على جسده؛ فكانا كفرعين. رفع ثوبها وجال بين فخذيها فارتعشتا واستنفرتا كفخذي فرسة على أهبة الجري. استمر في استكشاف جسدها. أنقذها من السقوط فأنامها على المصطبة ورمى عصبة شعرها، حل ضفائرها وغمر وجهه فيها، اعتصرها وألهب سرتها بالقبل، فاض عليه جسدها الدافئ فضمته. قبلته ونامت في حضنه مستكينة، هم بإدخال عوده في عروتها؛ فلم تكمل شهوتها:

- إلا كدا، نلت مرامك ورميتهم عليا مرة، ماتجرحنيش ياخويا.

غام وجهه وتضاءل حاله. انتبه، تذكر التهديد (هنفضحك).

حضنها وقبلته. لملما جسديهما وأسدلا ثوبيهما. ضفرت شعرها، جفلت بعيدًا، حين تذكرت المرة الفائتة؛ لهيب الإهانة وطقوس الذلة. تصافحا كغريبين. وجاءها سؤاله ساخنًا:

- هتيجى إمتى تاني عند خالتك ام حِنه.

- على كل اللي حصل بينا، قلبي مصفاش لك، وياعالم، لو اخويا بانب عرف انك كنت هنا، وانا وانت لوحدنا يبقى لا يمكن هنخطي عتبتها تاني.

ابتسم بيأس؛ وهو يغمغم: حتى الفلاتي يغار على شرفه!

الأهوج المستخف، يغادر باب العشق المفتوح على مصراعيه مستجيرًا بزاد.

-٣٨-

ألم بهما شوق؛ زاد وعلي، أرقهما التلهف فأطار النوم من عيونهما. سارا بمحاذاة النهر، ثم عطفا على حوائط البيوت يتبركان بها؛ فتسقط لياستها الطينية بمجرد لمسها. ضحكا: اذا غاب الماء وجب التيمم.

لم يهدف زاد إلى التلصص على أهله؛ بل سماع شكواهم ومناجاتهم ليلًا؛ وهو على ثقة أن من بينهم المحتاج ومن يقض الوجد وانقطاع الوصل مضجعه، بينما كان علي يتنسم ريح الباتعة. وقفا يكتمان ضحكاتهما:

- بالرَّاحة ياجابر، يووه!
- هو دا فيه راحه يابت؟.
- ياخويا قطعت حشايا!
- الله مهو لازم يابت، يابت لاعبيني ونلاعبك.
- ياخويا مبتشبعش لعب؟.
- طب قولي لي براحه ايه، قولي متنكسفيش، برَّاحه إيه؟.
- ياخويا برَّاحه وخلاص، هو انت مبتعتقش، ليلاتي على الله، هو انت فاكرني بربخ؟ دا انا بني آدم وطول النهار شقيانه.
- حقي منين منعوز، وفي نهار رمضان اللي بينا وبينه يومين.
- يانهار اسود يانهار اسود رمضان ياكافر!
- لا مش كافر، من برا برا، وعلى فكره ياختى دا كلام الشيخ.

- يانهار اسود يانهار اسود!
- وحتى لو شقيانه مش عاتقك غير لما تقولي، متدخلش..جامد.
- ياخويا، دا انت كأنك بتدك مدماك، كأنك بتغرف بمسطرين.
- ياحلاوة النبي، ايوه كدا، مدماك ومسطرين، اسمه ايه بقى؟.
- لهو انت متعرفش اسمه بعد العمر دا كله، كل مرة تسألني!
- لا ياختي عارف بس بدي نسمع اسمه منك، يابت ياحلاوة انت، قولي لي، طب اشمعنى انا بنقول اسمه، وبنقولك افتحي ياوردة واقفلي ياوردة وامسكي ياوردة، يابت دا الصح، الله يخرب بيتك يابقرة ياجاهلة، طب تعالي بقى وذنبك على جنبك. فجأة سمعا صراخ المرأة:
- كله الا كدا، انت انهبلت، من ضهري؟ ربنا يخيبك، هتخرب بيتنا، ودين النبي ان مبطلت العمايل دي، لنروح لأبويا.
- لا والنبي إيه، وهتقولي له انك غضبانه ليه ياوردة، هه، ولعلمك بقى ابوكي عارف الحاجات دي، وهو اللي بيقول لي، انخر ياوله وعلمها، الاستحلا بييجي بالقباحة، وعلمني أساميه، وحفظت أسامي بتاعكم، وقال لي: حول رحلك ياوله، يعني من ضهرك ياختي مش عيب ولا حرام، بيقول لنا بعد ما يختم الصلا: (الرجل زي الفحل يطلَّع البذر، فحل الطلوقه يابت مش فحل الغيط)، (والمره لازمًا تمكنه من حرت فحلها، يعنى بيرها يابت، وكمان وهو جواها يضحك لما يدخل ويسكت لما يطلع). يالا ياوردة عشان ابوكي يكيِّل لك لو شم خبر انت غضبانة ليه ومغضباني منك ليه، ولو كنتِ من ضهر راجل قولي له، ولا نقولك، يالا يابت، يالا نروحو لابوكي وانا اللي هنحكي له، يالا ياختي، ربنا يخرب بيتك طيرتي التعميرة.

مرت دقائق لم يسمعا فيها صوتهما، همَّا بمغادرة الحائط، توقفا حين سمعا نخرهما وصراخهما بالأسماء التي تجادلا حول البوح بها أو كتمانها.

- طيب ياخويا استنى عيل بقى، بعد كل مرة من دي بنشيل، وخلاص مبقاش فيَّ حيل تركبني يوماتي، ومبقاش فيَّ روح للحبل والولاده، يعني لازمًا تجيبهم برا من هنا ورايح.

- يخرب بيتك، عايزاني نموت عيالي، هتقهريني يابت؟.

- ياخويا المثل بيقول: يزعل عشيري ولا نعشر انا.

- طب فزي، فزي ولعي قولاحة وهاتي الجوزة.

مرت ليلة الجمعة، وكان موضوع الخطبة عن العزل وحرمته كأحد الوأدين، وعن عظم ذنب التي لا تمكن زوجها من معاشرتها متى وأينما وكيفما شاء، وإثم التي تغضب زوجها وتدفعه للاستمناء، أو الزنا، أو إفراغ شهوته في أنثى الحيوان. ما حفظه الرجال من خطبة الجمعة ساروا يرددونه في الطرقات كاكتشاف:

﴿نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لكمْ فَأْتواْ حَرْثَكمْ أنَّي شِئْتمْ﴾ (٤٦)

سار علي ينغز زادًا في جنبه:

- مش كِدا يا جابر، آه ياجابر، يالهوي ياجابر، وكتاب الله لو البت باتعه معملت اللي اتعلمته الليله من جابر، لنكون مطلقها.

بعد صلاة الجمعة سار زاد مهمومًا، يحدث نفسه: الحروف كلها خوف، أبجديتنا غامضة؛ فيض من الأسئلة يحجب الشمس. تحت رازونة سقيفة يلتقي فيها الرفاعية للتدخين واحتساء العرقي؛ ترك كفيه في مجرى الضياء، تسلل النور قانيًا، اقترب السقف منه حتى خاله يطبق عليه كخفاش.

استفسر منه علي؛ مالك يازاد:

- عارف ياعلي يعني إيه (أَنَّي شِئْتُمْ)، يعني الرجل يزرع البذرة مكان الخلفة، في قُبُل المرأة، في المكان اللي بينزل منه العيل، مش زي ما قال في الخطبة والرجاله فهمو ان معناها مكان متحب ووقت متحب. والله شيء يقرف ان الواحد يزرع مكان مبتِخْرَى مراته. سكت زمنًا، ثم قال:

- ومقرف ليه، ان كان بعبله وبعبلها بريحة الغيط والجِلَّة بيدخلوا في بعض وينخرو. في اختلافهم رحمة. غلابة والله.

كانت ليلة ونهار حزينين. حكى زاد تفاصيلها ولم أستطع إعادته لطبيعته. ليلة السبت ظل ممسكًا بيدي ناظرًا في عيني ذاهلًا؛ كأن ما بيننا قد انقطع:

- زعلان ليه يازاد؟.

- حزين يازويده، عارف انك عايزه تسألي، وإن كل اللي حصل بين جابر ومراته جواه ميت سؤال، وخطبة الجمعة كلها شوك بينحت في عقلك.

- قول اللي عندك يازاد.

- الحكاية في دخول اللحم في اللحم لو حصل غصب أو من غير إنسانية ضاع، زيه زي الأكل، مينفعش ينحشر في الزور من غير نِفس. الرجل ممكن يدخل لحمه في أي حاجه، في كف إيده في تقب شجرة طرية فتحة معزه أو كلبه أو حمارة، ولو ملقاش ممكن بعودين رجلة يمضغهم في كفه ويجيب فيهم لاجل تسكن النفس اللي لو انغصبت جمحت زي حصان من غير لجام لو شاف جمل، تهيج الروح ويعميها الغضب زي الجمل المخزِن. ويمكن يبكي بعدها، ينقهر أو يموت أو يعيش زي المربوط، محتاج يرتاح لكنها راحة تشبه العذاب. الراحة بتيجي مع الحب، مع المحبة والود، اتنين رايدين بعض بحنان وصفا في نفس الوقت، زي آدم وحوا.

- يعني إيه مربوط؟.

- فهمتي كله يازويدة بس دي اللي صعبه، أجلي السؤال دا.

- طيب، ما احنا بنحب بعض، وبنحضن بعض من غير لحم. (لم نكن قد اختلينا كزوجين حتى اليوم).

اقترب مني واحتضن ذراعي؛ فلامس عضده إبطي وجانب ثديي. انساب جسدانا وسرى دفء في عروقنا. انتبهت الي أن هناك شيئًا

يرتفع تحت ثوبه؛ انتصب، كأنه عصاة، ابتعدت بجسدي فجأة كمن مستني نار. غام وجهه وارتخى ما تحت ثوبه كغصن ذبُل. أمسك بيدي قبلني ودغدغ وجنتي، فتح أزراري ولثم، سرى في خدر، على جيدي طارت فراشات، وعلى جسدي رمح الخيل. نزع ثوبه، تكدس الشوق لمسًا وعطفًا كرائحة الياسمين. لملمت جسدي وخجلت. همس على صدري: نحن زوجان، لاتخافي. لست بخائفة.

امتلأ وعاؤه مرة أخرى انتشينا. احتضنني، قبلني ولم تفارق يده يدي؛ شممت رائحة طَلْع النخيل والعجين الفائر. قبل أن يلبس سرواله؛ وقف قبالتي ناظرًا في عيني يستلهم منها الأسئلة. رأيت ذكره غير مختون؛ ارتبكت، غير أني تذكرت رائحة الطلع، أذكر أنه أوضح. هو ابن أمه الوحيد، عيالها ماتوا واحدًا تلو الآخر، واحد منهم مات وهم يختنونه. مات أبوه وكانت أمه حاملًا فيه، خافت أن يموت، حلفت لن تختنه.

تغاضيت ورضيت. لمس فخذي الموسومين بنار إبرة الوابور، مسح بوجهه عليهما، قبلهما وبكى. أوصلني بالقرب من الكباس، قبل يدي ودفعني برفق، انتظر حتى غيبتني الحوائط. لمحته سائرًا خلفي. كان عيد يصرخ أمام دار العمدة

اختبأت خلف باب الليل بدارنا، وتسمعت:

- كنت نسيبه راكب على بطنها لغاية منجيب لك اربع شهود يعاينو ياظالم؟

- انا مش ظالم ياسافل. دا كلام ربنا، بعد البسملة؛ قال:

﴿وَاللَّاتِي يَأْتِينَ الْفَاحِشَةَ مِنْ نِسَائِكُمْ فَاسْتَشْهِدُوا عليهنَّ أَرْبَعَةً مِنْكُمْ﴾(٤٧).

صمت قليلًا، ربما يستوضح أثر استشهاده على عيد، ينتظر رده. أردف:

﴿**لَوْلَا جَاءُوا عليه بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاءِ فَأُولَئِكَ عِنْدَ اللَّهِ هُمُ الْكَاذِبُونَ**﴾[٤٨]. صدق الله العظيم. استأنف:

- نعرف منين يا كلب انك مبتفتريش على مراتك، نعرف ازاي، شفت العود في العروة على رأي الحاج حسن، شفت بعينك يافالح، لو قلت شفت هنحلفك على الخونازيه قدام الجامع بعد صلاة الجمعه.

- ومعملتش كدا ليه مع الدسوقي لما دخل على زنوبة وطلعوه من تحت حرامها، مشبحتوش ليه زي زاد لما اتجوز مسرة على غير رضاكم، ووالِست مع ابوها وستها وفرقت بينهم من قبل ميدخل بيها، ليه طَلَّقتوا الدسوقي يسرق ويزني، ليه سرقتو انشراح من فتوح واديتوها له، ليه يابو غفر بينطو لنا زي العفاريت كل ساعة، ليه سبتوه ينط على المحصنات ويهددهم بالفضيحة زور، ليه قطعتو ودن زنوبة وخليتوها معيره لا تنفع جواز ولا قعدة خزانه، وحكمتو عليها بالشرمطه؟.

- انا شفت ياكلب.

- شفت الخياره في الطماطمه، هه؟ لازم تحلف على الخونازيه انك شفت، ولا عشان مراتي رفاعية وزنوبة غريبه.

- لهو انت راسك براسي عشان تحلفني.

ثمة تراجع بان في صوت العمدة، أكمل بتردد:

- مشفتش العود في العروة، لكن شفت هدومها مقطوعه.

- أحيه ياعمده وهي دي أماره انه كان برضاها وانها الخاطيه.

- آ ياخايب، هي إيه اللي مقعدها من غير جواز، ليه قاعده بين اربع حيطان وحدها إلا لو كانت غاويه اللي ينط عليها.

- يانهار اسود، انت ياراجل معندكش دم، بتكدب وانت لسه بتقول اربع شهود، عرفت منين انها عايزه؟

لم ينتظر العمدة هذه الجرأة، وكعادته حين يحاصر يبدي غير ما يُبطن:

- قصدي ينط على حيطها، يستوطي حيطتها يا واطي. وأنا طلبت اربع شهود عشان نستر على المحصنة اللي هي مراتك اللي اتجوزت نطع زيك، بنحوش العار عنك وعن عيالك ياخرونج[٤٩]، واللي محصنتش روحها يلزمها الستر في إيه؟.
- اما انت راجل قبيح واللي يمشي وراك يبقى نطع وديوث.

جلس العمدة على دكة في مدخل داره. أعرفها، حين حُبس زاد، وذهبت لأراه بوساطة الحاج حسن. ترك عيدًا يصرخ:
- يارجل ياكداب ياموالس، قال هات اربعة، ومحتاجه الستر في إيه، روح ياشيخ إلهي يبتليك بنصيبه، ولعلمك مش هنعمل زي رجالتك، انا هنشعِر بربابه في العزبة ان مراتي طالق. سمعت صوت رجل في قاعتها مشيت على طراطيف صوابعي وقفت في الضلمة ونور الوناسة فضحهم، شفتها تحته راكب على بطنها ورجليها ملمومة عليه وهو طالع نازل فيها فحت وبينخر. شفت بعيني ياعمده وبالعند فيكو هي مش حبلى، وبالعند فيك انت بالذات هنقول ان شهادتي وعنيا انا كفايه، وربنا بس يحاسبني لو ظالمها، بتقولو اللي بيفتري على محصنة بيحصله ويجرى له، انا بقى راضي بحكم ربنا في، وابقى احبسني لو رجل، ولمعلوميتك، هنقول لعيالي لو سألوني امكو مصانتش العِشرة وعشقت غيري، بتحصل، واللي هيلطها أو يشرم ودنها هنفتح بطنه، مره خاينه وما يتأمنلهاش وخلصنا، كفرتونا وسودتو عيشتنا ربنا يخرب بيوتكم، ياللي بتحكمو بميت ذمه لو اللي شفتوه ابنكم، تقولو محصلش وتطرمخو ولا تقولو اربعه ولا خمسه، لو المشكوك فيها بنتكو تغصبو رجلها يعيش معاها، ولو موافقش تجرسوه وتغربوه وتاخدو عياله، يالّلا يا ابو الدسوقي اللي نكرته ورميت امه تلف تشحت رغيف ناشف وعرق لفت.

تركه يفضي. تسللت خارج الباب وسارة ترقبني والقمر بدر. كتفه الخفر وأركبوه حمارًا ينظر إلى مؤخرته. تهمته:
حرامي سرق عرق خشب، وشالوه حالًا من فوق زنوبة في قلب قاعتها. يضيف العمدة فضيحة أخرى لأم ابنه الذي أنكره.
أنزله زاد عن الحمار، وصحبه علي إلى سرب النسوان.
وقف زاد أمام العمدة؛ بصوت عال تردد صداه في سكون الليل: لو أنت رجل اعترف بنسب الدسوقي ابنك.
انضم الحاج حسن إلى زاد؛ طالبًا من أخيه العمدة إعلان نسب الدسوقي، وشبحه بجريرة ما فعله بزنوبة العمشة، علق على طرف عصاه سروال العمدة الذي تحتفظ به أم الدسوقي بعدما سمع عراك الحبش والرفاعية؛ فخاف أن يمتد عراكهم إليه وينكشف ستره؛ فخرج مهرولًا من فوقها دون لباسه.
لم يجرؤ أحد على الاقتراب من الحاج حسن أخي العمدة.
اندهشت لنجاة الحاج حسن في كل مواجهة. نظر زاد باتجاه الخمارة: لكثرة مشايعيه وبأسهم حتى ولو تبعوه سرًّا، ولكثرة ما ينطوي عليه صدره من أسرار وفضائح الأهل؛ يكتمها سترًا وكرمًا.
تسللت إلى حضن سارة أرتعد.
شُبح زاد الذي لم يكفه خطيئة اللف والدوران؛ بل أعلن أن الدسوقي ابن زنا؛ والزاني هو العمدة؛ كبير التبة والواطية وما بين الجبيلين ومفتيهم.

-٣٩-

أبناء الحدادين جواهر، قالت ستنا. شريك زاد في الألم والمسرة، فرحًا ومشبوحًا؛ يقفز على كتفه ليمسح رأسه وفمه في جبهته ووجنتيه؛ وهذا هو اعتذاره عما لم يرتكب من إثم، ثم يضع بين يديه ما يطيق حمله من طعام. غريب الابن الوحيد لزُعرب- من امرأته الوحيدة- رابحين الغازية. كان غريب غريبًا؛ لا يبلغ طوله قامة قزم، يحبو بين المقابر يأكل من أيادي زوار الجبانة وعشاقها، والمشتاقات للحبَل. حين يعطش أو يجوع في غياب أبويه، يشرب من شقفة أسفل نصف زلعة ينمو بها الصبار فوق لحد الغرباء، أو يمضغ الورق الندي والثمار. يشاهد الثعالب والتفوّه فلا ينهار، يسمع عواء الذئاب فلا يفزع. يحتفر التربة خلف الغربان تدفن بقايا مما تأكل، يذهب إلى أبيه بالعظام؛ فيدفنها في لحد الغرباء. يسير بمحاذاتها كصاحب، يشاركها الخبز والماء. يخطف أحدها رغيفًا من مشنة زائرة، يركض غريب خلفه يعاركه حتى ينتزعه من منقاره ويرده لصاحبته، يربت بذراعيه المزغبتين على المشنة؛ تعطيه العيش وبرتقالة. لم يحزن أبواه من هيئته؛ وقد نبت له شعر رمادي اللون ناعم وخفيف كريش النعام الصغير؛ ملأ ذراعيه حتى شارف رقبته التي يطل عليها وجه بلون غيمة في يوم صحو. يتلألأ قوس قزح في زغبه القاتم على ذراعيه؛ فينبئ الباحث عن مكانه. ظل إبطاه وباطن ذراعيه ناعمين، لهما مع

ساقيه لون شاهق البياض. يحمله زعرب على كتفيه، تتدلى رجلاه على صدر أبيه بأصابع يعلوها الزغب الأبيض. ما أن يصلا الشونة؛ حتى يقفز من على كتف أبيه كطائر. علمه زاد الدوران، لكنه لم يستطع النفخ في الناي؛ لعجزه ولقصر نفسه واختناقه كلما هم بلمس العود؛ فيبكي حين يحاول الغناء، ولا يسمع منه سوى صوت كبَغْبَغة من يشرب الماء؛ فالناي آلة هوائية؛ يخرج منها النغم بدخول الهواء إلى تجويفه؛ يدفعه العازف من فمه؛ فيخرج من الثقوب المحفورة على سطحه؛ متلاعبًا بأصابعه محدثًا نغمة من كل ثقب فيه. لا تسعفه أصابعه ولا أنفاسه؛ فعلمه زاد الضرب على الدف. يقفز على رؤوس شركاء الشونة؛ فيدورون به ويحلق معهم. أحبه ذوو الرحمة. هندمت له سارة ملابسه وأعطته زيادة. له روح أهل الله، لا يحمل ضغينة لأحد، ولا يأمل في شيء سوى الارتماء بين أذرع محبيه. يعشق السكر وعسل النحل كدب صغير. يجري بين نخل الحاج حسن يلتقط الحَصَل الساقط؛ أول ما يدرك من ثمر النخيل قبل تلونه؛ له طعم لاذع والثمرة كثيفة الألياف. يمرض من يأكله ويهضمه غريب دون بأس. يشرب العرقي من يد عبد الله شحاتة، ويحتضن ساقيه بذراعيه. يتنقل بين أفرع الشجر برشاقة، يسير على الأرض ثقيلًا كبطة تمتلئ حوصلتها بالحصى، وبرزخها بالبيض. يعلو كمنطاد كما لو كانت رئتاه مملوءتين بالهواء. يضع أبواه الأشياء بين ذراعيه شبيهي الجناحين؛ يذهب بها إلى مقصدهم؛ فيزدان المكان بالفرح. تيمنت النساء بخصاله؛ فأسمين أبناءهن باسمه؛ غريب. وصار هو المائز بينهم؛ هو غريب ذو الجناحين، وأسماه بعضهم غراب الجنة، والأغلبية أسموه الغراب وكفى؛ تمييزًا له عن كل غريب. يغني زاد له وحده فى غياب الأولاد. كثيرًا ما حكى له الحواديت. يبتهج فيدور كنحلة يقبل الحوائط وزادًا. مراسل سرب النسوان والمحبين؛ زاد ومسرة

وسارة، علي والباتعة، روما وحنة، شاهر وحنينة. في البدء كان يلَقن أسماء أحبته وأعدائه، يقف كالببغاء طيلة النهار يردد أسماءهم في همهمات لا يدركها غير ثلاثة؛ زاد وأبويه. كثيرًا ما ضلَّ السرب في غياب ثلاثتهم، حين ينقل خبرًا أو يستطلع عدوًّا، وكان يكفي حضور أحدهم. علمه زاد الحروف باستعمال جسده؛ وجهه ولسانه وشفتيه؛ بعدد رفات ذراعه؛ الاتجاهات حين يأخذ استدارات الشمس في الإشراق والمغيب؛ أن يصف النهار؛ فيأخذ ذراعاه شكل الشمس؛ والليل؛ فيطويهما كالقبر. كان يفك وثاق زاد في الأسر.

-٤٠-

في الغرب حائط يفصل أغلبية بيوت أهالي التبة عن الغيطان، ويحيط كالسلك الشائك بدار العمدة؛ دار أم حِنة تقف على شمال الجبانة وعلى طرف سرب النسوان. جلست حنة في فراشها القديم تنتظر. تأخرت صاحبتها. في الطريق إليها كانت مَسرة بائسة تعاني وجع الرأس؛ سهدًا يتجدد ووجدًا؛ ثمالة لم تكتمل وآثار خمر لم تشربه. لم تنظر في عيني زاد كما حلمت. كانتا على ميعاد قبل خسوف القمر:

- شكلك فرحانة يا حِنة، أكيد شفتِ روما. باحت دون تردد:

- اتحقق المراد يا مَسرة وباين ان روما عاشق، والله عاشق.

قبلتها في جبينها:

- ولا كان عندي أمل ان روما يبوح، باح يامَسرة، قدام أمي وستنا وكل الشباب في الجرن، واحنا بنحضرو خيالات المآته.

ضحكت في عبها ورقصت:

- فرحانه، طايره جوا توبه النيلي وعصايته في إيده ولا فارس، وشه الحلو بيرْعِش قلبي، زنده يقف عليه صقر، يالهوي يا مَسرة لو شفتيه وهو مشمَّر كمه وبيرفع الخرزانه يلاغي بيها العيال ويرقص، دُبت دوب وهو بيُحْبُك طاقيته البيضا المغزولة على جبينه، يامه لو شفتي عينه وهو خاطفني ومقعدني على كتفه وبيفك ضفايري وشفايفي، يالهوي.

عادت مَسرة للوراء رافعة حاجبيها مندهشة:

- على كتفه يا حِنه؛ بيفك شفايفك؟.
- آ..على كتفه. كأنها تستكمل حلم النخلة وعصفور يزقزق:
- هو حرام؟.
- لا مش حرام، إحلمي يا حِنه.
ضحكت كمهرة وأكملت:
- وَلاَّ ريحة عرقه، ولا الدم بيبُك من عروقه وهو بيشيل العيال يحدفهم ويلاعبهم على كوم التبن.
تورد وجهها وأكملت:
- مبقاش عندي صبر يا مَسرة، عايزاه ياختي.
خجلت عندما لمحت الأسى يكلل وجه صديقتها:
- سامحيني. وزاد يا مَسرة؟.
- زاد! ولا لمحته، كانو حابسينه، هرب ولا عرفت مكانه.
بعد حديث الفرحِ والأسى؛ سمعنا نعيب الخفر آتيًا من الغرب. قفزنا لمعرفة سبب مجيئهم إلى سرب النسوان. وقفت النساء تتقدمهن سارة: سيبوا سرب النسوان، دايمًا تقفوا على بابنا تجرحونا وتخوفوا عيالنا؟

حاول شيخ الخفر أن يبعد سارة، بينما تحلقت ما يقرب من مئة امرأة وفتاة وطفلة يحملن المناجل، الشباب والصبْيَة يحيطون بهن. توتر الخفر؛ فأطلق شيخهم طلقة في الهواء تبلغ العمدة أن الوضع شائك، وقد يكون في حضوره حل، أو أن عليه إرسال مدد. بضع دقائق وشوهد طابور من رجال الشوم يخترقون الغيط المحاذي. اصطفوا في مدخل السرب في مواجهة النساء. حين رآهم الأولاد تمترسوا في مطلع السرب أعلى التبة يحملون النبل، الطوب وكسر الفخار. شيخ الخفر يصرخ ببذاءة؛ مطالبًا النساء والأطفال بدخول بيوتهم والبقاء بها؛ لا يبين لهم طرف؛ مرددًا أقوال العمد والمشايخ التي يحفظونها في كل

مكان وزمان؛ العصا لمن عصى. قالت سارة بصوت مسموع موجهة كلامها لشيخ الخفر، وكانت أم عبد الله شحاتة في ظهرها؛ تحمل منجلًا:

- مش داخلين..

اقترب شيخ الخفر من سارة باستنكار. أنكرها وهو يعرفها:

- وانت بقى وكلوكي عنهم، دخلك إيه وانت مش من السرب؟

أزاحها بعيدًا بسلاحه. اقتربت أم عبد الله شحاتة منه؛ حتى كادت تلامس أنفه شاهرة منجلها، صرخت ومعها الأطفال:

- إلا سارة يابن الكلب!

واصل وهو يقلب نظره فيهم:

- بنفذو كلام العمده عايزين زاد الهربان. إنتو بتتسترو على مجرم بيقلب الناس على الكبار، واد ملوش كبير؛ لا عمدة ولا شيخ ولا غفير.

حالت أم عبد الله بينه وبين سارة:

- زاد مش هيطلع من هنا، وانتو اللي لازم تمشو من السرب.

دقت النساء على الصفائح بالمناجل. صاح الأطفال، ورموا الخفر بالطوب؛ وشيخهم ينبه الجميع من مغبة العصيان. بَعد استنفار عاد الهدوء. يشير ببندقيته موجهًا كلامه إلى سارة:

- جانا مرسال من العمدة نمشو، وراجعين لكم لازمًا ولابد، والقانون يِعلا ولا يُعلى عليه، ومن مصلحتكو تسلمو زاد، وهتسلموه ولو بعد حين.

قاطعته سارة بحدة؛ وقد واجهت نساء وأطفال السرب:

- لا دالوقت ولا بعد حين، مش هتاخدوه، مش هتشبحوه تاني، مش هيحصل إلا لو قتلتو كل أهل السرب.

أمن الجميع على كلامها. هم الخفر بمطاردتهم؛ فبدأوا في قذفهم بالنبل، وعلا صليل المناجل. اتخذت بنادق الخفر وضعية التصويب؛

إلا أن طلقة في الهواء من شيخهم ألجمتهم:
- لولا ان العمده أمرنا مكناش مشينا غير وزاد منشال مرابعة، وعلى أي حال راجعين لكو تاني.
لو شاء العمدة لهدم السرب على ناسه، لكنه يتحسب لنارٍ ستأكلهم جميعًا.
للسرب أقارب وأصهار وذوو رحم من الفرعين، كما أن له الحاج حسن وزادًا!
ارتفع صليل المناجل، ولعلعت مواويل الانتصار. بدأ حاملو البنادق والشوم في فصل الصف عن بعضه. شقت الفضاء صرخة الأطفال:
- أوساخ موالسين ولاد كلب.
تهشم صف الخفر. غنى السرب:
- يامفارق، لو جيت سربنا تاني، سيب روحك عند المفارق، قول لهم مسافة السكه، افتح اللحد يابا وافردي يامَّه الكفن ع الدكه.
في سعيهم للنور: أبدعوا ثقبًا بحجم الحياة، وأفلتوا أياديهم.
ظل زاد مختبئًا يحميه السرب: الحاج حسن: عائلة عبد الله شحاتة: أولاده مرتادو الشونة، وبعض الأحباش والرفاعية.

-٤١-

كلما عاد علي من الجيش في إجازة، يذهبان إلى الجبانة وتحاول الباتعة أن تحول بين مائها ومائه. في حلق المغرب؛ يستتران في ظلمة قريبة، أو يسرقان الوقت في دار أم حنة. في أولى إجازاته؛ طحنت حفنة من البلح والحنظل والكافور، عجنتهم بعسل النحل وبعض من ألياف الكتان، صنعت منهم فتيلًا وضعته داخل فرجها. في ليلة مناسك الخوف؛ قبل ليلتهم الأولى التي لمس فيها شفتيها باطمئنان؛ وضعت في المجمرة بعضًا من حبوب الشعير وأشعلت نارها، خلعت كل ملابسها وارتدت جلبابًا سميكًا ليس به إلا فتحة واحدة تدخل رأسها بالكاد. تحت حمالة زير قديمة؛ وضعت المجمرة، وجلست عليها تستقبل الدخان في قبُلِها. ذهبت إليه ومرت الإجازة بأمان. تجتهد قدر طاقتها حتى لا تحمل وتعلو بطنها قبل إنهائه فترة الجندية. في هذه المرة لم يحتمل شوقها الحذر؛ فهو في إجازة لمدة أربع وعشرين ساعة فقط. وحتى تتجنب ماتخشاه؛ شربت في الصباح كوبًا من الكرفس وأزهار حشيشة الدِّينار المطبوخين في الزيت ونقيع الشَّعير المختَمر. كادت أن تتقيأ معدتها، شغلت نفسها، راحت وجاءت في الدار تحلم بعينيه وحنانه وجسده؛ فهدأت بطنها واستقر فيها الشراب. التقيا ولم تحمل. في إجازته التالية؛ تذكرت دماء ليلة الدخلة التي تعلن على الملأ براية؛ كيف ستنجو من إخوته؛ وأمه؛ كيف ستنجو من البانبي

أخيها. تركت الوصفات وقررت أن تشيل حملها:

- أنا حبلى ياعلي.

التمعت عيناه بالفرح، ثم انطفأتا:

- مش ده اتفاقنا يابت، يابت انا لسه مخلصتش جيش.

اقتربت ومررت يدها من فتحة سيالته دلكته بخفة. أخرجها:

- انت اللي هتنئذي من حَبَلِك. اسألي امك الحبل يسقط ازاي..

تنتظره بشوق أرض عطشى للمطر، فيذوب في الشقوق.

- خلاص ياعلي قطعت شوط، لولا عضمي عريض وحوضي واسع كان حبلي بان من بدري، خلاص معادشي ينفع، النهارده لو عملتها نروح فيها وبرضه الفضيحة طايلاني وطايله اخواتي وامي، والمثل بيقول ياخويا: اللي تحبل في فرن تولد في جرن، وانا مش عايزه الفضيحه لضنايا، اعقد عليا بالفاتحه واتنين شهود؛ زاد والحاج حسن:

- اخواتك ايه وامك ايه يابت، دول فضايحهم ماليه العزبة.

- فضايح ايه ياعلي؟.

- انتِ عارفه، مش بس امك واخواتك البنات يابت.

- هم أهلي دول اللي جرأوك عليا لما بهدلتِني بوتد الحمار.

- آ ياختي، انت متعرفيش الحكايه اللي عمري محكيتها لك، ومش هتعرفيها مني في يوم، لأني لو تفيتها تنزل على وشي.

ألجم غضبه قبل أن يضطر للبوح بسر حنة. لم تفوت الثأر:

- بس ياعلي انت عارف ان امي واخواتي مش ناس سوْ، مش معنى انهم بيسرقو الغيطان والدور يبقو خاطيين، احنا بنلمو السنابل من الجرن، بنجمعو (تصييفة القطن) اللوز اللي بيسيبو صحابه بعد آخر جنية قبل قطع الحطب، ننجدوه لحفه ومخدات ونبيعوها،

بنبيعو غلة وطيور وناخدو عرقنا، وان ضاقت علينا بنسرقو قوتنا يوم بيوم، احنا معندناش أرض، ومحدش بيشغل الغجر ولا يوثق فيهم، انت عارف العزبة حبلتني انا واخواتي، وانت لاقيت دمي على حجرك وتوبك يوم ما دخلت بيا. احنا حراميه لكن مبعناش جتتنا، صيت الغجر زي مهو في بالكو مش طايلنا، حطينا وربينا، كَبَرنا وسط الفلاحين، خدنا من طبايعهم ونسينا عيشة الغجر، ابويا اشترى لنا دار بينكم، الحسنة الوحيدة اللي عملها لنا، انه رمانا وسطكم، كبيرنا رحل وسابنا بينكم وهو متطمن، وان شافنا أو طل علينا يبقى في الخِفا، وهو خايف زي اللي عليه تار، ومش ذنبنا ان اخونا حرامي كفن، ولا فلاتي زي مبتقول، ياخويا اللي بيشيل شيله تكسر رقبته لوحده، متاخدناش بذنبه.

امتلأت عروقه بالدم يأكله الثأر، وأوشك أن ينطق باسم حِنة:

- بس اللي اخوها فلاتي متسلَمش، ربك مبيسيِّبش، والحجر الداير لابد من لطه، ومن داس عرض الناس ملزوم يندام في حد من عيلته، ومسيره يلاقي في قلب داره فضيحه، ويمكن ينقطع دابره، وبكره تشوفي:

- بتدعي علينا، بتدعي على البنات بالحبل واخويا ينقطع دابره.

- انا فطمتك عشان متفكريش انك سليمه، آ. والحق حبيب الله.

- واللي عملته فيَّ عند خالتك أول يوم خطت رجلي عتبتها، لما قلت لي كلي مع علي عيش وملح، كان حق وكان حبيب الله، الله ياعلي، بتجيب سيرته ليه وانت مش سليم ولا بتخافه، بتكرهني فيك ليه، انا قلت يابت المسامح كريم، ده حبيبك سترك وغطاكِ، وميصحش تعقدي له العداوة في قلبك، خبر ايه ياخاين العيش والملح، ده انا ياخويا حبلى وهنبقى امُ عيِّلك.

يتعذب؛ لا يعرف إن كانت حنة سليمة ولم يجرحها البانبي.

لم يخبره زاد. رآهما وهي تحش برسيمًا لماشية أم علي، عقدت البرسيم بشاشها، نادته يساعدها في رفعه على رأسها:

- حنة بنت خالتك صاغ سليم وبختم ربها، خليك فاكر ياعلي.

في الجبانة لا مكان تختبئ فيه الباتعة ولم تشأ، وقفت بتحد لكن بلين: مسا الخير ياخالتي أم حنة. لم ترد عليها، شالت البرسيم وغادرت شرقًا.

قبل يدها ووضعها على صدره. شدتها ووقفت، شدها لتجلس، صرخت. انكفأت عليه؛ فلحق بها. احتضنها وقبل رأسها. مسد بطنها، قبلت يده. صمتا طويلًا حتى غفوا. يده باتجاه شفتيها؛ وكأنها صلبت. احتضنها وسند رأسه على التربة؛ فسترتهما. انتبها مفزوعين، فضحكا. خبأ كل منهما غضبه واشتعل حبًّا:

- اسمعي ياباتعه، انا صحيح ابتديتها غُشْم وسفاله، لكن انت عارفه، انا عشقتك، والطله في عينيكِ بنسوان وحوريات الدنيا والآخرة، اسمعي قلبي ياباتعه هتعرفي اني بنحبك، وحقك عليا من هنا لحد منموت لا هنضرك ولا هنفكر، كبرتي في عيني لما سامحتيني وأنا اللي هنتك وذليتك، وعرفت اني اول رجل لمسك. احنا لبعض ولا مخلوق يحط مابينا بالحق ولا بالزور.

استكانت في حضنه تتألم، ثم ابتعدت بعناد؛ استمرارًا في الثأر:

- انت كداب، اللي يحب ينصف ويداوي وميظلمش، ومعايره بمعايره هنغرق روحي، ولا تشيل عاري ولا نشيل عارك.

- يابت الأجازة الجاية هنعقد عليكِ زي زاد ومسرة.

عادت الباتعة إلى دارها. وذهب علي إلى زاد في الشونة:

- بتعايرها؟ مسمعتش الشيخ حامد بيقول، ناس زينا مجاريح لكن صابرة على البلاوي، متبقاش انت والزمن عليهم ياعلي.

- طيب هي غضبانه وحالفه متشوفني تاني، وهتغرق روحها.

- سيب لي الحكاية دي هنطيب خاطرها ونرد لها روحها.

عقد علي على الباتعة في دار أم حنة. أنكرت أم علي الزواج ونعتت الباتعة بالزانية، وعيرتها بأهلها. واجهها علي:

- ملكيش فيه، ياللي خالفتي الشرع واستغليتي مرض ابويا وورثتيني بالحيا انا واخواتي البنات لأخويا وبعقد بيع مزور.

لجأت للعمدة الذي وقف بباب أم حنة قائلًا:

- لا يجوز، زواج حر من زانية ، لا يجوز..

وقف زاد متحديًا:

- اللي في بطن الباتعة مش دسوقي وأبوه رجل وعاشق.

ضحك الحاج حسن في وجه أخيه رافعا ملفحته على عصاه كأنها لباس العمدة، مرددًا اسم زنوبة العمشة أم الدسوقي. استدعى حسن مع الزاهد قصصًا قديمة؛ ألقت سارة بهاجر أمتها أمام إبراهيم لتنجب له ولدًا، ولم يكن زواجًا. نعلم جميعنا بحكاية علي والباتعة، نعلم أنهما زوجان بالإشهار..

أقيم العرس في جرن السرب. أحياه زعرب؛ غنى ورقص. رقصت رابحين بجلباب الجبانة. دار الغراب حول العروسين؛ قبلهما ووضع بينهما رغيف العيش. طاف زاد مع محبيه أحاطوا بالعروسين، دق على الدف؛ فقد كان الناي ثقيلًا على قلوب قريتنا، أشد ألمًا من الكي بالنار؛ من أحشاء تحبس روحًا لا تعلم كيف ولا متى تتحرر؛ بالموت أو بالحياة، بالستر أم بالفضيحة!

-٤٢-

كنت أطوف وما بلغت المنتهى. في قاعة الباتعة التي اشتراها لها علي؛ كنا وحدنا؛ وقد بدأت تتوجع. فكرت في الاستعانة بجارتها الأم الكبيرة سيدة رفاعية الواطية، لكنها لا تريد لأحد أن يحضر ولادتها مخافة الغدر والحسد. لم أعرف كيف أتصرف؛ وأنا لم أحضر سوى ولادة واحدة؛ حين فاجأ الوجع عمتي. استدعى بابا طبيبًا؛ كنت فضولية فوقفت إلى جواره بحجة المساعدة. طيَّبَت آلامها خوفي وساعدتها من الذاكرة. المُضْطجَع مدماكان من طوب، مبسوط عليهما حرام نظيف واطئ؛ فكان علي الانحناء لإنجاز مهمتي. ارتبكت في البداية؛ فلم أعرف أين أجلس ولا كيف أجلسها، وكيف سأتصرف في السوائل والدماء التي ستنفجر حتمًا كما أذكر. كان غطاؤها قليلًا وفراشها بسيطًا؛ ملابس قديمة وملاءة بانت ثقوبها أسفل النور الساقط على الشباك. فتحت سحارة ملابسها وأخرجت كل الملابس الكبيرة. وجدت بعض زجاجات عطر فارغة؛ عصابة رأس مطرزة بالمحار؛ بعض السراويل الصغيرة الملونة. فوجئت بثياب أمي وحذائها. زاد اضطرابي؛ فألهمتني رائحتها. صنعت من عبوات الكيماوي التي تستخدمها كبساط ساترًا أغلقت به شباك بيتها الوحيد الذي ينظر منه الهدهد والغراب. فتحت بضعة أكياس منها ولفقتها في بعضها بمسلة تحتفظ بها بجوار وسادتها كتعويذة تحمي حملها ومولودها. ليس هناك كرسي[٥٠] للولادة. نظفت

فراشها، بسطت الأكياس، وفرشت عليها ملابسها القديمة، وضعت المِحَمَّ على الكانون لغلي الماء. كورت ملابس سارة لتسند ظهرها. بكت، تمنيت لو أمكنني الصلصلة لتخفيف آلام طلقها وولادتها[٥١].

جعلتها تثني ركبتيها، جلست قبالتها، وضعت الماء الساخن بجواري، غمرت خرقة فيه دلكت بها بطنها وأسفل ظهرها، كررت التدليك الساخن لتسهيل ارتخاء بيت الولادة، انفتحت فرجة، ابتسمت في وجهها:

- خدي نفسك وكأنك بتزقي بطنك من غير حزق.

- حاسه كأني عايزه نتسير.

- حلو، ربك بيوسعها، انفخي بقى بعزم مفيكِ من غير حزق برضه. انت عايزاه مفتوق ولا سليم.

- انت بتتمقلسي علي وانا بين الحيا والموت الله لا يسامحك.

تجاهلتها فانسابت منها الغازات كمن يضرط:

- يامسهل، ربك أهوه بيوسعها بزياده.

مسدت بطنها بيدي. بدأ الرأس في البزوغ حتى صار مرئيًّا، قلت بحنان:

- خفي الزق ياحلوة، هانت، ابنك بين إيديا أهوه، بالراحة وحياة علي اللي بتحبيه وبتدوبي فيه وشلتي منه، وحياة على متحزقيش، خدي نفس واكتميه.

ظهر الرأس كاملاً، تحسست حول رقبته لئلا تكون المشيمة ملفوفة عليها، تذكرت ابن عمتي المولود أمامي:

- كمان زقه من غير حزق عشان جسمه يتزحلق على إيدي.

فعلت أكثر من مرة، لكن الجسم لم ينزل فارتعبت. ألقيتها على ظهرها ووضعت كومة الهلاهيل ووسادتها تحت مقعدتها، وطلبت منها أن تلم ركبتيها تجاه صدرها وتدفع بقوة حتى تخرج بقية ابنها. نفذت ما طلبت

منها بعزيمة مبكية. لففت الرأس في الخرقة الدافئة وبلطف سحبته قليلًا إلى أسفل؛ فخرج الكتفان، ثم انزلق باقي الجسم. خلصته ببطء ورباطة روح. تنفست بعمق وتركت لنفسي مهلة لتلتئم؛ فخرج ماء الميلاد ممزوجًا بدم الحياة، انفرط جسدها. ابتهج كياني وانتثر في الفرح. وضعت الوليد قريبًا منها حتى يبقى الحبل مرخيًّا، أمسكته بين أصابعي فأحسست بنبضه، خفت إن قطعته أظلَمت الحياة. أمسكت الحبل بين السبابة والإبهام؛ خنقته برفق حتى توقف النبض فيه. على بعد إصبعين من بطن الوليد ربطت، تركت عرض ثلاثة أصابع تجاه الخلاص، وعقدت بخيط آخر رباط الروح. لم يبك؛ فدلكت ظهره بهشاشة تليق بوليد، لم أسمع له صراخًا. خفت وبكيت. ألقيته على ظهره ومررت أصابعي تحت رقبته بين الرأس والأكتاف، ورفعتها فانفتح مجرى النفس. صرخ؛ فارتعشت، ثم ارتج جسدي بعنف. أخذت الخرقة الدافئة لففت جسده بها وأنمته على المصطبة. انتبهت إلى أن في أحشائها لا يزال الخلاص. أقمت جسدها، حمَّلت على جسدي؛ فكدنا نسقط معًا. بمشقة جعلتها ترفع مقعدتها لأعلى، ووضعت تحتها إناء الماء الساخن. أراحت بناءها عليه، طلبت منها أن تدفع بكل ما أوتيت من قوة. دلكت أسفل سرتها بقوة بخرقة ساخنة؛ كنت عنيفة جدًّا خوفًا من الموت. توجعت ومع صراخها خرج دم غليظ يشبه دم الحيض وجاء الخلاص. كررَت الدفع وكررت التدليك العنيف، واصلت الصراخ حتى توقف خروج الدم. أملت جسدها، غسلت قبلها بوفرة بالماء الساخن، مسحت فخذيها بالماء، وبدفء أعدت عظامها إلى بعضها. بخرقة نظيفة دافئة؛ مسحت وجهها والزبد حول شفتيها. بصعوبة بالغة أنزلتها بعيدًا عن الفراش، أجلستها على كرسي قصير تستعمله كسلم. رتبت مرقدها على عجل، وبسطت ملاءة نظيفة وأنا ألهث. بسرعة مفرطة أسبغت الماء الساخن على

فرجة الميلاد مرة أخرى، أرقدتها ودثرتها بكل ما هو غطاء لديها. أمرتني بمسح وليدها بالدقيق. أمرتني أن أنيمه على هدمة ناعمة. أمرتني أن أقطع خصلة من شعره بالمقص. أمرتني بربطها بمزقة من ثوبها. أمرتني بتعليقها في سقف القاعة. أمرتني بلفه في خرقة من ثيابها القديمة؛ على هيئة قماط. وضعته في حضنها يأخذ أول دفقة حليب:

- هتسميه إيه؟

- غريب

تنفست، غسلت وجهي وساعدي حتى المرفقين، مسحت على رأسي. خلعت ثوب الولادة والخوف، ولبست ثوبي، ضحكت في عبي. ياالله! ياله من إنجاز أرسى وجودي في هذا الكون؛ لحظات لم أستطع حتى اليوم سبر غورها؛ لا أعرف كيف تأتي الحياة هكذا في لحظة ويكون الموت حاضرًا في كل لحظة. كيف تجيء الروح من الظلمة إلى وفرة النور؟ كيف وأنا المسكينة المتلعثمة في هذه اللحظة؟ كيف ينفسح الأخضر فجأة وتصفو السماء؛ تمتلئ الأشجار بالندى؟ كيف أحاطتني دفقات عطر ونعومة النسيم؛ ألوان قوس قزح ورد ومطر يغسل النفس ويعبئها بالحياة؟ كيف لي بهذا الجمال؛ وأنا لم أزل أحاول التعرف عليه؟ تنفست بعمق، اشتممت رائحة الجنة، ألهمني الماء معمد الحياة؛ كان نوره وسيلتي الوحيدة في ولادة الباتعة وابنها؛ المنبجس منها دافئًا والمسكوب عليها ساخنًا. لازم الماء عقلي كطقس إنساني؛ كرب الطب الأعلى من علمني وأعانني. أعادتني لحظات الولادة إلى طفولة الماء؛ طفولتي. رددت قول زاد:

✠ إن روح الله يرف على وجه المياه[٥٢] ✠.

أخبرت زادًا وعلي أنهما في أمان. بكى علي وأوشك زاد أن يحتضنني، لكنه شارك صاحبه البكاء. ناولني كتكوتًا مسلوقًا في مرقه. في طريقي إليها؛ ماتت كلبة فور ولادتها. دهسها طارق الرفاعي لنجاستها. تركت

ابنة بالقرب من قاعة الباتعة. لم أخبرها عن الكلبة؛ فقد تتشاءم. تناولت صدر الكتكوت وقليلًا من الحساء. يتهلل وجهها بالنظر لوليدها. بكت امتنانًا. بكاؤها مزق قلبينا:

- هاتيها يازويده، هاتيها سايقه عليكي النبي.

من بين العشب حملتها، حِرت أين أضعها. أشارت الباتعة إلى جوار ابنها:

- يامجنونه هي وابنك في حضنك!

- ربنا بعتها لي عشان ترعاه، مين يرضعها يازويده.

- هي وابنك من بِز واحد!

- ويبقو اخوات.

ورافقت زبيدة غريبًا؛ لا تفارقه كحارسه.

صممت الباتعة على دفن المشيمة بالقرب من قاعتها بين الزرع وعلى مقربة من سطح الأرض؛ كيلا تباعد بين الولادات. جاء علي بفسيلة من نخلة زاد زرعها فوق المشيمة؛ لايقطعها إلا من أراد بابنهما شرًا. كان لبن الباتعة ينز من ثدييها؛ وهي تحمل غريبًا وزبيدة على صدرها؛ كان دليلًا لزوارها والمتبركين بها؛ يطمئن زادًا وعليًا الذي لم ينه فترة الجندية؛ أنهم أحياء يرزقون؛ لم يمسسهم سوء. اتسع مسكنها ولم يعد قاعة واحدة. صار لبن سليلة الغجر باروكية؛ أوان الدميرة، التحاريق، حين يمارسون الخوف، وحين ترغب النساء في الحبل. أسموا الطريق إليها بدرب اللبن، دارها ومحيطها بعزبة الكلبة. وكان أن طفت عزبة الكلبة بعد الفيضان الأخير، ولم تسقط أسفل التبة.

-٤٣-

في زيارتي الأخيرة لأمي؛ قبل شبح زاد الأخير وانقطاع كل منا في حياة أخرى؛ لم أجرؤ لا أنا ولا سارة على الحديث مع بابا في أمر ذهابي لأي عرس. يقبع زاد في شونته. مشتاقة لرؤيته؛ وقد حرم علي المرور من أمامه، وفرض علي الدوران حوله إن شئت الذهاب لستي أمينة. مثله ألف وأدور، استدرت عائدة من طريقه؛ فرأيت أبناءه يرتصون على الجسر المقابل لشونته. شفت وشه وعدت مرورًا بالمقابر عبر الحقول. في الجهة القبلية كان صوت زُعرب حارس الجبانة وبهجة الأعراس، غناء الغازية ودوي الطبول والمزمار يختلطون بزغاريد النساء وطلقات النار؛ ابتهاجًا بعرس حنة. مررت بدارنا؛ تسللت باتجاه دار ستي أمينة. جلست بجوارها، مسدت بيدها شعري. قبلتني وأعطتني مما تحتمله أسنانها؛ فتات الخبز المبلل بالسكر. دخلت المرحاض، خرجت لا أمسك دمعي. لم تكن المرة الأولى التى أحرم فيها من الذهاب إلى عرس؛ هل هو الحرمان من زاد أم غيرة من حنة؟.

- مالك يا عين ستك؟. عايزه أروح الفرح ياستي. روحي مع بنت خالتك، لازميها، خليكِ جنبها كأنها خيالك، لا تسيبيها ولا تسيبك، ولو أبوكِ كبس على الفرح، تجري تقعدي في حجري، ولا من شاف ولا من دَرَى.

وضعت في كف كل منا قرشًا للنقوط. قبلت كفيها وسففت فتات الخبز بالسكر؛ فشرقت. ناولتني الماء ونظرة حنونًا.

يبدأ زُعرب فقرته ساخرًا، ثم بموال حزين لتنقلب الوجوه .

يبدأ الرجال في قذفه بحبات الأرواح، وترميه النساء من فوق الأسطح بحبوب البيت والملح. على أثر المقذوفات التي يتلقاها ضاحكًا؛ ينقلب جنيًّا يجوب الساحة. يخطف من الشباب والعواجيز ما تطاله يده؛ يقذفها في الهواء فيركضون خلفه لاستردادها، ثم تبدأ الغجرية في هذا التوقيت دق الأرض بكعبها، الصلصلة بخلخالها، هز ثوبها وعصاها؛ فيعود الجميع إلى أماكنهم. شخص زعرب ببصره نحوها، ولم يرفع عينيه حتى شككنا أنه يكمل فقرته العابثة مع الحضور. رأينا دمعه ينسال؛ لماذا يبكي زعرب هذه المرة بكاء حقيقيًّا. في كل فرح يعشق الغازية ويبكي تمثيلًا؛ حتى يمن الله عليه بعرس آخر يجمع من أجله ثوبه الضاحك الجديد. يدور على البيوت يجمع منها بواقي ملابس العيد والأفراح ولا يتنازل عن الجديد، ويكون فألًا حلوًا لمن يرتدي بواقي ثوبها وبشرى أن عرسها قريب. ينهي فقرته العابثة في كل عرس بارتداء ملابس الرقص التي يسرقها من الغازية.

زُعرب حارس الجبانة- والمؤتمن على أصحابها موتى وأحياء- لايفشي سر من نام في حضن من، ولا من اعتلى ثوب من في ليالي البدر والخسوف؛ حتى إنه لم يخبر أحدًا قط بآخر ميت سرقه البانبي. لم يكن ديوثًا كما يصفونه، ولكنه يكره التضييق على المحبين. ينصحهم قبل أن يأتوا للجبانة أن يتزوجوا بالقبول ويعلنوا فرحتهم على الملأ حتى لو قتلوا؛ اعتراضًا على قانون الزواج حزمة واحدة؛ الباءة والولي. يشهد أعراس الجبانة قليل من شباب وشيوخ القرية، ولا ينقصها سوى راقصة وميكرفون، ودفتر يدون الأسماء. يستبدل طقوس العرس بالسامر؛ باستعمال منديله وعصاه وربابته؛ مستعينًا بالغراب وعيد ساخرًا من العمدة والرفاعي، طارق وغرابة؛ العالية والواطية. يقول: والله لأجننهم، خليهم فيما يجوز لهم وخلينا فيما يجوز لنا.

تنتهي أفراحنا مبكرًا. سمعني زعرب أطلب من بنت خالتي أن تروح لستي أمينة تخبرها أني عدت إلى دارنا.

سار زُعرُب خلفي كظلي حتى أوصلني إلى زاد. تركني وأخذ طريقه إلى الجبانة، وبعد مسافة من البكاء عاد موجهًا كلامه إلى زاد: عايز أتعلم غناك، يمكن ينفعني في أكل عيشي، ثم جلس صامتًا.

مرات قليلة حضرت إلى الشونة حين يكون أبي مسافرًا. لا يستهجن الأولاد وجودي؛ أخبئ لهم بعض كتبي المليئة بالصور الملونة في ثوبي وبعض الألعاب الصغيرة التي لا تتوفر لهم هنا؛ أربطها حول خصري كما علمني زاد أن أخفي ما أقرأ عن أبي. مع كل ولد غاب؛ نحت له زاد من شجرة علمها باسمه ليرتبط هو ونايه بها. كحمامة ترفرف على أعتاب البنية دار حول جسده دوران المتيم بالحياة؛ يلف قدمه اليمنى حاملًا بدنه؛ يصعد بروحه؛ مشتاقًا؛ رافعًا يدًا لأعلى هابطًا بالأخرى؛ فتلتئم الأرض بالسماء؛ يرقص كدرة في قلب الشمس؛ يحن إلى منبته؛ والناي في فم الأولاد يدفعون بأنفاسهم الهواء السالك في ثقوبه(٥٣) ليورق أشجارًا كما الحلم؛ كما نفخ أوائل المؤمنين في الناي، ولحنوا المدائح النبوية وأشعار الزاهدين والنسَّاك؛ فنما الفرح والشجن في تكايا المولوية.

لم ينبس زُعرُب بحرف، ينظر مبهورًا. انتهى زاد وجلس.

استقر الناي على صدور الأولاد وأنفاسهم بداخله. وقف زُعرُب، قلد زادًا وزاد حتى أغشي عليه. تركناه مكومًا في الركن. نظر زاد نحوه بمحبة هامسًا:

- العاشق يدور بروحه، يرقص حتى لو أول مرة يسمع الناي .

وضع الأولاد ناياتهم؛ ضامين أيديهم إلى صدورهم؛ لامسين أكتافهم براحاتهم آخذين في الدوران ببطء، أذرعهم كالأجنحة؛ يرفعون اليمنى إلى السماء لقطف النعم، يمدون اليسرى نحو الأرض لنثر الحُب. لم يقيد زاد نفسه ولا الصبية بزي، جلابيبهم الفضفاضة تفيض

بالعشق، وطواقيهم المغزولة مدارات للمسرة.

استفاق زعرب واصطحبناه إلى الجبانة. ألجمت المفاجأة لساننا، لم نصدق أن الأكاذيب التي تمر كالغيوم على قريتنا تقع كالحقيقة. الغازية هنا. جلس زُعرب بجوارها يلهث:

- غجرية في الجبانة، قاصدة مين؟.

- انت.

- لو قلنا الغجر قلبهم ميت ميخافوش الأموات، مش خايفه من حي متعرفيهوش؟.

- أخاف من ضحكة الفرح؟ وبعدين، أنا راجعة لأهلي الفجر.

- أوصلك قريب منهم وأرجع.

جلست وزاد إلى الشجرة التي كان يرقبني منها؛ وأنا أمر على الجبانة، حين بدل أبي بالجبر مساري بعد شبح زاد للمرة قبل الأخيرة. لم نتلامس؛ فقط كنا بالقرب وهذا يكفي؛ فالدفء غيمة، رشفة من وريد، لمسة لا تُشتَهى وأشياء أخرى لا تُرى.

أوصل زعرب حبيبته. من يومها صيَّر الجبانة ساحة للفرح؛ يرقص ويغني؛ فقد حقق حلمًا من أحلامه: أن تكون له حبيبة ينتظرها ويتحدثان متجاورين؛ يعتلي ثوبها؛ كأول مرة يلمس فيها رجل امرأة.

غادرنا أنا وزاد لآخر مرة معًا. نرى السماء، السحاب والقمر، الأفق والفرح، لآخر مرة معًا، نسمع نداء الكائنات تسعى للحياة.

تسللت إلى حجرة سارة وقد تجمد الدم في عروقها. احتضنتني بعتاب فدخلت إلى حضنها راضية؛ لا أنتظر أحداثًا جميلة تنهمر علينا كالغيم. وحدها الصدف تغلف حياتنا بالندى وأستنظرها.

زارني زُعرب في منامي في ثوب جديد؛ يغني في ناي زاد.

تنمو البهجة في قلوب جديدة فُيشبح زاد على النخلة. مجددًا على جذعها ينقطع الحلم.

-٤٤-

أطلقه الغراب والأولاد من قيده؛ بعد أن أرغموه على الموت فراقًا مشبوحًا على نخلة الجرن. حمله فتيان السرب تحميهم بعض نسائه. أرقدوه في آخر قاعة بجوار مخزن الماء؛ وهو مجرد جرار وأوان مملوءة تفي بأغراض المعيشة اليومية؛ فيما لو حرمهم سيد غرابة أو طارق زيدان من الماء. كان جسده ملتهبًا، وروحه عفية. والته أم عبد الله وابنها بالطعام والدواء. زاره أبوه يومًا بعد يوم. مرة واحدة قبل رحيلي ذهبت إليه في ثوب الباتعة. رافقتني حنة، روما وعلي، زعرب وأطفال السرب. كان مهرجانًا لتغطيتي. لعبوا بالعصا والنحلة الطائرة. كاد ثوبي أن يتمزق بأفراحهم. التقيته وتركونا بمفردنا. للقاعة باب كبير مفتوح على السماء. خرجنا. جلسنا فوق كومة عشب وسترتنا فروع التوت. وقف الأطفال أعلى التبة في مدخل السرب ديدبانًا. وقف الحاج حسن جهارًا نهارًا؛ ناظرًا في عيني سيد غرابة، طارق زيدان والعمدة، وانتقل الخبر إلى تراب السكة؛ فنقله الأطفال في ثيابهم وأقدامهم.

أنا ذاهب لزاد؛ أشوفه وأطمئن عليه؛ الرجل في حمايتي فترة وجودي عنده، لو مس أحدكم شعرة منه وأنا هناك، أنتم مسئولون عن العاقبة. قال الحاج حسن وهم يدخلونه إلينا ضاحكًا؛ بطريقته في الكلام حين يريد أن يخفف من المصيبة.

ابتسم لي: لا تؤاخذيني يامسرة كلام رجال، تسمحي لي ولا أمشي؟ تطلع زاد في عيني راجيًا ومعتذرًا.

انتظرت في مخزن الماء. سمعته:

- يا إبني، أنت لازم تتوب إلى الله على مذهب الرفاعي وأبي زويدة. أنا هنا لأسمع اعترافك وأشهد توبتك، باعتباري رجل يورط أهله، يقررهم ويخليهم يعترفوا ثم يهد حيلهم. ضحكا، وسمعت دق الكفين.

أسر لي زاد بما كان. ضحكنا وكنا نظن الضحك قد نفد.

قبل رأسي، تعرفين أنه يخلط العامية بالفصحى، ويكره الثبات على حال. قال وهو ينسج القليل من البهجة يهون الحزن: (اعذرني يابني، عزبتنا لا تستحقك. سامحني لعدم تدخلي يوم أن شبحوك على نخلة الجرن، لأنه لو حصل، كانوا قتلوك أنت وزويدة وسارة! قلت، يومًا ستصفو الحياة وتذهب عكارتها، وينشف الوحل. يازاد، أبوها مصمم إنها ليست لك، ستسافر وتكمل تعليمها، سافر وأكمل تعليمك أنت أيضًا، أعرف أنك متعلم بطريقتك، لكن، ربما تلقى فرصة هناك أن تعرف أكثر، وقد يجد جديد وتلتقيان ثانية، حين تنهي تعليمها وتستغنى عنهم. ربما يتصل ما انقطع بينكما، والوجود الجميل يأتيك ببشارة، ربما يابني) وأنهى كلامه:

وقد يجمع الله الشتيتين بعدما

يظنان كل الظن ألا تلاقيا[٥٤]

قبلت رأسه ويديه واعتذرت عن وحشيتهم:

- ملناش غير الصبر أو النسيان يا زاد.

ران ببصره عبر النهر والحقول:

- لقد ثبتتْ في القلبِ منكِ محبةٌ

كما ثبتتْ في الراحتين الأصابعُ[٥٥].

وضعت رأسي على كتفه. ألمس نبضه:

مغرم انت كالمجنون.

- فطب نفسًا وقر عيناً

فإن هواك في قلبي معين(٥٦).

قبلته وضممته ورحنا في عناق حزين. تركت كفي بكفه؛ كأني أحصل على آخر دفقة حياة تسري في وجودي، أرحت رأسي على قلبه لآخر مرة. سرقني اليأس:

- ياحبيبي شكلها إسودت وكتبوا لنا الحرمان، اقول لك رغم إنه شر صافي، يارب يموتو ويبقى لنا حسن، زعرب وناسه، السرب بناسه وسارة، يمكن.. يمكن يصير لنا لقا تاني، قلبي ملهوف عليك يازاد، إكتفينا ظلم وعذاب.

نظر في عيني بطرف عين المحب؛ وهي كل قلبه:

فلو أنَّ لي قلبينِ عِشْتُ بواحدٍ

وأفردتُ قلبًا في هواكِ يعذبُ(٥٧).

يازاد؛ أين ستشرق شمسي ووجهك غائب.

قبلني، اهتز جسدي كغصن بين أعطافه. بكى لأول مرة في حِضن امرأة، عانقني بدفء أغناني عن الرجال سنين طوالًا. وافترقنا، استقر الفقد وسكن القلب. وظل طيف زاد يجوب حناياي؛ فحنت ضلوعي إلى طفل أسميه زادًا.

-٤٥-

كان سيد غرابة قرين طارق بن زيدان الرفاعي كبير الواطية. نعت فيما بعد بكبير الرفاعية الذين أسقطهم الفيضان أسفل التبة. كان لصًّا مغيرًا يصاحب الثعالب لدهائها والضباع لوضاعتها، والذئاب لجسارتها؛ يستعين بخصالها عند الهجوم على راعٍ؛ فيعرف إن كان مسلحًا؛ ذكرًا كان أم أنثى. يقدر على إخافة غريمه ونهشه؛ متى وقعت عينه على واحد لا يحوِّل بصره عنه. لو فصل بينهما زرع دار حوله؛ لا يغيب عن عينه لحظة. عرف سيد غرابة طباع الذئاب من جدي.

نقل لي زاد عن سيد غرابة نقلًا عن جدي ناقلًا عن جده:

(روح العدو حتى لو كان جن تقيدها بصَّة لا ينصرف ما دام العين متعلقه به، والديب لا يرمش له جفن حتى لو نام وعينه متنطفي حتى بعد مماته، يعلق عينه على غريمه لغاية ما يخضع له. والديابه لو طلعت عليك سهل تهرب منها، تدور حواليها ماتمسك توبك، متبص وراها لأن ضهرها دوغري لا تنتني لها رقبة، فتتعب وتسيبك. والديب في الآخر يكبر لسيده وسيده كبيره؛ ديب زيُّه، على خلاف الكلب اللي سيده ابن آدم اللي مد له إيده وأطعمه، الكلب يسلمك للعِدا، الديب يعرف قيمة نفسه ويعرف يوالي مين، الكلب تهون عليه نفسه ويبيعها للي يطعمه، الديب لا يرضى إن الضعيف أو الجبان يحكمه، ودايمًا يخلي أهله في المقام عاليين، مهموش كبير السن ولا يخضع له. يعني

مفيش في عالم الديابه لا كبير ولا جبار، ولو خيرتني ياسيد نكون ديب في دنيا الكلاب).

أخفى سيد شيئًا مما قاله جدي عن الذئب. لم يقل سوى أنه مجرد حيوان؛ أما الإنسان فأكرمه الله بالذرية والنساء يطأ منهن من يشاء أنى شاء ويزين حياته بهن. بين لي زاد ما أخفاه سيد الواطية من حديث جدي:

(الديب رحيم على ولاده ومراته، يضحي بملو جوفه، يرجَّعُه لو شافهم جعانين ويعود لجوعه، مخلص ما له إلا وليفة واحده لا يعشق غيرها ولا يفرقهم إلا الموت، يحزن ويتوجع ويعوي شهور وسنين على فراقها. أما عياله فطبع الديابه فيهم غالب، يعني ابن الديب ميترباش، خلاف ابن الكلب).

قتل شقيقا سيد غرابة في عراك بين الحبش والرفاعية؛ وهما يسرقان ماء أول بئر قبل أن يتم حفره و يجرب عطاؤه. سحب طارق زيدان البلطة؛ وقطع رأس حنضل وحنضلة؛ لأنهما لم يتشددا في رفض حديث البئر، ورماهما في بطن بئر الحبشية ليلًا وردم عليهما. قتلا وقيل اختطفتهما الذئاب. لم يعرف سيد غرابة أن سيده هو قاتل أخويه كما لم يعرف عبد الله شحاتة أن الحاج حسن هو قاتل ابنه. في يوم مشهود سخر الحبشي من غرابة لسكوته على اختفاء أخويه: (مش انت مخاوي الديابه، هم اللي خطفوا اخوتك، إطلع الجبل هاتهم واقطع رقابهم).

أقسم غرابة ألا يزور الخمارة ولا يطأ النساء، لن يغتسل أو يطال الماء شعره حتى يأتي بأخويه أو برأس قاتلهم. طلع جبل الذئاب الذي إليه قد خطفا. مكث فيه أيام المحاق وأهلَّ البدر ولم ير شيئًا. ينام بعين ويصحو بالأخرى؛ حتى كان اليوم الثامن والعشرون، فإذا هو بظل أحدهم يسير على الجبل كالسكران ينطق باسمي أخويه. حمل مقلاعًا

من خشب البلوط وجلد الماعز مربوطًا بكل طرف منه حبل وتري. وضع على الشريط قطعة من الحجر، أمسك بالحبلين معًا، دوَّم المقلاع فوق رأسه مرتين وأطلق أحد طرفي الحبل، قذف الحجر بشدة أصاب الظل فوقع أسفل الجبل؛ فلما وجبت الشمس أبصره؛ وهو يقول:

- ياظالمني تنقطع إيدك ويخيب حجرك.

- ياقاطعني من أهلي وعزوتي، ياماليني حسرة على إخوتي، يامبكيني العمر ولا يكفي، حنضل وحنضله كانوا زين الرجال.

تواری غرابة هويًّا من الليل، أصابته الحمى فهذى، نامت عينه، ناداه الظل، لم يجفل:

- نمت ليه وانت الحويط؟.

- الحمى ذلتني وحوجتني للنعاس.

- الحمى تذل الحويط حتى الديابه، حتى لو كان سيد غرابه.

في سنوات الجفاف القديمة؛ كان غرابة أحد الأطفال المولودين يوم تعاركت الغربان حول شجرة الشورى. فرت أمه بأخويه من بلدة الشهداء باتجاه قريتنا، وافاها المخاض بالقرب من شجرة البلوط التي اختبأت فيها الغربان. كان له من اسمه نصيب؛ يركض خلفها بمقلاع؛ وما أن يفقأ عين أحدهم حتى يسقط في دمه عند قدميه؛ يحمله مزهوًا إلى طارق زيدان؛ فيعطيه مالاً وطعامًا، ثوبًا يلبسه فوق جلبابه فور خروجه من داره. يحاول أن يهندم الثوب الواسع على جسده؛ رافعًا ذراعيه وممسكًا بطرف الثوب يعقصه عند ركبتيه؛ فيبدو كخيال الحقل؛ فزاعة ستي. سيد غرابة لا يعمل بيده، ولا يسرق بنفسه؛ له موالون يفعلون. بنى فصيلًا من أبنائه وأبناء أخويه القتيلين؛ لتأديب من تسول له نفسه التطاول عليهم. نظر فيهم:

(نشفان الحال مش دايم، ولُميَّه مسيرها راجعه ولو بعد موت، الحي

ساعتها هيشرب ويروي، وهتِقدم وتنتسي العركه على لُميَّه، لكن الهيبة لو ضاعت مترجعش، وعمر الرايب ما يعود حليب، والذل عمره ما ينتسى لأن العار أطول من العمر، ولو الحقوق اترتبت على غير مرادنا، ولا شيء يغيرها غير الدم، ويا عالم ولادنا الطالعين لبكرا هيقدرو عليه ولا هيطاطو). صار القول مأثورًا، ونمت البغضاء فاحتجبت الحياة.

يقذف جبل الكراهية بحممه نارًا؛ يفرون منها يعتلون ذؤابات الشجر. وحين يهدأ الجحيم، يوزعون الفروع على صغارهم لا يتركون ظِلًّا يقف عليه اليمام.

-٤٦-

تحضر الدميرة إلي قريتنا كل عام مع شروق الشمس من ناحية نجم إيزيس؛ سبدت أو (الشعري اليمانية). خمسة أعوام مرت منذ آخر حضور للنجم يحمل الماء تحت إبطيه؛ يملأ ضروع المواشي، ينبت البقل والورد والحنطة. لم يغب سبدت؛ بل حوصرت مدوده واستنفدت؛ فانحسر نهرنا. خمسة أعوام؛ اقتسم فيها الرفاعية والحبشية القليل مما يحمله في مجراه. يومًا بعد يوم؛ يزدادون جورًا وتقسيمًا للنهر، وصار لكل عائلة فرع قسموه فيما بينهم؛ حتى إن ما تبقى منه لم يكن يجدي معه كباس ولا طنبور؛ فليس ثمة ما يُرفع. غاضت بهجة الصبية؛ بعد أن كانوا يحممون ماشيتهم ويستحمون. في نهاية العام الثالث؛ خارت الأرض كثور وجفت الحنطة في ثديها. لم تفتح الأجران أبوابها لحصاد، وتساقط الجدب على البيوت. صار النهر مثوى للحيوانات النافقة؛ فحوصرت التبة والواطية فيما بين جبانتي البشر في الغرب والحيوانات في الشرق. ترك لنا الماء بعضًا منه ليوم يتركنا فيه نمارس معه طقوس الوداع والقحط؛ كأنه غير عائد للأبد. بالكاد يستطيع ما تبقى فيه حمل صينية العشب الخاصة بكل أسرة؛ وعليها ندفة نار تشتعل.

مالت المرأة على النهر. تلكأ حين لمسته، لكنه لم يكف عن الرحيل. وقفوا متقابلين على ضفتيه؛ الحبشية والرفاعية والأسر الصغيرة؛

وكأنهم يبعثونه إلى الخفاء؛ بشعلاتهم ولمباتهم الصفيح. ودعوه بعد أن كانوا يستقبلونه بها. كان طقسًا مهيبًا من الأمهات اللائي اصطففن. رمت بعضهن فيه قلفات أبنائهن المقتطعة في الختان؛ لتزداد خصوبتهم ومقدراتهم الجنسية. ألقت بعضهن مشيمة مواليدهن في مائه الأخير؛ باسمات ليعيش آخر أطفال النهر سعداء. صنعن من الحبل السري فتائل لففنها في القطن، ووضعنها في لمبة من الفخار مملوءة بالزيت. أجلسنها فوق صواني العشب الأخضر؛ تسير كمراكب مضيئة يحملها تياره الرقيق. وقف كل زوج متشبثًا بزوجه. وقفت أنا وزاد؛ أحتضن كفه وننتظر. هتف: ياسيدي الخضر أجرنا، ياخضرة الشريفة مدي لنا يدك.

بكى زاد شجرًا ونايًا؛ قمرًا؛ سهرًا وعشقًا. أطلق محراثًا وشادوفًا من السعف؛ بعد أن قرأ عليهما ترانيم الزارع القديم[٥٨]. وقف أطفال السرب؛ وقد ربط كل منهم عودًا أخضر حول جبهته؛ حاملًا بوصة معلقًا في طرفيها صفائح خاوية من الطمي والدود؛ إيذانًا بانقضاء طقوس الصيد. أطلقوا بعض سمكات من سعف، حلقت طائراتهم الورقية على قمم شجر النهر، والسنط يبكي صمغًا لن يلهو بين أصابعهم ويطير. ألقوا للنهر ببعض ثمار الجميز. نثرت نساء السرب بعض الحنطة على ضفتيه؛ علها تنبت حتى يعود. لفت سارة بعضًا من الحبوب في ثوب من الكتان ووضعتها في حضن طفلنا الكبير. قدمنا له من معايشنا نذرًا. احتفظت النساء بتذكارات؛ من طميه؛ طواجن الحليب، قلل الماء والأزيار، براني اللحم، السمن، جرار الجبن. استظل الرجال بخيالات حقولهم الحزينة. ابتهلت ستنا؛ وهي تطلق سفينة نورها:

- حكيم ومش هتنسانا، متستخسرش فينا عَطاياك، مِنّ علينا، متاخدناش بفعل اللي جارو عليك منا.

قالت الحبشية:

- مفارق ومسيره راجع.

نظرت إليهما الحليبية:

- على إيه عاملينها مناحه، قادرين نحفر ابيار تكفينا.

بخشوع ووقار ناظرًا إلى السماء؛ قال الرفاعي ابن حليمة:

- منين متولي وشك لُمّيه حاضره، ربك أمر وهو قادر.

الماء- وقد اعتدنا على لهوه ساعات النهار- يسكن ضفتيه النور؛ فيتبدل بين الذهبي والفضي والرمادي؛ الطمي وقد نراه أزرق. هو روح دولاب الفخراني؛ حامي طقوس الغسل والتطهير؛ الموت، خصوبة الحقل، حنطة العروس. قيثارتنا؛ يتثنى كالحلم بطول أراضينا كظل الروح العظيم؛ يحتضن تلك الأرض؛ على ضفتيه ينشر النخيل سعفه ضراعة له كأكف الكهنة القدامى؛ تستلقي الريح على أوراقه، ثم تسقط. بين ضفتيه فيستريحون. لم يكن حزنهم – فقط - لرحيله؛ وقد أخذ معه معايشهم؛ بل لأنهم سيفتقدون خلًّا أعطوه أرواحهم بسلاسة جريان مياهه؛ ببساطة انبلاج الضوء الرقيق في الصباح، بانفتاح الأفق رحبًا متدفقًا لألاء؛ يأخذ منهم ويعطيهم منه؛ يدخل بينهم ويخرج مفتوح الأذرع دافق الخصب؛ رحب الروح مضيافًا بشوشًا ورحيمًا. بقدر تدفق الماء ينثال العشق على ضفتيه، وبقدر انسيابه يكون صخب الحياة وعنفوانها؛ امتدادها وإحاطتها الخلائق والكائنات؛ بقدر ما يكون وداعها فقيرًا سريعًا ملتاعًا؛ فالحياة هي الحواصل والمُطُر والعشق.

لم يضيعوا الوقت في اللوعة. استأنفوا الحياة كما ترضى لا كما يرغبون، وكما يعطفون بعد دفن موتاهم على الحقول؛ يستنجدون بسعفها وأخضرها ففيه العزاء والحماية؛ مارسوا العيش في غيض.

جلست ستنا ترتِق البدر فى بيدر القمح؛ تحمل غمرًا من السنابل تصفها كإكليل. تمر بالمباخر على صوامع الحنطة. يعود زاد من نوبته فى حراسة البئر الأخيرة. ستحصد معي السنابل بيدك أم بالمنجل؟ لا بيدى ولا بالمنجل. وكان يخبئ ساقًا خشبية يسند نصف القمر المظلم؛ كمناسك الخوف.

-٤٧-

عند شجرة الشورى احتدم الجدل فيما بينهم؛ من يحفر البئر وأين. بعد تناحر؛ اتفقوا على أن يحفر الحبشية والرفاعية كل منهم بئره. كان الأحباش أصحاب المبادرة وتبعهم رفاعية التبة. باستخدام المجارف والمعاول؛ شرع الحبش في حفر أولها بجوار الضفة الغربية للنهر، وعلى عمق يزيد قليلًا عن عشرة أمتار عثروا على الماء. تناوب خمسة من الأبناء على رفع التربة لأعلى؛ يسحبها خمسة آخرون بالحبال والغلقان؛ يقفون حول فوهة البئر. استغرق الحفر ستة أيام. في اليوم السابع شرعوا يتأكدون من حقيقة البئر. ثقبوا مركزها ليتدفق الماء من جوفها إلى الداخل، بطنوا جدرانها بالخشب لحمايتها من الانهيار، وزعوا الحجارة عند مدخلها لمنع تسرب المياه منها في حال ارتفع منسوبها. ربطوا دلوًا خشبيًّا بحبل قوي ثبتوه على رافعة في أعلى البئر لسحب المياه؛ الشادوف سقَّاء الزرع والضرع، ومناول شربة الماء. في البدء تشاركوا فيها بحب وكرامة، ومع الوقت اختلفوا حول ماء الري. بإمكانهم تخزين مياه الشرب في الجرار والأزيار، لكن لا يمكنهم تخزين الماء في عروق الزروع والماشية. اضطرت ستنا لهجرة طوفها على شاطئ النهر؛ بعد أن غادره جسد الماء وترك في المجرى روحه. شيد أبناؤها لها طوفًا بالقرب من البئر. بنوا مصلى بجواره؛ ليباركوا محصولهم منها. في كل مرة تلقح فيها الأرض بالماء وتخرج نبتها؛

يصلون في الحقول امتنانًا حتى يوم الحصاد. البئر تكفي بالكاد قبيلة الحبشية؛ كونها صغيرة وعلى عمق قليل بالنسبة للآبار الارتوازية التي تحفر بالمدقات والبريمة وترشق فيها المواسير ليرفع الضغط الماء. كانوا مستعجلين؛ واستقدام البريمة ربما يستغرق وقتًا، وربما يفشلون؛ فلا يجنون غير العطلة والكلفة. لجأ الرفاعية في الواطية إلى سرقة ماء بئر الحبشية بعد أن فشلوا في إنجاز حفر بئرهم قبل الحبش. أكل الخلاف وقتهم؛ فقد رفضت كل عائلة أن تقتطع البئر جزءًا من أرضهم، بينما ينتفع منها الجميع. على مرأى من الشجار النابت حول البئر لام الرفاعي أمه حليمة على عودتهم للأرض القديمة. قالت: الفلوس قلت، أرباح البنك راحت على مصاريفكم، أوشكنا على أكل الأصل.

في الصباح جاء الحبشي وأمه، والرفاعي وحليمة:

- عين الميَّه على أرض الحاج محمد، و من حق ذريته كلها.

جلست الحبشية تكنس التراب أمامها:

- العين بتنفجر أُميتها بأمر اللي خالقها؛ إنما البير احنا اللي حفرناها وانبجت منها لُمُيَّه بدراع ولادنا، وانتو اختارتو أرضكو بعيد عن لُمُيَّه، خفتو منها لأنها سنة خير وسنة دميرة، اكتفيتو بخيرها، تبع قسمتكو، البير مش على أرضكم، سبتو طينكم لا زرعتو فيه بذرة ولا قلعتو منه غريبة، رعينا وروينا، وريعها كان بيوصل لك بعد كل حصيدة، وكان إيراد معتبر يعيِّش عزبة مش عيلة، وجايه تقولي أرضنا؟.

- لنا في البير جبر أو رضا. ومش عاجبكو اسألو.

جاء الحاج حسن:

- عايزين كلام يريحكو شوفو غيري، عايزين اللي يطيب الخواطر كلها فدا قولي: من احتفر بئرًا فهو أحق بمائه وإن بعدت منه أرضه

وتوسط غيرها، يعني بعدت الأرض عن البير ولا قربت كل حي أولى بحقه. وإذا كان للرجل بير ملوش انه يمنع الشفة، اللي هي شربة لُميَّه للبني آدم والطير والبهيمة، لأنها حق في الأصل؛ لأن قهر لُميَّه يدفع قهر غيره، يعني ضرر قهرة حرمان الناس من الشرب، أشد من ضرر قهرة صاحب البير على أُميته، ومش من حقه يتسبب في ضرر للناس لأن البير بتاعته. يعني من حقك تروي في حالة إن كان ميضرش غيرك، بصحاب البير اللي حفروه؛ لأن دفع الضرر عنهم واجب، كلامي النهائي ياحليمة؛ إن دخل الماء في القسمة فحق الشفة بس هو الثابت، يعني شربة لُميَّه لبني آدم والطير والبهيمة. والبير حق للكل حبش ورفاعية وغيرهم، في الحالة دي بس، حق الشفة، لأن منع شربة لُميَّه دناوة. صرخت:

- شربة الميَّه بس زينا زي البهايم، الأرض كلها ملك الحاج محمد عاليها وواطيها، ومن حقنا نروي. رد عليها بصبر:

- لكو تشربو وتطبخو، تتوضو وتستحمو، تغسلو هدومكم، وتسقي شجر أو خُضره في الدار مش في الغيط، تنقلي لُميَّه بالزلع، ومش من حقك تسقي أرض من البير إلا بإذنهم، يعني؛ تشربي انت وولادك وبهايمكم وتروي خضار بيتك بزلعه مش بخطاره، اسمعى كويس، تنقلي بزلعه مش بخطارة. دا بس حقكو الثابت، والحرامي الشاطر ياحليمة ميسرقش من جيرته.

ولأن حليمة حَرَّابة تحصل بالحيلة على ما تريد؛ صممت على ما فضحه الحاج حسن، ولم تلق له ولقول الحبشية بالًا.

استمر الحال لبضعة أشهر؛ رعت فيها حيوانات الأحباش ونمت زروعهم، زاد الخير وامتلأت الحواصل والمُطُر، وعلا البشر وجوههم. لم تهدأ حليمة وقد هُزمت بعد فشل بئر الرفاعية لخلافهم حول تخصيص أرض للبئر، لم تفلح حليمة في الإنبات بعد أن هجرت

وقبيلتها الـزرع والحرث إلى قصر وخدم وأجـراء زراع، ولا يخاف على الـزروع مثل من بلل طينها وحصاها بعرقه. بدأ عمال الرفاعية في حفر طريق للمياه إلى أرضهم في الواطية. من أسفل رشقوا (خطارة) ماسورة تجلب المياه من العالية لسقي الأراضي بالسافلة. في جسد البئر تبعوها ببرابخ من فخار دفنوها تحت التربة؛ لا يراها الحبشية ولا الواقف في عل. طلع النهار وكان الماء يجري في أرض الواطية الأسرع في استيعاب الماء. بالغت نساء الواطية في حصاد الماء، جرن على ماء الحبشية.

اطمأنت حليمة فسافرت. باشر أزواج بناتها لموسم كامل الزراعة. بعد شهر؛ عادت طالبة مبايعة الأرض التي حصلت عليها الحبشية من الرفاعي في غفلة من أمه، ناولتها لها الحبشية برضا. تركت بناتها بأزواجهن يزرعون. في الصباح جاء مشتر يدق الحديد في أرض حليمة القديمة. قال الرفاعي:

- لنا في كل بير، ولُمِيَّه قصاد الطين يا إما الأرض تنباع للغريب، والشرط قبل الحرت ولا العركه في الجرف ياخويا.

نطت الدماء في رأس الحبشي:

- اللي هيحط رجله في الأرض هنشج راسه، احنا لنا الشفعه، ومحدش يجور على الشفعة حتى لو كان نبي.

يعودون من ذات الطريق إلى نفس المصير؛ كأنه قدر محتوم يرسم لهم سكة صراع يحرقون خريطة إنهائه.

لم يستكن الحبشي ولم تنس حليمة الثأر.

- ٤٨ -

تتدخل ستنا وقت الخلاف على الماء. لم تعد تفلح وساطتها ولا حكمتها في لجم غضب المظلوم. تركوا مشورتها، واحتدمت الحِرابة. أشعل موت حنضل وحنضلة الحرب بين رفاعية التبة ورفاعية الواطية من جهة، وبين كل منهم والأحباش من جهة أخرى. كان لسيد غرابة دور في تزكية النار؛ يدوم بمقلاعه فاقئًا عين بهيمة، أو أحد الأبناء، يقذف الطيور النافقة بمقلاعه تسقط بين مساكن الواطية؛ فينتشر الموت، وبالمثل يفعل في التبة. فجُر رفاعيو الواطية في خصامهم واستبد بهم الطغيان. لم يكفوا عن سرقة الماء من كل بئر يحتفرها الأحباش أو رفاعيو التبة؛ ينزحونها ويروون منها حتى يغيض ماؤها. احتفر الأحباش بئرًا لا تقوم فوق الواطية؛ كيلا يستطيع أهلوها وضع خطارة وسرقة الماء والوقوع في شرك القسمة. منعوهم من المرور إليها؛ رمت نساء الواطية التراب والروث فيها؛ مرددات: (عالية وواطية أرض أبونا، العدل تعيدوا تقسيم الأرض بعد مقسمتها الدميرة).

لم يستطع رفاعية الواطية مناصبة الأحباش عداء سافرًا لا يستطيعونه. فجَّرت الخصومة قبح الأحباش وأطاحت بصبرهم فبغوا؛ قتلوا كل من لوث بئرهم وجار على مائهم طفلًا، شيخًا كان أو امرأة. قتل الرفاعية كل من منعهم عن الماء. مزقت الذئاب جلود المطارَدين،

لحقت بها الغربان تأكل الجيف، وتنقر عيون البهائم فتصبح نذير شؤم، يقتلونها ويسلخون جلدها، ينزعون أحشاءها ويملأون بطونها بجثث المخطوفين من الشيوخ والأطفال والنساء. يخبئ كل فريق جثث خصمه في جوف العير النافقة بفعل الجوع. قطعت رؤوس بعض النساء والأطفال، حبس البعض في الحواصل المهجورة مقيدين، يصرخون ولا مجيب. استمر النهر ينخفض وعجزوا عن معرفة مزيد الآبار. فرغت حياتهم، ولم يبق فيها غير اليسير من الأخضر. حسَر الماء وغاضت الحياة، اعتلى أبناء السرب قمم الشجر؛ ينبئون الحاج حسن والزاهد بمن بقي حيًّا؛ ينقلونهم في زكائب ليلًا؛ تطببهم النساء. ومن يموت يدفن في مقبرة السرب. حطت الغربان وأكلت الجثث؛ فامتنع انتشار الطاعون. لم يُرض ذلك سيد غرابة؛ فأباد الكثير منها، سكنت كهوف الأشجار خوفًا. وتكاثرت.

هربت الباتعة بابنها من بطش غرابة في جوف الجميزة؛ فهجموا عليها. دافعت عن مكمنها. رشقوه بالشعاب، ولأنها بارعة في تسلق الأشجار لسرقة ثمارها، قفزت إلى فرع. ضربوا الفرع بالبلطة؛ ولا تزال معلقة بصغيرها. سقطت حاضنة غريبًا بذراعيها. فشل زاد في حمايتها من أذاهم، قال:

(دي أمومة تنشال على الراس مش تنداس، متنقتلش يا ظالم).

أخبر أبناء السرب عليًّا. هرع إليهما. ركضت زبيدة خلفه. تضامن معها بقية الكلاب، هجمت عليهم؛ وهم على وشك قتل غريب؛ طاردتهم ولم تفلح الشعاب في تشتيتها. حمل علي ابنه ورافقت زبيدة والكلاب الباتعة حتى السرب. اختفت عزبة الكلبة وطُمر درب اللبن.

ندر الزاد؛ فاحتفظوا بأظافر الغربان كتميمة تدلهم على أماكن تواجد الطعام، صبغوا أجنحة الغربان الحية بالحناء لترشدهم إلى مكان الأرانب والماعز الجبلية.

تختفي الغربان خوفًا من المقاليع؛ فتصاب القرية بالطاعون. تطحن نساء الواطية العظام وقطيع الجثث يخلطونها بالشعير لتأكل الغربان كل نسيلة حتى الأجساد المحتضرة؛ الرضع والأطفال؛ فلا يتبقى للموت أثر. استكانت العاصفة في جوف الشجر. كان الاتفاق ألا يُقتل الأطفال، لكنها تحب الانتقام من النساء، فحلقت طيور الموت، وبدلًا من الأبناء أنجبت الأمهات تعاويذ كانت تبكي كل ليلة.

اقتتل غرابان وسقطا على قدمي طارق؛ وكان ذلك نبوءة بموته. استعرت الحرب على الفرعين لانتخاب كبير ما أغضب العمدة. صعد الدسوقي الجميزة ووشى له باسم من اختاروه؛ وكان نائمًا نهارًا فنصبوه ليلًا. أصبح غرابة كبير التبة والواطية مشاركة مع بعض الأحباش والرفاعية. اقتحم الرفاعية الحواصل والمطور، وأخرج ما فيها من طحين ومؤونة. قسم غرابة الطعام بعد قتله طارق زيدان. اتفق مع مشايعيه من الرفاعية وبعض الحبش- ممن يناصبون عائلاتهم العداء- أن يأكلوا اللحم إن وجد، ويأكل الباقون جذور النبات. ويختار غرابة ما يشاء من طعام. قتلوا كل من كان يمر في الطرقات دون أن يحمل بيده حفنة من طحين.

عز الماء؛ فكدست الغربان الحجارة أسفل الصبار. يرتفع الندى فتشرب، ومن جلود الموتى ترتوي. في البيوت المهجورة من أصحابها بالموت أو الفرار؛ ترمي الغربان الحجارة في الجرار. يعلو الماء العطِن فتشرب.

ينشب العراك تحت الشورى، يجترحون من الهول ما يذل أصغره شرف المرء، يقابلون موتاهم هادئين وتتلاشى العدول.

ينتظر السرب انتهاء القصف وانصرام الخوف لتقوى نفوسهم، فيلملمون أجنحة اليمام يضعونها أسفل رؤوس الموتى. تمكث الأرواح الثقيلة في الأرض؛ فالريح لا تسكن آباط الحجر.

تفقد المفاوضات صدقها؛ فلا شروط ولا عهود، يجتمع الفرقاء لاختيار المشيعين والذهاب فى مواكب الدفن.

نعبت الغربان تفضح أسرار الليل معلنة النهار؛ ممثلة للقداسة والفجور في آن واحد.

-٤٩-

ربض الجفاف على قريتنا لعدة أعوام. ورفض زاد والحاج حسن ترك سرب النسوان. كانا حريصين على رعاية الثكالى واليتامى والأيَامى وحمايتهم من المتناحرين على سبل الحياة؛ يعلمان أن في اختلاطهم وتنوعهم منجاة لهم. لم ينم التمايز بينهم ولم يباهوا. سنوات مرت والسرب لا يقدم على اقتحامه أحد؛ لم يجسر أحدهم على تدويم مقلاع، أو رمي جثة طائر زاخرة بموت أو مرض. لم يقتل في السرب عيل، ولا امرأة. كانوا خليطًا من المكلومات وأبنائهن من أبناء التبة والواطية، طردوا ليتشتتوا؛ فلأمهم خيط الحياة. وفي قت الحرابة واعتلال المحبة ودون اتفاق أو عهود؛ يكون السرب نجدة ومخبأً.

داوم زاد على الحضور في الأيام التي اعتدت فيها زيارة أبي لعله يراني. في آخر زيارة له وقد يئس الناس من عودة الماء؛ سكنت الفاقة المطور والحواصل؛ شافه علي وقد نحل جسده حتى شف، وكاد أن يطير. في جلباب فضفاض ولحية غير كثة لاتنحني على عنقه؛ سار بحذاء النهر مستندًا إلى ساق فقيرة؛ بالكاد تنقل جسده النحيل خطوة فخطوة للأمام. توقف وخلع ثوبه وظل في قميصه. علق جلبابه على شجرة التوت التي التقينا عندها أول مرة؛ حيث موضع آخر بئر تعرف على مائها. أقسم أن يكون خالصًا لسرب النسوان؛ نقلت لي الباتعة عن علي. زار السرب وغادره لآخر مرة، لم ينم الليل، جمع مريديه من الصبية. التأم شمل لاجئي الجبانة وأبناء الشونة لأول مرة بين أهل

السرب وفي حماهم. وزغرد زعرب.

مال زاد على علي:

- عرفت ان زويدة وولادها هنا، نفسي نشوفهم يا علي.

- مسرة! حالها كرب ، سابت ابن الرفاعي وعيالها صغار.

- شفتها ياعلي مرة واحدة في لجنة امتحان السجن.

- انت نسيتها لما انسجنت يازاد. خالها قال لي بعد موت سارة انها دورت عليك بعد مخلصت تعليم واشتغلت ملقتكش، ولما عرفت بجوازك بَعدِت.

- زويده دورت عليا، وعرفت اني اتجوزت فبعدت! أنا ولا كأني اتجوزت ياعلي! قابلتها على باب الخروج من السجن، شالتني لغاية بيتهم، وهبتني نفسها وكليتها، اتجوزتها وماتت!.

- إهدا.أعمامها ماتوا، ومبقاش غير اخواتها، وخالها الصغير.

- هنشوفها يا علي!

- الصباح رباح نروحو لها مع الباتعه، ومعانا حنة وروما.

في الصباح خرج زاد من السرب متوجهًا للشونة مع الأولاد؛ ممنيًا النفس بزيارتي في دار خالتي في المساء. انقلبت الواطية برجالها ونسائها. صار زاد والسرب وعياله ونسوانه مماحكة جديدة بعد آخر بئر خصصها لهم زاد. أبلغ الرفاعية أهالي الأولاد- أبًا أبًا وأمًّا أمًّا- أنهم سوف يحرقون الشونة بمن فيها؛ فإن خفتم على ضناكم، روحوا انجدوهم. استجاب الأبناء بعد استعطاف من زاد للعودة مع أهليهم. ما أن غادر آخر فتى حتى أغلقوا باب الشونة عليه ورشقوا فيه عود حديد ليستحيل فتحه من الداخل. وقف أحدهم على سلم يغلق نافذة الشونة الغربية بجسده. أشعلوا النار قبل أن يتمكن من الخروج. اشتم رائحة الدخان. رفع يديه ودار. صرخ الحاج حسن:

(لا دا مش لف ولا دوران، لا هو ناي ولا زويدة، دا حكم غرابة والطويلة بولادهم ونسوانهم، حكم الرفاعية والموالسين معاهم من الحبشية دي وقفة زاد في وشكو، دا سرب النسوان اللي شيبكو، دا بير سرب النسوان).

دخل الحاج حسن في النار مرددًا آيات المنجيات من البلايا. لم يستطع السرب إطفاء الحريق؛ قطعوا عليهم الطريق وسرقوا الماء.

لا تنتظر النار منقذًا. تفاجئ كمباغتة السقوط من عل؛ كبلاغة نكث الغزل من بعد قوة، كانتحار الشوق من أعلى عراجينه، وقسوة المغادرة من بيت الأمل. احترق زاد!

في ليلة فقد آخر؛ رأيت ثاني جسد يغادر روحي. بالأسود ودعت سارة وبه أودع زادًا. لفوه في بطانية؛ كان الحاج حسن وعلي يطفئانه بها، بعدما قفزا من كوة في الجهة الغربية للشونة تطل على الجرن بعد هدمها؛ تلك التي سكبت بكائي فيها وصرخت منها؛ وهم يجلدونه وينطقونه كلمة طالق للمرة الثانية والأخيرة لنا. رفض أحبته خروجه من الشونة. حمل كل منهم خشبة مشتعلة من الحريق:

- مش هتشوفوه ولا تلمسوه، هنولعو فيكم دار دار نفر نفر، احنا ولاد الموت عارفينه وهتشوفوه على إيدينا. هنا عيشته ومماته وهنا كفنه ومدفنه.

همست بما كان يقوله:

لن تكون الأرض بعد الموت قبري

إن قبري في صدور العارفين(٥٩).

تشجعت بأبناء السرب، الشونة والجبانة. مات أبي وستي،

وكل أعمامي؛ فمن منهم بقادر على منعي عن زاد:

- سيبوني أشوفه ألم لحمه أساويه وأهيأه. والحاج حسن ملتاعًا:

- يابنتي، الطلة على زاد لا عيب ولا حرام، وانتِ أولى بُه.

لا يمكنني وصف تلك اللحظة ولا يسعني استعادة ماكان؛ فهي نار تشتعل في روحي بمجرد استدعائها. احترق؛ وهو يطل من كوة الشونة الشرقية؛ متطلعًا للأفق بغيومه البرتقالية ولأبنائه الراحلين؛ وربما لمن يشعلون النار فيه؛ كالمحاربين القدامى يخسرون أرجلهم وأيديهم بضربات التعذيب، ومقارعة الوحوش؛ فيعوضهم صانع أدوات الفرسان بغيرها. لم يستطع علي والحاج حسن ثني جذعه أو إرخاء ساعده المرفوع إلى السماء أو ساقه الخشبية. حملاه كشجرة أوقدوا النار تحتها. واقفًا؛ بسطا جسده على الأرض. وكما كان في حياته رقيقًا يحترق؛ كان مفارقًا جسورًا؛ أغلق باب الأرض خلفه ورحل.

ومال عود كان زاد دعامته. لم يمنعوني من البكاء على قبر سارة مجددًّا وفي حضنها زاد. من احتضان زاد النخلة والبكاء في ظل سعفها ونضيدها؛ شيدت سياجًا حول زويدة ونشجت. شيعت أحبتي على خيط دمع لم ينقطع، ولم أسقط. اكتمل اليتم وتم اليأس. فاضت العبرات، تعللت بدخان الحريق، بانفجار التوتر، بامتلاء الشرايين بأهوال لا يحتملها القلب، تعطل بعضه، انكسر قلبي لينجو ببعضه. شيعت زادًا، وعدت بأبنائي

إلى بيتي؛ ليس بيدي سوى حقائب اليتم والعِلَل. يتدفق الوقت كالماء السائب؛ فيغرق العمر.

رحل شمس الناي[٦٠]؛ النور والقصب يغني باتساع الحياة؛ فتبدد حلم إحياء حضرة للنهر مع كل حصاد. لم تعد في الواحة جذور، شروق الفيضان، دمعة ملاك تخمر عجين الحياة، عينا صقر تحمي الضياء، أناشيد الحاصد القديم حينما دار الزمان في فلك الإنسانية. و كانت مخازنهم تمتلىء بالحبوب والحنطة، القطن والكتان. يزوجون أبناءهم، في طقوس تشبه أقدم أعياد الإنسانية [٦١].

أخفق الماء وابتأس وتدهورت ضفافه؛ فاستولت روح الهجير على مآلاته. عمت العتمة فانمحت حياة، ثم بزغت مجددًا[٦٢].

لازمني الوجد؛ تبعتني الوحشة كنبضي حنينًا وجنونًا. أفتح عينًا على الظلام، بينما تتمسك الأخرى بالضياء.

هل أحظى بالسكينة والسلام وتأمل ماهو آت، هل ثمة أي معنى للماضي؟ هل أتجاوز غربتي وأفوز بذاتي الحقيقية.. وهل أعرف طرائق ممتعة للحياة؟ هل أحلق بالجديد؟!

تمت

إشارات مرجعية

١. محمود السطوحي، الزخارف الشعبية على مقابر الهو، سلسلة الدراسات الشعبية، القاهرة ١٩٩٩م، ص ص ٥٠-٥١.
٢. ماريو توسي وكارلو ريو راد، معجم آلهة مصر القديمة، ترجمة: ابتسام عبد المجيد، القاهرة، ٢٠٠٨، ص ١٠٤.
٣. خنوم الإله، موزع المياه، حامي منابع النيل، خالق الإنسان والطير والحيوان في الحضارة المصرية القديمة.
٤. تنطق رعرع في الفصحى، وفي العامية عرعر.
٥. وهب بن مُنَبه- في تفسير الطبري- سورة الأعراف.
٦. القرآن الكريم- سورة مريم.
٧. سفر نشيد الإنشاد الذي لسليمان.
٨. مزمور تسبِيحةٍ ليومِ السبت.
٩. القرآن الكريم- سورة الماعون.
١٠. لعبة ريفية بين لاعبين. تبدأ بوضع بنصر إحدى اليدين فوق إبهام الأخرى، يخبطهما المنافس، ومن لا يستطيع إفلات إبهامه والحفاظ عليه دون لمسه وفك اليدين من بعضهما، يمشي في وضع القرفصاء.
١١. أحمد بن محمد الشهير بابن عروس، شاعر عامية مصري.
١٢. السابق
١٣. نفسه
١٤. السهروردي
١٥. ابن عروس
١٦. السابق
١٧. نفسه
١٨. السهروردي
١٩. كان قدماء المصريين يستخدمون الناي في الطقوس والشعائر الدينية. صبحي أنور رشيد، الآثار الموسيقية في مصر القديمة، ص ٩٩.
٢٠. أبو عبد الله محمد بن إدريس الشافعي المطَّلِبي القرشي ثالث الأئمة الأربعة ،

ولد في فلسطين لأسرة فقيرة وعاش في مكة يتيمًا فقيرًا.
٢١. القرآن الكريم. سورة يونس.
٢٢. الكتاب المقدس .أشعياء ١٤:١٣- وحزقيال ١٥:٢٨.
٢٣. سفر التكوين.
٢٤. محيي الدين بن عربي؛ الفيلسوف والمتصوف، ولد في الأندلس.
٢٥. فريد الدين عطار؛ شاعر فارسي متصوف.
٢٦. القرآن الكريم- سورة آل عمران.
٢٧. أحمد بن محمد بن حنبل الشيباني، رابع الأئمة، ولد ومات في بغداد بالعراق.
٢٨. أبو الحسن علي بن نافع ذو البشرة السوداء؛ ولد في الموصل، عبقري الموسيقا والغناء، نودي بـ (الزرياب) تشبيهًا له بطائر الزرياب الأسود عذب الصوت (الشحرور).
٢٩. سفر نشيد الإنشاد الذي لزكريا.
٣٠. السابق.
٣١. وصفة شعبية ريفية للإجهاض : إدخال ساق برسيم في المهبل لتفجير الزيجوت.
٣٢. سمير يحيى الجمّال ، تاريخ الموسيقا المصرية، أصولها وتطورها، الهيئة المصرية للكتاب، سلسلة تاريخ المصريين عام ١٩٩٩ ، مكتبة الأسرة ٢٠٠٦.ص، ١٦٤، ١٩٩، ٢٠٢.
٣٣. بيتر بول روبنز فنان هولندي، (١٦٣٥) عُرف بتوليفاته الضخمة التي تفيض بالنساء المثيرات البدينات وذوات خصور واسعة ومثيرة.
٣٤. إلهة الخصب والنماء والتضحية في الحضارة البابلية، يصورها الفنانون بدينة باذخة القد.
٣٥. مارك شاجال، فنان روسي، (١٩١١)، تمتلئ لوحاته بملائكة وعشاق وحيوانات طائرة خفيفة.
٣٦. همام بن غالب؛ يُكنى بأبي فراس ، شاعر، ولد ونشأ في بادية البصرة. نظم شعر المدح لغاية التكسب.
٣٧. يجرف الفرن لخفض مستوى الرماد كي يستوعب الفرن الوقود الجديد، وحتى لا يكون الرماد عاليًا و يحترق العيش.
٣٨. الجزء من الجريدة المتصل بجذع النخلة، يفصل عنها ويصير شبيهًا بالجاروف.
٣٩. أبو الوليد أحمد بن عبد الله بن غالب بن زيدون المخزومي، يكنى بأبي فراس؛

وزير، كاتب وشاعر. ولد ونشأ في البصرة.
٤٠. كان لنهر النيل سبعة فروع انتهت إلى فرعين فقط، دمياط ورشيد.رشدي سعيد، نهر النيل نشأته واستخدام مياهه في الماضي والمستقبل، دار الهلال، القاهرة ، ١٩٩٣، ص ص ٨٧-٨٨.
٤١. للإبل والمها كريات دم حُمر بيضاوية الشكل عديمة النواة، تحتفظ بتركيز عال من الأكسجين على سطحها مما يسمح لها بنقله للمخ وباقي أعضاء الجسم أثناء العطش ونقص الماء في جسمها فتحتمل وتواصل الحياة، على خلاف الكائنات التي تتمتع بكريات دم حُمر كروية الشكل لا تحتمل العطش فتهلك. كما أن الإبل والمها تخزن الماء في دورتها الدموية، ويمكنها شرب مئتي لتر دفعة واحدة، وتحتمل شرب الماء المالح.
٤٢. هيكات، (حقت) ربة الولادة والخصوبة في الحضارة المصرية، زوجة خنوم الإله، خالق الإنسان والطير والحيوان، ربة البعث تنفخ الحياة في الكائنات التي يقوم خنوم بخلقها من الطين. راعية النساء اثناء الولادة ، تمثل الرقم مئة ألف في الحضارة المصرية لاحتوائها على مئة ألف بيضة حسب علم التشريح.
٤٣. يحتمل الضفدع أقسى الظروف البيئية، بانحسار المطر في الصحراء يقوم بتخزين ما يعادل نصف وزنه من الماء الصالح للشرب، يحفر ملجئًا تحت الأرض بعمق متر ويحيط نفسه بغلاف كالشرنقة يحفظ الماء داخله من التبخر في انتظار موسم الأمطار القادم، وتصل فترة الانتظار(الكمون الصيفي) إلى خمس سنوات
٤٤. أبو القاسم الجنيد بن محمد الخزاز، من أعلام التصوف السني في القرن الثالث الهجري، كردستاني.
٤٥. القرآن الكريم- سورة الإخلاص.
٤٦. القرآن الكريم- سورة البقرة.
٤٧. القرآن الكريم- سورة النساء.
٤٨. القرآن الكريم- سورة النور.
٤٩. أصلها (خرنق) وتستعمل هنا بمعنى صغير الأرنب، ويقال للذكر والأنثى، ويقصد بها السباب.
٥٠. كرسي الولادة. اخترعه قدماء المصريين به فتحة تجلس عليها الوالدة وتجلس القابلة أمامها تسحب المولود من فتحته.

٥١. صوت آلة موسيقية مصرية قديمة، برؤوس معدنية، بهزها تحدث صوتًا يخفف آلام المخاض، ويبعد الشر عن الوالدة.
علماء الحملة الفرنسية، موسوعة وصف مصر، ج٧، الموسيقا والغناء عند قدماء المصريين، ترجمة : زهير الشايب، ص ص ١٠٧-١٤٢
٥٢. الكتاب المقدس. سفر التكوين.
٥٣. محمد الفارابي، كتاب الموسيقا الكبير، تحقيق وشرح غطاس عبد الملك خشبة، دار الكتاب العربي، القاهرة ،١٩٦٧، ص ٧٧١.
٥٤. قيسُ بن المُلوَّح بن مُزاحم العامري؛ شاعرٌ وأميرٌ ينتمي إلى قبيلة بني عامر القيسيّة العدنانية التي سكنت منطقة نجد.
٥٥. السابق.
٥٦. نفسه
٥٧. نفسه
٥٨. أوزوريس مخترع المحراث والشادوف؛ أول من علم الجبتيين (المصريين) الزراعة و الكتابة، ولبس المخيط، البناء بالحجر وسكن البيوت بدلًا من الكهوف. مؤسس قانون الأخلاق في مصر القديمة. وكان يتلقى دعوة الآلهة فيصعد إليهم يتعلم وينقل للأرض ما تعلمه في السماء.
وفقًا لما نقله المؤرخون عن بردية «تورينو» المصدر الرئيس لقائمة حكام مصر، وكتاب «الجبتانا» للمؤرخ المصري مانيتون السمنودي.
٥٩. جلال الدين الرومي.
٦٠. اخترع اوزوريس الناي في الألف الثامن قبل الميلاد، وكان قصبة واحدة بثقب واحد. ويرجع تطوير الناي للفترة بين الدولتين الوسطى والحديثة (١٤-١٨) .
إستنادًا إلى: علماء الحملة الفرنسية، موسوعة وصف مصر، الجزء السابع، الموسيقا والغناء عند قدماء المصريين، ترجمة: زهير الشايب ص ص ١٠٧ –١٤٢. ورشدي سعيد ، مرجع سابق.
٦١. عيد الحصاد المصري (٨ يوليو- ٩ أغسطس). عبد الحليم نور الدين، آثار وحضارة مصر القديمة، القاهرة، ٢٠٠٨، ط١، ج ١، ص ٦١٣.
٦٢. أخفق النيل نهاية الأسرة الرابعة عشر في ري أراضي مصر فيما يعرف بعصر الاضمحلال الثاني فتدهور الاقتصاد، واحتل الهكسوس مصر واستولوا على العاصمة منف وأسسوا الأسرة الخامسة عشرة، وأعملوا التخريب في مصر فاندثرت حضارة.



أهملت بنياني فقد ضاق ثوبي وصار لدي جسد يزخر بالخطيئة! أرفع كتفي وأقوسهما وأدفعهما للأمام ليخفيا ما نهد في صدري. حرت في ردفي، كيف أخبئهما، كيف أمنع استدارة فخذي. يهيلون الآثام على جسمي، كما يردمون التراب على القبر أظلموا جسدي. ابتعدت عن أهوال البدن لأنجو؛ فعشش السؤال في صدري. أتحين أوان الصفا والليل لحصاد الإجابات. في طريق شاق الاستجابة؛ كغيمة صغيرة تلح بالمطر في صحراء.

أتحسس الطريق إلى قريتنا؛ الفيضان والدميرة، الحضرة ولاجئي الجبانة، العالية والواطية، سرب النسوان؛ اعتصرني التعلق بالإجابات؛ فاضطُررت للاشتباك بأسئلة الأطفال الساذجة.

لوحة الغلاف للفنان الأرميني: Avetis Khachatrian



